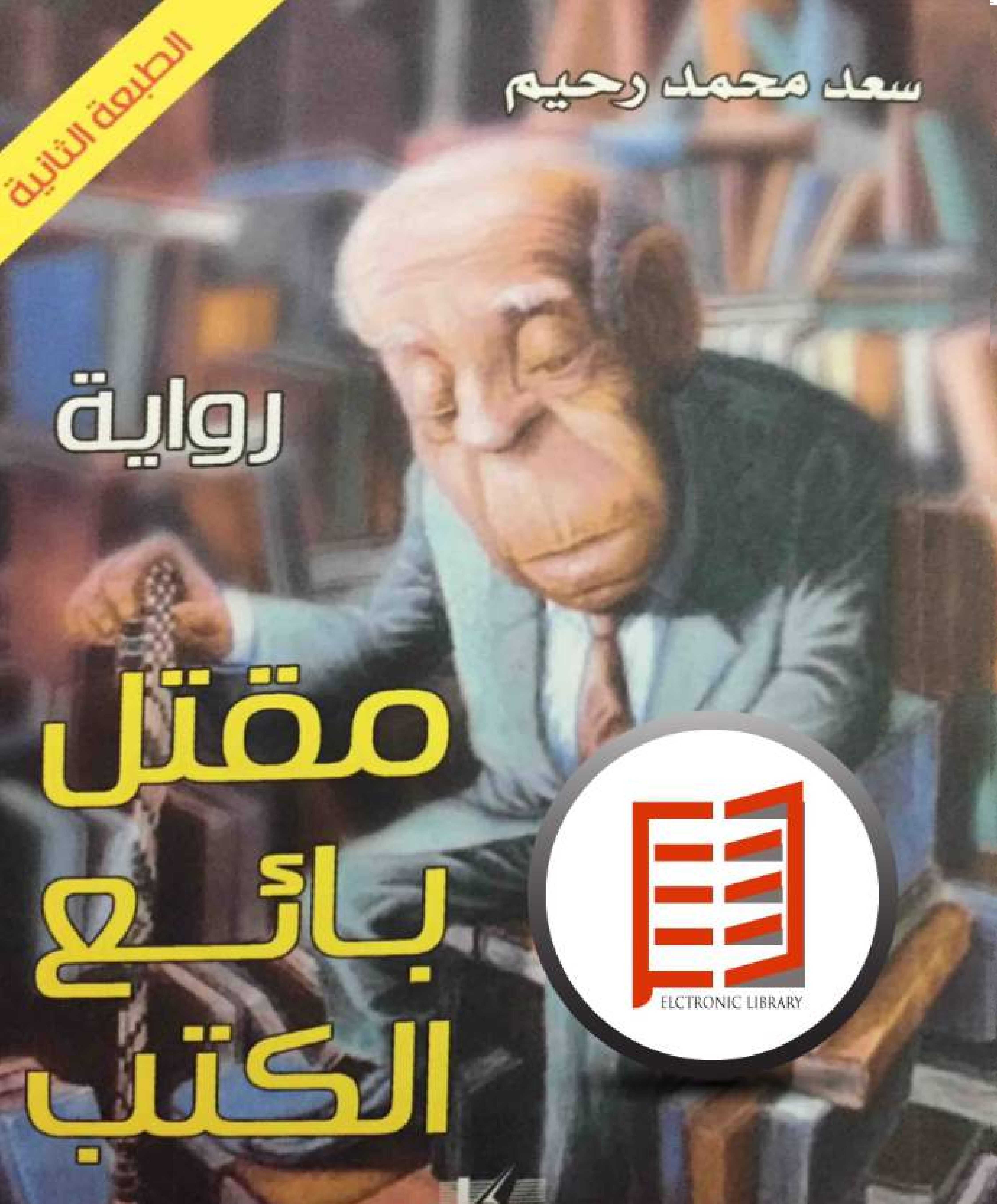


الطبعة الثانية

سعد محمد رحيم

رواية

مقتل بائع الكتب

سطور

القائمة الطويلة للجائزة العالمية للرواية العربية البوكر 2017

رواية

سعد محمد رحيم

مقتل بائع الكتب

ELCTRONIC LIBRARY

سطور

رواية مقتل بائع الكتب

الفصل الأول

.1.

كنت آخر شخص ينزل من المايكروباص.. وقفت على رصيف شارع الكراج القديم أعدِّل من هندامي، وأجيل النظر بوَجلٍ حولي، كأنني أتوقع مفاجأة سيئة.. بعقوبة التي أدخلها للمرة الأولى تسبح في ضباب شفيف.. المدينة التي عاشت عنفاً دامياً طوال السنوات السبع الأخيرة تبدو مسالمة، راكدة في هذه الساعة المبكرة من النهار.. قلّة من المارّة تسرع باتجاه الكراج، وثمة ثلاثة من رجال الشرطة في الجانب الآخر من الشارع أمام بوّابة دائرة حكومية؛ اثنان منهما يمسكان بندقيتيهما برخاوة، ويدخِّنان بضجر. فيما الثالث إصبعه على الزناد ويحدّق في الوجوه.. نفخت في كفيّ وأنا أكورهما لأمنحهما بعض الدفء.. التقطت حقائبي الثلاث الصغيرات؛ واحدة للأوراق علقتها على كتفي، وحملت الثانية الخاصة بجهاز اللابتوب بيد، والثالثة التي فيها ملابسي وأشيائي الشخصية باليد الأخرى، ومشيت مرتاباً من غير أن أعرف إنْ كانت وجهتي صحيحة، متجنباً، تحت ضغط وازع مبهم، أن أسأل عن المكان الذي أبغي.. شحّاذ سمين مخبول يقتعد أرضية الرصيف الكونكريتية

الرطبة بدشداشة سوداء قذرة مفتوحة الزيق، يلعن آباء من لا يساعدونه، فيما يستحثه عامل بلدية شاب يكنس حافة الشارع على ترديد كلمات بذيئة.. اقتنعت أن لا شيء غير اعتيادي فاستعدت هدوء نفسي.. ولجت إلى مطعم شعبي.. جلست إلى المنضدة الوحيدة الخالية. كانت قريبة من المغسلة.. جاءني النادل بماعون يطفح بحساء العدس ورغيفين قبل أن يسألني عن طلبي.. عرفت أنهم لا يقدِّمون سوى هذا الصنف عند الفطور.. سخونته اللذيذة جعلتني ألتهم الماعون وأمسحه بآخر قطعة من الخبز حتى ظهر وكأنه جُليَ لتوِّه. ومع قدح الشاي اكتسبت حيوية عالية.. سألت صاحب المطعم وأنا أنقده ثمن الطعام عن مكتب مصطفى كريم فأعلمني أنه عند استدارة الشارع، إلى اليسار.

قبل أسبوع، عند منتصف ليلة عاصفة وممطرة تلقيت مكالمة غريبة.. من وهن نبرته وبحّتها خمّنت أن من يخاطبني رجل تعدّى السبعين من عمره.. قال إنه يتابع كتاباتي في صحيفة (الضد)، وأشاد بالأعمدة والتحقيقات التي أكتبها.. ظننت أن الأمر لا يعدو كونه نوعاً من مكالمات الإعجاب التي يسمعها العاملون في مجال الإعلام من متلقّيهم.. شكرته وأنتظرت أن ينهي المكالمة غير أنه راح يتحدّث عن محمود المرزوق، بائع الكتب الهرم الذي أغتيل قبل شهر في شارع الأطباء ببعقوبة.. المرزوق لم يكن شخصية مشهورة خارج مدينته، إلاّ أن سابتايتلات عدة قنوات فضائية عراقية نقلت خبر مقتله، فيما كتبت صحف العاصمة مقالات عديدة عنه.. لم يثرني الخبر كثيراً في حينه.. أعلمني الشيخ الغامض الذي رفض الكشف عن هويته عبر الموبايل أنه كان يعرف المرزوق جيداً جداً، وأنهما اختلفا لأسباب سخيفة قبل

أكثر من عشرين سنة. وانقطعت بينهما السبل منذ ذلك الوقت.. سألته عمّا يطلبه منيّ. قال؛ «أريدك أن تكتب كتاباً عنه وسأتكفل بنفقات نشره بطباعة راقية في بيروت».. حاولت الاعتذار فنهرني كما لو كنتُ تلميذا صغيراً في صف هو فيه الأستاذ: «لا تقاطعني.. سيكون كتاباً ممتازاً.. كتاب العمر.. أنا متأكد.. أنت صحافي ذكي، وتحقيقاتك تنم عن قدرة على كشف المستور».. شرح لي كيف أن حياة المرزوق غابة من الأسرار وعليّ الوصول إليها. وهي في النهاية تشكِّل دراما كبيرة، فيها بُعد تراجيدي.. «دراما تلخِّص تاريخاً عريضاً لجيلنا»، كما قال..

ولابد من أن يكون رجلاً غنياً ويمتلك نفوذاً واسعاً لكي يقول أنه يستطيع أن يحصل لي على إجازة من الصحيفة لستة أشهر بلا راتب. فيما سيعطيني مبلغاً يعادل الدخل الذي أقبضه من مؤسستي لمدة سنتين: «نصف المبلغ قبل أن تبدأ، والنصف الآخر بعد أن تنتهي. فكِّر جيداً قبل أن ترد، تصبح على خير». وأقفل الخط.. وحين عاد ليتصل بي بعد يومين وفي الساعة نفسها لم أكن قد حسمت قراري بعد.. تركت جرس الموبايل يرن والحيرة تلفّني حتى صمت.. ولمّا هاج الرنين مرة ثانية أسرعت بالضغط على زر الاتصال الأخضر. وفي لحظة، وقبل أن ينطق بحرف قلت: «أنا موافق».

اقترح أن يضع تحت تصرّفي سيارة حديثة، مع سائق يمتثل لأوامري، غير أنني اعترضت: «أشكرك.. امتلك سيارة، لكني سأتركها في بغداد.. سأستخدم التاكسيات وحافلات النقل العام.. أعتقد أن هذا أكثر أماناً».

وأنا أدفع باب الألمنيوم المزجج وأدخل مكتبه، رفع مصطفى كريم

عينيه عن أوراق كان يراجعها وشملني بنظرة ذات بريق ضاحك.. قام خارجاً من وراء منضدة المكتب العريضة ومدّ يده نحوي: «أهلا وسهلاً أستاذ ماجد، عرفتك من النظرة الأولى، والفضل عائد لصورك المنشورة في الجريدة وعلى الفيس بوك».. تصافحنا وجلسنا على أريكة قرب المدفأة النفطية المشتعلة وسط المكتب المفروشة أرضيته بسجّاد أحمر.. قال أنه كان ينتظر قدومي بين لحظة وأخرى بعد أن أنهى توزيع الصحف والمجلات، التي تصله مع بزوغ الشمس من بغداد، على الباعة وأصحاب المكتبات. وهو يرسل أيضاً حصص الأقضية والنواحي بأولى الباصات المغادرة من الكراج القريب.. طلب من ابنه الذي يساعده في المكتب أن يعدّ لنا فنجاني قهوة.. مذاق القهوة الطيب مع حفاوة مصطفى أشعلتا حماسي بصدد المشروع الذي أقدمتُ عليه.. المشروع الذي لست على يقين فيما إذا كنت سأنجح بإنجازه أو أخفق.

نقّلت نظري بين رفوف الكتب على جانبي المكتب.. قال أنه يجلب الكتب من شارع المتنبي ببغداد ليس بقصد الربح وإنما من أجل زبائنه من المثقفين والطلبة.. لمّحت إلى صور أربع لأرنستو جيفارا معلّقة على الحائط، اثنتان خلف كرسيّه الدوّار وواحدة في كل جانب بين صفوف الكتب. ضحك وقال: «نوعه لا يتكرر، إنه رمز». وكان يشير بسبابته تحديداً إلى صورة المناضل اللاتيني أمامنا بقبّعته ولحيته الشعثاء الخفيفة، وفي فمه سيجار كوبي، وينظر بعينين لامعتين إلى أفق قصي لا يبين.

«قبل شهر اقتحم الأمريكان مكتبي بقصد التفتيش، لفتت انتباههم صور جيفارا.. من هذا؟ سأل قائد المجموعة من طريق المترجم..

قلت: جيفارا؟ قال؛ من هو؟. قلت رجل قارع الديكتاتوريات في أمريكا اللاتينية وقُتل غدراً. كان يمكن أن يعتقلني بشُبهة الإرهاب غير أنه لم يفعل.. أتعتقد أنه لم يكن يعرف جيفارا؟».

بعد احتسائنا لفنجان القهوة الثاني سألني مصطفى: «ما الذي جعلك تهتم بسيرة محمود المرزوق.. أتعرفه جيداً؟». قلت: «الحقيقة لا أعرف عنه أي شيء». وحكيت له عن الشيخ السبعيني الذي كلّفني بهذه المهمة، وكيف وفى بوعده واضعاً في حسابي المصرفي مبلغاً يفوق ما أستلمه من محاسب الجريدة لمدة سنة كاملة: «ليس هو المال ما شجّعني على الدخول في المغامرة.. بل الفضول، والشغف وما حكوه عنه.. أعتقد أنه يستحق أن يخلّد بكتاب.. صديقي الروائي سعد محمد رحيم دلّني عليك.. كان لمدة ستة عشر عاماً في بعقوبة قبل أن يُهدّم نصف منزله بانفجار عبوة ناسفة في 2006 فغادر المدينة.. هو صديقك كما قال ويعرف المرزوق.. أعلمني؛ ليس غير مصطفى كريم من سيساعدك ويعينك في رسم خارطة طريق للعمل. أعطاني رقم موبايلك فخابرتك، وها أنذا معك».

قال مصطفى: «بعقوبة بسبب أحداث العنف خسرت أكثر من نصف مبدعيها.. بعضهم هجرها، وبعضهم أغتيل فيها، وبعضهم مات كمداً.. نأمل أن تستعيد المدينة عافيتها الآن».

«والآن من أين نبدأ؟».

قال: «نقرر أولاً أين ستسكن، فبعقوبة لا فنادق فيها».

«هذه مشكلة». أعلنت عن استغرابي.. ابتسم: «لا مشكلة ليس لها

حل». وشرح لي كيف رتّبَ لي، مع صديق له سافر ولداه إلى سوريا وبقي هو ينتظر الفرصة للالتحاق بهما، السكن في منزله الصغير، وسط المدينة، قال: «الأستاذ حيدر مدرس فن متقاعد.. فقد زوجته في انفجار سيارة مفخخة وسط سوق المدينة في الـ 2007.. فرح حين اقترحت عليه أن تسكن معه.. يرسم ولا يعدّ نفسه رساماً.. يقرأ ولا أظنه جرّب الكتابة. هو من قراء جريدتكم ومعجب بكتاباتك. حلو المعشر، متدين من غير تعصّب.. لا شيء سيقيّدك هناك».

لم يكن من سبيل للاعتراض، إذ ما البديل الذي أمتلكه إذا ما رفضت..

استأنف الكلام وكأنه فكر بكل شيء: هناك أربعة غيري سيوفرون المعلومات المفيدة لكتابك؛ ابن أخت المرزوق وهو طالب دراسات عليا في التاريخ اسمه فراس سليمان.. هيمن قره داغي؛ أحد أدباء المحافظة البارزين، كردي يكتب بالعربية، وأظنك تعرفه. والرسام سامي الرفاعي؛ يعيش في هولندا ومن السهل أن تراسله بوساطة الإنترنت». وسكتْ..

حككت ذقني وسألت: «والرابع، من هو الرابع، لم تقل لي؟».. قال: «الرابع... امرأة».

ـ امرأة؟

ـ نعم، ليس من الصعب جداً الوصول إليها، غير أنها مصدومة بسبب مقتل المرزوق، وموبايلها مقفل دائماً، سأجد طريقة للاتصال بها.

ـ ومن هي هذه المرأة؟.

صفن قليلاً ثم استرسل: «شخصياً لا أعرفها جيداً.. عائلتها ليست قديمة في المدينة.. سكنتها في الثمانينيات.. أظنهم من بغداد.. المرأة اسمها رباب، وهي مقرّبة للمرزوق.. صديقته الحميمة، إن شئنا القول، ولها دور محوري في القصة. رباب هذه جميلة متحررة، تعيش في بيت أخٍ لها، متطرِّف، علاقتها به ليست على ما يرام.. شكّي أنه إرهابي». أرجأتُ سؤالي عمّا يمكن أن تفيدني رباب هذه، وقلت:

ـ يبدو أننا سنعيش فصلا لا يخلو من الخطورة والإثارة.

ـ لا تتوقع أن تكون مهمتك سهلة، خاصة إذا ما تماديت ونبشت في العمق.

ـ وما الأفضل برأيك؛ أن أبقى على السطح؟

ـ بالعكس.. أتمنى أن تغوص إلى الجذور.. أي شيء تكتشفه قد يشكِّل فضيحة لبعضهم.

ـ أمن حقي أن أقدّم الأشخاص بأسمائهم الحقيقية؟

ـ أخشى أنْ لا.. ليس دائماً.. هذا قد يسبب لك مشكلات قانونية.. يمكن الاستعانة بالحروف الأولى، أو الأسماء البديلة.. أنت أعرف.

. 2 .

الزمان؛ آخر النهار من يوم دافئ على غير العادة، منتصف كانون الأول 2009.

المكان؛ شارع الأطباء في مركز مدينة بعقوبة.

يخرج محمود المرزوق من معتكفه في سرداب عمارة من أربعة طوابق بنيت أواخر سبعينيات القرن الماضي. ذلك الذي اتخذه محلاً لبيع الكتب أو إعارتها مقابل ثمن بسيط.. يبدو نصف صاحٍ ونصف مريض.. يختلط بالمارّة يتقدّمه عكازه الأسود ذو المقبض المعقوف.. يسلم عليه أحدهم غير أنه لا يرد، ربما لأنه لم يسمع كلمات السلام في ذروة ضجيج الشارع.. ربما هو مشغول الذهن.. قيل أنه كان يتجه نحو الصيدلية القريبة لشراء أقراص مرض الضغط الذي يعاني منه منذ عقدين.. قيل أنه كان يقصد استوديو الأمل ليدردش مع صاحبه حسّان مطر كما تعّود أن يفعل في كل شهر مرة واحدة، في الأقل.. قيل أنه كان يبغي منزل سلام أبو الأنف الأفطس مهرِّب الخمور في محلة السراي لشراء قنينة ويسكي علامة بلاك ليبل يجلبها له خصيصاً ذلك المهرِّب الحاذق المكنّى بأبي الأنف الأفطس.. منعه الأطباء من معاقرة الخمور.. أقنع نفسه أن كأساً أو كأسين من الويسكي الجيد في كل ليلة لا ضرر منها..

ربما كان يسير على غير هدى ليحرِّك قليلاً أعضاءه الشائخة.. ينادي شخصاً ما.. يصير في مواجهة شاب.. يتصافحان.. يتكلمان في أمر ما.. لا تستغرق المحادثة أكثر من دقيقة أو دقيقة ونصف.. ثم يمضي كل منهما في حال سبيله.. يمشي المرزوق بضع خطوات. وفي لحظة خاطفة يتوقف عن السير، يرتعش، ينكفئ، يترنح، يقع، يتمدد على بطنه..

اقترب منه شابان ظنّا أنه عثر بحصاة، أو بثلمة صغيرة في كونكريت الرصيف، أو أصيب بالإغماء، أو أي شيء من هذا القبيل.. انحنيا عليه بوغتا ببقعة دم تتسع تحته تسيل نحو الشارع.. تراجعا.. وفي لحظة خاطفة تالية فهم المارّة الأمر فانفضوا من حوله كما لو أنهم يهربون من وباء.. أسرعوا في كل اتجاه مهرولين خائفين.. بعد أقل من دقائق ثلاث خلا الشارع إلا من شرطي أقبل يجري نحو الجسم الملقى بلا حراك وما يزال ينزف.. كان هناك أيضاً أصحاب محلات يعالجون أقفال أبواب محلاتهم بأصابع ترتجف قبل أن يلوذوا بالفرار.. لم يسمع أحد صوت إطلاقة نارية.. أقبلت سيارة الإسعاف وهي تزعق.. مضمِّدان مع الشرطي حملوا جثة الضحية ووضعوها في حوض السيارة التي مازالت تطلق زعيقها. وفي لحظة انطلاقها إلى المستشفى ارتفع صوت أذان المغرب من جامع الفاروق القريب.

احتمال أن تكون الإطلاقة عشوائية وأقبلت من بعيد رُفِضَ في الحال.. احتمال أن يكون قناص مختبئ على سطح بناية بعيدة صوّب بندقيته نحوه أُستبعد بعد حين لأنه كان وسط زحام، ولأن لا بناية بعيدة يمكن أن نرسم من سطحها خطاً مستقيماً، هو مسار افتراضي لإطلاقة، ينتهي عند المكان الذي أصيب فيه، في موضع القلب.. احتمال أن يكون

القاتل اقترب كثيرا من الضحية وأطلق رصاصته من مسدس كاتم للصوت يخفيه تحت ثيابه هو الذي أخذت به الشرطة وأكّده تقرير الطب العدلي. الإطلاقة على وفق تقرير الخبير الجنائي أطلقت من قرب شديد.. ثقب صغير في الظهر وآخر كبير في الصدر، وعثر على الرصاصة الصغيرة على بعد خطوات، عند عمود كونكريتي اصطدمت به وسقطت على أرضية الرصيف.. من حسن الحظ أنها لم تصب شخصاً آخر.. لم يدلِ أي أحد بشهادة مفيدة بهذا الصدد فقيّدت الجريمة، كما جرت العادة، ضد مجهول اسمه؛ إرهابي. فقط صاحب محل يبيع النظارات الطبية في الجانب المقابل من الشارع همس في أذن مصطفى كريم أنه كان يجلس وراء واجهة محله الزجاجية يراقب المارة وعينه على المرزوق فأثار انتباهه شاب وثب من وراء المرزوق واجتازه وكأنه على عجلة من أمره، حدث هذا قبل أن يقع المرزوق بثوانٍ.. قال الشاهد، الذي امتنع عن الإدلاء بشهادته للشرطة، لمصطفى كريم هامساً في أذنه، أن الشاب كان طويلاً، يرتدي دشداشة بيضاء وجاكيتاً رصاصياً، أو أزرق، أو بأي لون قاتم.. إذ بم يهم لون جاكيت القاتل طالما أنّ صاحب محل النظارات نفسه ليس متأكداً مما رأى، ولا نيّة له للتورّط في شهادة قد تكلّفه حياته.

ـ 3 ـ

في بيت مصطفى كريم بعد الغداء:

أخرج مصطفى كريم من محفظته الجلدية القهوائية اللون ثلاث صور وناولها لي. اثنتان ملوّنتان، حديثتان نسبياً، وواحدة قديمة بالأسود والأبيض. وكلّها لمحمود المرزوق.. الصورة القديمة باهتة، يظهر فيها شاباً حليق الرأس، يرتدي بنطالاً عريضاً وقميصاً أدكن بأكمام قصيرة. يقف أمام أجمة من النباتات عند نهر ديالى. ويرفع بيده اليمنى كأساً مملوءة بشراب حليبي؛ عرق على الأرجح.. اللقطة مأخوذة من تحت ويبدو فيها طويلاً.. ينظر إلى الكاميرا باسماً، مع مسحة من الخجل.. قال مصطفى: هذه الصورة ألتقطت له بعد إطلاق سراحه من سجن نقرة السلمان في العام 1968. هذا بستان في بهرز وقد أقام له أصدقاؤه اليساريون يومها حفلة بالمناسبة.. هناك صور أخرى من الحفلة نفسها يظهر فيها أشخاص، ويحتفظ بها الرسّام سامي الرفاعي الذي هو الآن في هولندا.. يمكن أن يصوِّرها بالسكنر ويرسلها لنا بالبريد الإلكتروني..

الصورة الثانية ألوانها حائلة. ويظهر فيها المرزوق مستنداً إلى سياج حديقة ما. يداه في جيبي قمصلته الجلدية السوداء ووراءه تسير، بين شجيرات الورد، امرأتان بتنورتين قصيرتين باللون الفستقي. وفي عمق الخلفية ناطحتا سحاب وكنيسة ببرجٍ عالٍ.. ينظر في عين الكاميرا..

سالفاه طويلان وشعره يغطي أذنيه.. يبدو منتشياً ويضحك من القلب..
قال مصطفى كريم: «هذه الصورة ملتقطة، منتصف السبعينيات، في براغ.. سافر إليها في نهاية الـ 1970 بعد اعتقاله في الأمن العامة لمدة قصيرة. وهناك، في تشيكوسلوفاكيا حصل على شهادة البكالوريوس في الفنون/ قسم الرسم.. ثم تركها إلى باريس بعد عشر سنوات. لكنه بعد نهاية الحرب مع إيران، وتحديداً في العام 1989 عاد بشكل مفاجئ إلى بعقوبة.. سألته ذات مرة عن السبب قال: «أبداً لم أستطع التأقلم خارج هذه المدينة.. كانت لي آرائي التي لم تعجبهم في براغ، ومشكلاتي هناك، كنت شخصاً غير مرغوب فيه كثيراً.. لم يبعدوني، لكنهم فرحوا بالتأكيد حين غادرتهم. ومن ثم ظروفي الصعبة في باريس»... وأظن أنه كان يخفي عنّا السبب الحقيقي.. استأجر محلاً كبيراً وأسس مكتبة لكن قرّاء الكتب في هذه الفترة كانوا قد قلّوا كما تعلم.. كان قد استلم مبلغاً جيداً من ميراث أبيه وأنفقه في ذلك المشروع الذي لم ينجح تقريباً، حيث جاءت التسعينيات بغزو الكويت والحصار الاقتصادي، وتدهور الأوضاع.

الصورة الأخيرة أحدث من سابقتيها.. ألتقطت في نهاية التسعينيات وهو جالس على كرسي خشبي عريض بين أكوام من الكتب في سرداب العمارة التي أغتيل على بعد أمتار منها.. لحيته نامية ويلبس على رأسه قلنسوة رمانية اللون حيكت من خيوط الصوف، تظهر على جانبيها حول رقبته خصلات من شعره المصبوغ بلون الحنّاء.. نظرته حالمة، حزينة. وعلى العموم توحي رخاوة جلسته وترهّل جسمه بأنه متعب ويعاني من بعض أمراض الشيخوخة. قال مصطفى كريم: «ترك المحل بعدما لم

يعد قادرا على دفع إيجاره.. تعرف ظروف الحصار بعد غزو الكويت.. عمّه الذي يملك هذه العمارة عرض عليه أن يحوّل السرداب إلى مكتبة.. إنه ليس سرداباً بالمعنى المألوف.. طابق تحت أرضي ومفتوح على الشارع، وهناك سلّم كونكريتي ينزل إليه. وافق وعافَ أيضاً غرفته المستأجرة في نزل وسط السوق ليسكن مع كتبه.. عزل القسم الخلفي من السرداب بلوح خشبي جاعلاً منه غرفة لمنامه في الشتاء. وفي الصيف ينام القيلولة ظهراً بين الساعة الثالثة والخامسة في مكتب محاماة يديره صديقه عزيز المحامي في العمارة نفسها. وليلاً يصعد إلى سطح العمارة لينام تحت ضوء النجوم. يقول إن تسلق سلالم أربعة طوابق يعد رياضة إجبارية. كان يستخدم حمّام الطابق الأول ومرحاضه، ويشتري طعامه من المطاعم الشعبيّة.. بقيت له حصّة صغيرة من بستان أبيه، الذي لم تشأ العائلة بيعه، كان يصله منها دخل لا بأس به يغطّي بعض مصروفاته وإنْ كانت، على أية حال، قليلة.

.4.

خرجت مع مصطفى كريم من مطعم غسّان للمشويات بعد ساعة الغروب.. أوصلني بسيارته إلى المنزل الذي سيأويني للشهرين الآتيين.. منزل واجهته كقطعة كرتون، يقبع في أقصى زقاق ملتوٍ شبه معتم، خلف شارع مبنى المحافظة. باب صالته الحديدي يطل على الزقاق مباشرة.. استقبلنا الأستاذ حيدر مبتسماً.. أسمر بفم عريض وشامة كبيرة على خدّ وجهه الأيسر.. صافحني طويلاً عند الباب ضاغطاً بأصابعه الخشنة على كفّي وهو يردد: «أهلا بك، أنت في بيتك، أهلاً أهلاً».. دخلنا الصالة الصغيرة العارية الجدران إلا من لوحة كبيرة رُسمت عليها آية الكرسي بخط الثلث المذهّب.. جلسنا على أرائك واطئة قديمة وبقي واقفاً يكرِّر عبارات الترحيب. ثم مشى إلى المطبخ وعاد بعد دقيقة مع كؤوس من الشاي المهيّل.. شملني بنظرة لطيفة وقال: «أعرف لماذا أنت هنا؟». جلس قبالتي وحكى لي بضع طرائف عن المرزوق.. قال متأففاً: «كان صاحب نكتة رحمه الله.. كيف يجرؤ أي شخص على قتل إنسان كبير لا يؤذي فراشة مثل محمود المرزوق؟».

«دردشا على راحتكما، أما أنا فعليّ الذهاب»، قال مصطفى كريم بعد فراغه من احتساء كأسه، وقام ليغادر..

في تلك الليلة وأنا آوي إلى فراشي، في الغرفة التي كان يشغلها ولدا

الأستاذ حيدر، راجعت دفتر ملاحظاتي.. وسجّلت بعض الأفكار على جهاز اللابتوب، في الملف الذي سأسميه منذ الآن بـ(مقتل بائع الكتب). لا بأس بحصيلة اليوم الأول.. ولم أستطع أن أغفو حالاً على الرغم مما أشعر به من تعب.. تناهت أصوات صلية إطلاقات بعيدة، ونباح كلاب، وانطفأت الكهرباء الوطنية فتعالى هدير مولِّدة كهربائية صغيرة شغّلها الجيران.. ومن تحت الباب كان ينبعث ضوء مصباح يشتغل بالبطاريات تركه الأستاذ حيدر في الممر.. تحت البطانيتين الثخينتين علامة النمر غمرني الدفء، وعلى الوقع الرتيب لدمدمة المولِّدة الكهربائية راح يسحبني برفق سلطان النوم.

من طرائف المرزوق التي حكاها الأستاذ حيدر في ليلتي الأولى بمنزله:

- مع وصوله إلى بعقوبة زاره أقرباؤه وأصدقاؤه ومعارفه القدامى.. سأله أحدهم عمّا وجد من تطوّر في المدينة بعد مفارقته لها منذ تسع عشرة سنة.. سأل بدوره؛ أما زال الأولاد الصغار يرمون أشجار النبق والنخيل بالحجارة في موسم الثمار؟. قالوا؛ نعم. قال؛ إذن لم يحدث شيء مهم.
- طلب منه شخص ما، أحمق، مهووس بكتب السحر، أن يحصل له على كتاب (شمس المعارف الكبرى) وهو كتاب سحر شهير لمؤلف من القرن السابع الهجري اسمه أحمد بن علي البوني.. قال له المرزوق: «ولِمَ أحصل عليه وأنا عندي نسخة منه».. واتفق مع الشخص ذاك على سعر معين للكتاب، لكنه

قال: «لا تدفع لي الآن، لا يجوز. أتريد أن يتسبب أسياد المردة والجان بجنوننا؟. عليك أن تحضر في الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل عند جسر المشاة الأوسط على نهر خريسان. وهناك عليك أن تتعرى تماماً وتنتظر. سيأتيك جنيٌّ خارجاً من الكتاب لاستقبالك ولن يراك أحد لا السكارى ولا العاشقون الساهرون ولا شرطة النجدة أو الحرّاس.. سيجعلك الكتاب مخفياً طالما إنك نويت على اقتنائه.. سيأخذ الجنيّ منك المبلغ ويسلّمك الكتاب ويقول لك أنا وجماعتي طوع أمرك.. هكذا فقط يمكن أن يُباع مثل هذا الكتاب». ولأن المرزوق كان يتكلم هامساً وعلى قدر عالٍ من الجدّية فقد اقتنع ذلك الأحمق بما سمع.. نسي المرزوق الأمر بعد ساعة، لكن الرجل جاء في الموعد المحدّد وراح يخلع ملابسه قطعة قطعة وهو يرتجف.. كانت ليلة شتوية باردة جداً.. ومن هناك مرّت سيارة لشرطة النجدة ورأوه فاقتادوه إلى دائرتهم وأودعوه غرفة التوقيف. وفي صباح اليوم التالي تم استدعاء المرزوق أمام محقق الشرطة الذي فشل في لجم ضحكته وهو يستجوبه عن دوافع ما أقدم عليه.. سوّيَ الأمر، في اليوم نفسه، بتدخل بعض وجهاء المدينة.. صار الحدث طرفة متداولة بين السكّان.

.5.

أيقظني جرس الموبايل في التاسعة إلاّ ربعاً.. تسلل همس فاتن إلى أذني منغّماً منعشاً: «صباح الخير». لم تصدِّق أنني ما زلت في فراشي والمدينة هادئة، أسمع، في هذه اللحظة، ضجة زقزقة العصافير المتقافزة في الحديقة الخلفية للمنزل.. هي تتصور المدينة غارقة في العنف ويجري قتال ضارٍ في أحيائها وشوارعها صباح مساء.. قلت: «بعقوبة مثل أية مدينة أخرى تشهد بعض الحوادث، وتستكين معظم الوقت». قالت: «أتمنى أن أصدِّقك». قدّمت لها ما يشبه التقرير الشفوي الموجز لما حصل معي أمس؛ كيف تنقّلت طوال النهار بين مكتب مصطفى كريم وبيته وشوارع وسط المدينة، وحكيت عن تناولنا الكباب المشوي مع مقبِّلات لذيذة بوجبة العشاء، في مطعم يطل على نهر خريسان. أعادت عليّ قائمة نصائحها؛ كن حذراً، لا تكشف عن هويتك وطبيعة مهمتك، غيّر هيئتك وملابسك دائماً كي لا تلفت الانتباه.. استقل سيارات الأجرة وتجنب مصادقة أناس غرباء تلتقيهم مصادفة.. لا تفصح عن آرائك السياسية.

قبل أسبوعين من الآن.. بعد يومين من موافقتي على مشروع الرجل الهرم الغامض؛

«ومن يقرأ الكتب في هذه الأيام.. تذهب إلى مدينة غير آمنة لتؤلف

كتاباً عن رجل لا يعرفه أحد، لماذا؟». أطلقتْ كلماتها في وجهي بعصبية ظاهرة بعدما أسررتُ لها بمشروع الرحلة إلى بعقوبة.. كنا نجلس في كوفيه علوان، ظهيرة يوم غائم، بعد جولة تسوّق بين مولات حي الكرادة.. قالت بعصبية: «قل لي أمِنْ أجل المال؟. أنت.. معقولة، أنت الذي لم تهتم يوماً بأمر الفلوس». كانت توبخني وكنت أبتسم..

ـ ليس من أجل المال.. أحتاج إلى مغامرة وإنجاز ملموس يبقى في الذاكرة.. الكتاب يبقى ألف سنة.. ثم بطلي ليس بالرجل النكرة.. عاش حياة غير تقليدية.. أنا واثق... ما لكِ تبحلقين بي هكذا؟!.

ـ إذن ليس من أجل المال؟.

ـ من أجل المال أيضاً.. لا أريد إظهار نفسي مثالياً جداً.. أحتاج إلى النقود، أفكر بالزواج.. أنا الآن في الثانية والأربعين ولا أريد أن يفوتني القطار.. وهناك امرأة تنتظر..

غاض الدم من وجهها، وارتعش طرف فمها.. كانت ترمقني بنظرة حائرة فسقطت خصلة نافرة من شعرها الأسود على عينها.. أزاحت الخصلة وهزّت رأسها.. عيناها تموجان بعسل براق.

ـ أنتِ مرتبكة.. ألا تريدنني أن أتزوج؟.

بنبرةٍ جافة راجفة قالت: «فاجأتني.. لم تتكلم عن الزواج قط.. ظننتكَ لا تؤمن بهذه المؤسسة.. قلتها لي ذات مرة».

منذ سنة تعرّفت على فاتن حين جاءت إلى مبنى الجريدة بشأن أطروحتها الجامعية التي تكتبها لنيل شهادة الماجستير في فلسفة

الإعلام.. كان الموضوع عن التحقيقات الصحافية في الصحافة العراقية بعد سقوط نظام صدام واحتلال العراق.. كنا بمكتبي في مقر الجريدة.. خضنا لساعتين نقاشاً مثيراً، واحتسينا القهوة. من ثم أخذت رقم موبايلي وأعطتني رقم موبايلها، وقالت: «يبدو أنني سأحتاجكَ كثيراً». وخلال الأشهر التالية توطدت علاقة متينة بيننا؛ صداقة حميمة من غير اعترافات بالوقوع في الحب وكلمات رومانسية، وغيرها.. وبقينا نتخابر مرتين في الأسبوع على الأقل.. اصطحبتني في مشاويرها كلما كان لديّ فراغ، وأخذتها مرات عديدة في جولاتي بالمدينة للحصول على مواد وموضوعات لتحقيقاتي.. حكت لي عن علاقة حب فاشلة عاشتها مع رجل.. زميلها في الكلية.. كان نزقاً وأنانياً.. غيوراً بشكل غير منطقي، شكّاكاً.. تقول: «اكتشفت أن حياتي معه إنْ تزوجته ستكون جهنم الحمراء.. لحق بي.. اعتذر.. حاول تمثيل حالة بكاء ولم يقدر.. كان هناك شيء مغشوش فيه.. لذا لم أعد أطيقه، وتساءلت فيما بعد؛ ما الذي قادني للإعجاب به.. كنت عمياء.. ثم سمعت أنه خطب قريبة له.. حمداً لله أن انتهى كل شيء بسلام».. سألتها فيما إذا لم تكن أحبّت قبل ذلك: «أسألكِ عن تجربة عشق حقيقية، ما زلت تتأسفين عليها»... قالت: «بلى، أحببته وأحبني، في الكلية كذلك.. كنت في المرحلة الأولى وهو في المرحلة الأخيرة.. أمضيت معه أحلى ستة أشهر، لكنه رحل».. «إلى أين؟».. نظرت إلى السماء ودمعت عيناها.. «أنا آسف، ما قصدت إيقاظ مواجعكِ».. قالت: «لا بأس، قضى في حادث طريق.. أحكي عن أول وآخر قصة حب ملتهبة.. انقلبت سيارته في طريق المطار.. كان يسرع لتوديع صديق مسافر».. أمسكتُ يدها: «كفّي أرجوك.. هذه هي الحياة،

تناكدنا أحياناً، ربما غالباً»..

قالت إنها تشعر بالتعب وعليها أن ترجع إلى البيت لتنام، وربما هي مريضة.. قلت: «حتى قبل أن تعرفي من هي سعيدة الحظ التي أرغب بالاقتران بها.. ألستِ صديقتي، ألا يهمكِ أمري».. قالت بفتور: «سنتكلم في مناسبة أخرى»..

«لا، الآن».

«هل أعرفها؟».

«يجب أن تكوني تعرفينها، على الأقل اسأليني عن اسمها».

«وما أهمية أن أعرف اسمها».

«ربما كنتِ على دراية بأسرارها، أشياء لا أعرفها، وقد تنصحينني أن أصرف النظر عن الفكرة فيما إذا لم تكن ملائمة»..

«من هي؟».

«اسمها.... فاتن».

«منْ؟!».

«أنتِ، يا..... بلهاء».

وضحكتُ بصخب، وقلت: «أتحتاجين وقتاً للتفكير، أم لديكِ الإجابة؟».

دعكت ذقنها، هرشت شعرها، هزّت رأسها، ضحكت.. لكمتني على كتفي.. أجهشت بالبكاء.. صاحت وهي تمسح دموعها بمنديل

ورقي: «يا لكَ من سخيف».. قلت: «فضحتِنا، الناس ينظرون إلينا.. كفي عن البكاء».

خرجنا من الكافتريا.. قطرات ناعمة من المطر تهمي على رسلها.. لم نتكلم.. مشينا تحت المطر، وملابسنا تتبلل، نحو الكراج الذي ركنت فيه سيارتي.. لم نأبه..

ـ أظنك اقتنعت بضرورة ذهابي إلى بعقوبة.

ـ على العكس.. أنا الآن أكثر إصراراً على ترك المشروع.

ـ لماذا؟

ـ أخاف عليك.

ـ حبيبتي.. هذه ضريبة الاقتران بصحافي.. مهنته المتاعب.. ألستِ متخصصة بالإعلام؟.

ـ يبدو أنني مع ما ستتسبب لي من الخوف لن أعيش طويلاً.

الفصل الثاني

. 1 .

ولأن فراس سليمان مسافر إلى أربيل لشأن خاص به لمدة أيام قليلة، هيأ لي مصطفى كريم موعداً مع الأديب القاص هيمن قره داغي.

يدخن بشراهة.. حين يتوتر ترتفع بارومتر حاجته للنيكوتين.. يصفف شعره على طريقة ألبير كامو أو همفري بوغارت، يحلق ذقنه وشاربه بعناية حد إظهار خطوط شيخوخة مبكرة على وجهه، وهو ما يحصل بالضد من إرادته.. هذا لا يقلل من قوة الجانب الطفولي الذي فيه.. بشرته زيتونية مثل بابلو نيرودا لكنه لا يشبهه.. هو يشبه غجرياً إسبانياً يلبس قميصاً مشجّراً ليظهر أصغر من عمره. من النظرة الأولى تعرف أنه زير نساء أو هكذا يحلم أن يكون.. حين أعلن له عن إنطباعي الأخير، يقول:

ـ نعم؛ عرفت العشرات وتزوجت ثلاثاً منهن..

ـ مبقياً على واحدة بذمتك دائماً.

ـ ثلاثتهن بذمتي الآن، في ثلاثة بيوت..

أرفع حاجبي متعجباً.. يقول، فيما يشعل سيجارة جديدة من عقب أخرى: «هي حماقة، لكنها لذيذة».

أصيح مستنكراً: «لذيذة؟!».

يضحك ويقول على طريقة عادل إمام: «لزيزة، بس مش أوي». والحقيقة هو لا يطبّق من أحكام الشريعة سوى هذه الفقرة.

نحتسي الشاي، أدخن سيجارة معه مجاملةً، يقول: «صاحبك أيضاً كان زير نساء.. أقصد محمود المرزوق.. لكنه لم يتزوج.. كان أحكم مني.. استضافه اتحاد الأدباء ذات مرة في أمسية هنا، في هذا المبنى، ليحكي عن تجربته الأوربية.. عاش في تشيكوسلوفاكيا وفرنسا قرابة العشرين سنة، إن كنت لا تعلم. لكنه، في تلك الأمسية، فاجأنا. بل قل صدمنا، تكلم بطريقة عجيبة ومؤثرة لاطماً بعضهم على حلوقهم. جلس وراء المنصّة وحده، رافضاً أن يقدّمه أحد للجمهور، وراح يجيل نظراته في وجوهنا.. كانت القاعة مكتظة على غير العادة.. حضر جمهور الاتحاد الاعتيادي، وأصدقاؤه هو، وبعض الفضوليين الذين لم يدخلوا مبنانا من قبل، وكأنهم يتوقعون فرجة استثنائية. كما حضرت نساء كذلك. كان ربع الحضور من النساء. حلّ هدوء شامل.. إن ألقيت قشة على الأرض ستسمع صوتها»

«قشة؟!»

يقهقه: «إبرة.. نعم، لا تقطع شعرة أفكاري.. قلتُ؛ راح ينظر إلينا ورأسه يدور مثل مروحة منضدية.. استغرق الأمر دقيقة.. في مثل هذه الحالات، مع الصمت والترقّب، الدقيقة زمن طويل.. نقر بإصبعه على

الميكرفون وهمس: «يشتغل» فضحك الجمهور.. كنا في زمن الحصار أواخر التسعينيات، وبين الجلوس رجال حزب ورجال أمن.. سجّلت محاضرته على شريط كاسيت، ليس كلها للأسف بل ربعها أو أقل»

وضع شريطاً في آلة تسجيل صغيرة كانت موضوعة على المنضدة الواسعة التي يجلس خلفها.. ضغط الزر.. انبعثت هسهسة قبل أن يتدفق صوت المرزوق:

«الأيام الجميلة، أفضل الأيام.. دائماً.. هي.. ليست الآن، وليست هنا. بل في مكان آخر، في زمان آخر. لم استعر هذا من ميلان كونديرا. قلته لناتاشا في براغ قبل أن أعرف كونديراكم».

يوقف هيمن الجهاز ويعقِّب: «كنا يومها نتداول بإعجاب روايتي التشيكي ميلان كونديرا؛ الحياة هي في مكان آخر، والخلود». ثم يعود ويشغِّله ثانية فينساب صوت المرزوق: «وقلته لجانيت بباريس في ما بعد، لكني للأسف لم أقله لامرأة هنا في بعقوبة الستينيات. وها أنا أقوله لكم وعيناي تتكحلان بمرأى سماحة وجوهكم الكريمة.. ربما تتساءلون، ودودة الفضول تنخزكم؛ من تكون تلك المرأة؟. امرأة جمالها عاصفة وجنون، إن افصحتُ عن اسمها الآن لبقرت العشائر العربية الأصيلة بطني هذه الليلة..»

قرقع الجمهور ضاحكين.. استمر:

«في هذه الجلسة لن أخبركم أيضاً شيئاً عن ناتاشا وجانيت.. هذا أمر من شأني وليس من شأنكم»

قاطعه أحد الحاضرين: «صار هذا من شأن التاريخ ولذا هو من شأننا».

أجاب بحدّة ظاهرة: «سحقاً للتاريخ، التاريخ مثلما تقرأونه وتتخيلونه وتفهمونه، لم أعد أؤمن به.. سيزعل العقيديون التاريخانيون من هذا الكلام.. وماذا في ذلك.. فليزعلوا.. الزعل اكتشاف رائع كي نمضي في حياتنا بسلام أكبر. ماذا لو لم يزعل منّا الحمقى والأغبياء والأوغاد والسرسرية. في هذه الحالة كنت، شخصياً، لجننت أو انتحرت... التاريخ؛ غادة ستينيات بعقوبة، ناتاشا، جانيت، ومائة امرأة أخرى عرفتهن وأحببتهن وعاشرتهن، ومليارات أخرى لم التقِ بهن، لسوء الحظ، قط.. النساء صانعات المسرّة، وإلاّ مِنْ غير النساء، ماذا كنّا.. لو كنّا نحن الرجال ننبت كالكمأ من الأرض، والعالم بلا جنس حواء، لما كانت ثمة حضارة وثقافة وشعر ورواية وفنون رسم ونحت وغناء ورقص وأوبرا، وحتى علم وتكنولوجيا.. لكُنّا قطيعاً من الكائنات الغبيّة التي تتقافز كالقردة ويفتك بعضها ببعض.. الحروب صناعة رجال.. أقول الرجال وأنا أقصد المعنى السيء جداً للكلمة».. تصفيق شديد.. علّق هيمن وهو يوقف الشريط مرة أخرى: «بعض النساء لم يصفقن.. فيما صفق رجال الأمن ورجال الحزب. ربما لأن بعضهم لم يفهم وبعضهم فهم وغلّس. وبعضهم لأنه أُحرج.. وبعضهم لأنه تأثر وأُعجب».

يشغِّل الآلة.. المرزوق منقطع عن الحديث.. صوت كأس تتحرك على المنضدة.. يشرب. قرقرة الشرب تتضخم عبر الميكرفون.

يقول هيمن؛ «يعتقد الجمهور أن المرزوق يشرب ماءً لكن كنت من

بين القلة التي تعرف أن في كأسه ليس سوى شراب الجن. الخمرة تجعله يحلّق».

يضع المرزوق الكأس على المنضدة، تصدر عند ارتطامها بالخشب (تكّه) واضحة.. يعود صوته ليرنّ ثانية: «لن أتحدث عن ناتاشا وجانيت كما قلت لكم، لن أتحدّث عن امرأة الزمن الجميل في بعقوبة، لن أتحدّث عن التاريخ، أو الجغرافيا.. لن أتحدّث في السياسة. فأكثر شيء لا أود التحدّث فيه، بل أكره التحدّث فيه، هو السياسة. لسبب بسيط هو لأني لا أفقه منها شيئاً. لست حيواناً سياسياً، حاولت أن أكون ولم أستطع. هي ليست حقلي ولن أدخله.. من دخل حقلاً ليس له فقد خالف القانون، ومن يخالف القانون سيُعتقل ويدخل السجن. وأنا لا أرغب بأن أُعتقل وأدخل السجن».

ضحك شديد متواصل.. بعضهم يصفّق بقوة.

«أتصوّر أن بعضكم يقول الآن في سرّه؛ إذن عمّ يريد أن يتكلم هذا الديناصور العجوز، هذا الطنطل. وبم يريد أن يهدر وقتنا الذهبي الثمين. بصراحة سيداتي آنساتي سادتي أود الكلام عن أشياء ثلاثة؛ الكتب والنساء والمدن. ليست أية كتب أو أية نساء أو أية مدن، بل عن الكتب الآثمة والنساء الآثمات والمدن الناهضة بالإثم. وللأسف، أو لحسن الحظ، لا أدري...؛ فهي كلها مما لم يخبره معظمكم أنتم الأفاضل الأشراف.. أقصد بالكتب الآثمة تلك التي تصدم ذائقتكم، وتبلبل أفكاركم وتزعزع يقينياتكم وتجعل ما اطمئننتم إليه في مهب الريح.. أقصد بالنساء الآثمات ـ ولا أعني الفاسقات والعياذ بالله ـ

بل اللواتي يحبكن أردية الدهشة؛ عاريات الروح تحت شمس الحرية، الفاتنات الباسقات الناهدات الجامحات الساحرات اللاعبات بالعقول، المستحمّات بأمطار الشغف، الهادرات بالنشيد الكوني وخلاصته؛ لا منقذ غير الجمال.. والجمال رسم وتشكيل والجمال شعر والجمال موسيقى والجمال قصص حب والجمال علاقات حميمة من غير رياء ومن غير اغتصاب.. وعذراً للمصونات الجالسات في هذه القاعة المباركة، فأولاء لا يشبهنكن في شيء، فطوبى لكنّ.

أما المدن الآثمة فأقصد بها تلك التي تشعشع بالفن. تتوفر فيها كتب آثمة، وتزهر في حدائقها وبيوتها وشوارعها نساء آثمات. ولكي أرضي غروركم، وأخفف من غلواء قلقكم وتوتركم أسارع إلى القول؛ إن هذه المدينة، مدينتنا التاريخية العريقة، قريتنا الكبيرة العامرة بأهلها، أستطيع أن أؤكد أنها نظيفة كصحراء.. مبرأة من التوصيف الذي ذكرت والحمد لله الذي لا يُحمد على مكروه سواه».

حدث بعض اللغط. خرخشة في الشريط، وربما توقف المرزوق ليحتسي شيئاً من شرابه.. وحلّ صمت.....»

رحت أتخيل في هذا الموقف، الوجوه الشاحبة والأخرى المحمرّة من الخجل أو من الخوف أو من الصدمة.. أتخيل من راح يفرك أنفه، أو يقضم بنانه، أو يهز رجليه، ناهيك عن الذين بدأوا ينسلّون من القاعة فرادى وجماعات..

قال هيمن قره داغي وهو يدوس زر الإيقاف: «للأسف حدث خطأ مني، أو خلل في آلة التسجيل.. لم نسجّل بقية المحاضرة.. لا أستطيع

أن أقول لك ماذا قال بعد.. أشار إلى كتاب يوميات أناييس نن.. ترجم بعض المقاطع الجنسية.. تكهرب الحضور لكن لم يجرؤ أحد على مقاطعته.. النسوة جميعاً غادرن باستثناء واحدة. هي الوحيدة التي لم تكن محجّبة، لكنها الأجمل في الأمسية، شعر ناعم يميل إلى الشقرة، طويل يتناثر على كتفيها، نظرات مغرية وجسم شهواني منحوت، تُجنن. وخططت للتودد إليها، لكنها ذهبت ووقفت إلى جانب المرزوق بعد انتهاء الأمسية.. قالوا أنها عشيقته، اسمها سماهر.. من يدري، تصغره بربع قرن. فاكتفيت بالسلام عليها، إذ ما الذي، ومنْ يمكنه أن يخلّصني منه إذا ما عرف أنني أتحرش بواحدة تخصّه.. وفي النهاية فصم علاقته بها كما قيل لي فتزوجتْ قريباً لها في بغداد».

أردف هيمن قره داغي: «نرجع لقصتنا.. كان يوماً مشهوداً.. خفنا أن يعتقلوه غير أنهم لم يفعلوا.. هو لم يقل شيئاً مباشراً ضد أحد. وتجنب موضوعة السياسة، لكن في طيات حديثة كانت الإشارات السياسية مخاتلة ومربكة.. كان يسخر، يتهكم، وأعرف أنه، في الحقيقة كان يتعذّب.. تورّطوا واستضافوه والآن عليهم إنهاء الأمر بأقل الخسائر.. قام أحد الحاضرين واقترح عليه أن يتحدّث عن تجربته الفنية في باريس.. قال: «هراء، تجربة فاشلة.. لم أجئ إلى هنا لأدّعي بأنني كنت أزاحم ماتيس وبيكاسو في الكالاريهات ومعارض الفن الحديث.. كنت رساماً هامشياً وفي باريس بضعة آلاف من أمثالي، من مختلف أمم الأرض؛ عرب وأفارقة وهنود وصينيون ولاتينيون وروس وأوربيون وحتى من جزر الواقواق.. قبيلة لا قيمة عالية لإنتاج أفرادها الفني سوى أن وجودهم في المدينة يضفي نكهة وتنوعاً عليها.. مدينة مثل باريس

تفخر باحتضان هذا العدد كله من أشباه الموهوبين والأدعياء الفارغين والفاشلين الذين أقول بفخر واعتزاز أنا واحد منهم».

تطرّق، وكلامه يقطر سخرية، إلى النساء الآثمات، جورج صاند وأديث بياف وسيمون دي بوفوار وبريجيت باردو وفرانسواز ساغان... أذكر عباراته عن دي بوفوار وقد سجلته في كرّاستي: «الفرق بين الأمم المتحضرة الآثمة، والأمم الراكدة بعظمة زائفة هو في وجود نساء من نوع سيمون دي بوفوار».. وأخيراً اختار باريس كمدينة آثمة، فتحدث عن اللوفر، والمعارض والمسارح والسينمات والكوليج دي فرانس والشانزليزيه والبانتيون والمقاهي والمباغي.. كان يلعلع والقوم كأن على رؤوسهم الطير كما يقول المثل.. نسيت معظم ما قال. لكني أحفظ جملاً من كلامه عن المبغى.. قال وهو يختتم كلامه وقد حلّ الليل وانقطعت الكهرباء فأشعلوا الشموع: «المبغى مكان سيء، يجري فيه امتهان لكرامة الجسد البشري.. إنه نوع من ممارسة العبودية المقيتة والتجارة السوداء. ولكن، لم يزدهر مكان، ودائماً، من غير وجود المباغي.. وهذا من مفارقات التاريخ وترّهاته.. التاريخ يسير على السكة الخاطئة، ولن يوضع على السكة الصحيحة إلا إذا اختفت المباغي، وصار الحبُّ حرية».

آثر أحد مسؤولي الاتحاد أن ينهي الجلسة بلا مداخلات بحجّة تأخر الوقت.. لكن قام واحد من الحاضرين وطرح سؤالا بصوت عالٍ: «ترى لماذا لم تنتم لأي حزب أو جهة سياسية؟».. قاطعه المسؤول.. غير أن المرزوق قال وهو يقف: «أنا أرفض الانضمام لأية جهة أو منظمة تقبل بانضمام شخص مثلي لصفوفها».. وضجّت القاعة مرة أخرى

بالضحك.. بعد أيام قلت له: «إجابتك عن سؤال الانتماء كانت ذكية وطريفة».. قال: «هذه عبارة قرأتها في كتاب، أو سمعتها من ممثل معين في فيلم. يعني سرقتها.. ممن؟ لا أتذكر».

يضيف هيمن: «طبعاً لم تنته الأمسية بهدوء.. ونحن نخرج راح شيخ معمم يصرخ، هازاً إصبعه أمام عيني المرزوق، ناعتاً إياه بقليل الحياء، والناقص والزنديق وربيب الكفّار.. المرزوق لم يغضب، على العكس كان مستمتعاً ويضحك.. وردّ على شاتمه: «لم أرسل بطلبك لتحضر، أنا أتذكرك جيداً، ومنذ مرحلة الدراسة الابتدائية لم أرد قط أن أكون معك في المكان نفسه، وما زلت.. وسأحرص على الابتعاد حيثما تكن حتى ولو في الجنة». ومنذ ذلك اليوم لم يدخل المرزوق مبنانا.. حاولت معه بعد سقوط نظام صدام فرفض.. قلت له: «الآن تستطيع أن تتكلم براحتك من غير تحسّب لسلطة أو خوف منها».. قال: «لهذا لا أريد أن أكرّر التجربة.. لأنها في هذه المرة ستفتقر إلى التوتّر والإثارة. يمكن أن أتكلّم في موضوعة أخرى، غير أنني أخاف عليكم، لا على نفسي.. ثق.. سيفخخون المبنى في اليوم التالي ويفجّرونها على رؤوسكم.. لا تظن يا صاحبي أنك اكتسبت الحرية.. أمامنا سنوات طويلة قادمة حتى نكون بشراً أحراراً. وفي ذلك اليوم لن نكون أنا وأنت موجودين، وربما لن يتذكّرنا أحد».

- 2 -

أصر هيمن قره داغي أن يأخذني إلى مطعم قريب للمشويات، في الهواء الطلق.. بلا بناء.. فقط عربة مزججة.. مطعم رصيف لا يحمل لافتة تعرّف باسمه.. تناولنا لحم الغنم المشوي والكبدة المشوية وأنواع من السَلَطات، والخضراوات، جالسين على ضفة نهر خريسان.. ثم خرجنا إلى مقهى الزهاوي القريب لنشرب الشاي.. قال:

«ذات مساء شتوي مكفهر دخلت مكتبته.. كنت أسير ضجراً في شارع الأطباء شبه الخاوي.. لم أجد صديقاً واحداً يمكن أن أقضي معه سهرتي.. لا أتحمل الليل من غير صديق نتسامر مع بعضنا، نأكل ونشرب معاً. إنه أول الليل، وعدا مطعم للمأكولات السريعة، المحال وعيادات الأطباء والصيدليات كلها أغلقت أبوابها.. رأيت الضوء ينبعث من أسفل، ولا شغل لدي، وساعة مع المرزوق ستكون ممتعة لاشك.. كان ذلك قبل زوبعة نيسان 2003 بأشهر قليلة.. لم أضطر لطرق الباب.. كان نصف موارب.. صحت «أستاذ محمود»، صاح من الداخل؛ «قره داغي.. هيمون، أهلاً بأخ العرب». هكذا تعوّد أن يخاطبني مازحاً كلما رآني، أنا الذي من أرومة كردية.. لم يكن يخطئ بالأسماء ويعرف الأشخاص من نبرات أصواتهم.. ضعف نظره في السنين الأخيرة لكنه حافظ على قوة ذاكرته.. كان جالساً قرب المدفأة.. مدفأة نفطية وأمامه عشاؤه وكأس

من الويسكي وحوله أكداس من الكتب.. قلت: «أخاف عليك استاذ محمود».. قال: «ممَّن، من السعلوة.. السعلوة في الشط، والشط بعيد، لا تخف». قلت: «بل من الحالة». قال؛ «أية حالة، حالة خالتك».. قلت: «أستاذ محمود لست أمزح.. المدفأة مشتعلة وأنت تسكر.. وحين تنطفئ الكهرباء تشعل فانوساً. وهذه الكتب كلها حولك.. ماذا لو عثرت...»... قاطعني: «روعة.. لا أروع».. صحت مستنكراً:

«ماذا؟ روعة أن تحترق؟!».

«نعم.. أن يحدث ذلك الحريق ويذوب جسمي مع كتبي ورسوماتي.. حلم الأحلام.. أن يختلط رمادي مع رماد الأوراق والتخطيطات والألوان.. اسمع، هذه وصيتي لك؛ إن حصل هذا، القوا الرماد كله في نهر ديالى ونهر خريسان وانثروا بعضه على البساتين بشرط أن يصاحب ذلك الطقس بث شريط لمقامات عراقية ليوسف عمر، وعبر مكبرات الصوت. إن لم ترغمهم على هذا سيأتيك شبحي في الحلم ويشبعك ضرباً»..

يردف قره داغي:

«لم يمت في حريق، مات غدراً، في هذا الجنون الوطني.. هو لم ينخرط بلعبة الأحزاب والسياسة، وأظن لمقتله علاقة بآرائه.. كان يجهر برأيه ضد الجميع وبسخرية مرّة.. فيما أصدقاؤه وزبائنه ينقلون تلك الآراء كأنها نكات بريئة.. ثق، هناك من يقتلون بسبب كلمة واحدة.. مات ولم يحقق أحد وصيته.. لو كنت أمتلك السلطة الكافية لأخرجت جثته المدفونة هنا في مقبرة الشريف وأحرقتها في احتفال جماهيري،

ونثرت رماده مثلما رغب.. والآن، في كل ليلة قبل أن أغفو أتذكره وأخشى أن يظهر لي في أحلامي، يصرخ بي، يعاتبني ويوبِّخني ويشتمني وربما يضربني بعصاه التي كان يتوكأ عليها لحظة أطلقوا عليه النار».

ـ ماذا عن الدافع، لِمَ تراهم قتلوه؟ لم يكن سياسياً بأي شكل كما تقول.

ـ لا يحتاج المرء أن يكون سياسياً من أجل أن يُقتل.. تكفي كلمة عابرة في نقد هذه الجماعة أو تلك. وهو لم يكن من النوع الذي يسكت.. يتكلم من غير حذر.. ما يقوله عن هذا أو ذاك بسخرية تتناقله الألسن كطرائف. الناس بحاجة للضحك في هذا الزمن الملعون.

ـ والتحقيقات أين وصلت؟.

ـ كالعادة ضد مجهول.. المجهول المعلوم.

ـ ألم يمسكوا بخيوط.

ـ بلى.. خيوط يطيّرون بها طائرات ورقية.

ضحكتُ.. ضحكتي كانت مجلجلة أثارت انتباه الجالسين..

ـ أرغب بمقابلة رجل أمن له صلة بالتحقيقات.

هزّ رأسه وابتسم:

ـ كيف نسيت؟. لي صديق يعمل بهذا المجال.. الرائد حسن المقدادي.

ـ كيف نتصل به.

أعطاني هيمن قره داغي رقم موبايل الرائد المقدادي.. اتصلت به ليلاً.. لم يفتح الخط إلا بعد المحاولة الثالثة.. عرّفته بنفسي وبالمهمة التي أقوم بها، وأعلمته أن هيمن قره داغي هو من أخذت منه رقم الموبايل. تردد في البدء، ثم اعتذر.. قال: «لم نحقق نتائج مهمة. وما نعرفه لا أستطيع البوح به في الوقت الحالي».

وطوال ساعات أرق امتدت حتى الثالثة فجراً أخفقت في التفكير بطريقة مضمونة تمكنني من الإطلاع على ما تعرفه الجهات الأمنية بهذا الصدد.

عصر اليوم التالي وأنا في مقبرة الشريف المتاخمة للمدينة من جهتها الشمالية الغربية أقرأ مع مصطفى كريم سورة الفاتحة عند قبر محمود المرزوق هاتفني هيمن قره داغي طالباً أن أتجه في الحال إلى مقر اتحاد الأدباء في السراي القديم. ومن هناك أخذني بسيارته الهونداي الحديثة إلى بيته في حي المعلمين. ولم يخبرني بسبب هذا اللقاء الذي يجري بشكل شبه متخفٍ.. جلسنا في صالة بيته. وكنا نشرب الشاي عندما جاء رجل ضخم، بوجه محفّر، لعله من بقايا آثار مرض الجدري، أصيب به في طفولته.. قدّمني إليه هيمن:

ـ الرائد حسن المقدادي.. ضابط تحقيقات في شرطة المحافظة.

ـ أهلاً أستاذ ماجد.. الحقيقة في الليلة الفائتة بعد مكالمتك فكّرت بالأمر.. خابرت هيمن لترتيب هذا اللقاء. هو لقاء غير رسمي.. وما سأخبرك به لا أريده أن يُنشر، على الأقل في الوقت الحاضر، ريثما نصل إلى أدلة قاطعة..

أخرجت دفتري الصغير وقلمي بانتظار أن يتكلم الرائد المقدادي.. ظلّ يرتشف قدح الشاي على مهل حتى انتهى منه، وأشعل سيجارة.. وكنا ننتظر أن يبدأ الكلام.

المفاجأة الأولى التي أطلقها هي قوله بنبرة شبه هامسة أن الدافع للقتل ربما لم يكن سياسياً، بل جنائياً، يتعلق بما يُعرف بجرائم الشرف..

صاح هيمن:

ـ مستحيل.. شرف؟. أنتم تتخيلون.

قال الرائد المقدادي بهدوء:

ـ أرجوك هيمن أخفض صوتك.. أولاً ليس هناك من مستحيل في تصوّراتنا وحدود عملنا.. وثانياً لسنا كتّاب قصة مثل حضرتك كي نتخيل.. نحن نفترض بناءً على وقائع أولية.. نشك.. لا تحقيق من غير شكوك لاسيما في القضايا الغامضة.

قال هيمن: «تقصد أن المسألة لها علاقة بسماهر.. تلك تزوجت وذهبت في حال سبيلها، وهي الآن في بغداد».

ـ أنت تستعجل دائماً يا هيمن.. لا تستمع إلى القصة كلها وتطلق أحكامك بانفعال.. لست أتكلم عن سماهر.. أنا أتكلم عن واحدة أخرى..

ـ لا؟!.. يا له من نسواني لعين.. لم يخبرني عنها.

التفت الرائد نحوي وقال:

ـ أرجو أنك لم تفتح آلة تسجيل من أي نوع.

ـ أبداً.. كما تراني، أكتب ملاحظات فقط.

ـ حسناً، أعذرني.. انا أضع مستقبلي المهني وربما حياتي على كف عفريت بحديثي عن القضية معك.. أرجو أن نكون حذرين.. أثق بهيمن وهو صديقي.. وأثق بحضرتك لأنك صحافي مرموق وذكي وتعرف العواقب.. استفد من المعلومات ولا تشر إليّ.

سأل هيمن:

ـ من هي؟

ـ لن أذكر اسمها.. هي معلمة مدرسة ابتدائية، شوهدت تدخل مكتبة المرزوق مراراً.. هناك لغط حول الموضوع منذ زمن.. أطلق عليها المرزوق اسم تحبب ودلع؛ رباب.. سأشير إليها باسم؛ رباب.. لها أخ أُعتقل العام الماضي من قبل الأمريكان لمدة ستة أشهر وأخذوه إلى معتقلهم في تكريت ثم أطلقوا سراحه.. متدين متعصّب.. علاقاته مريبة. نعتقد أنه يقف وراء اغتيال المرزوق.. إذا كان منتمياً لجماعة إرهابية مسلحة، وإذا كان يعرف بعلاقة أخته بالمرزوق، فمن المنطقي أن يكلِّف أحد الإرهابيين المقرّبين له بقتل المرزوق.. عملية القتل كانت احترافية.. ولابد من أن يكون القاتل ذا باع طويل وخبرة في عمليات الاغتيال ليقتل في ذروة الزحام، وسط الناس، بطريقة سريعة ومن غير أن يلاحظه أحد، ويفلت.

ـ أتشكّون بشخص معين؟.

ـ نعم.. ربما نحتاج لبعض الوقت حتى نتأكد.. مثل هذا الشخص لا

يكتفي بجريمة واحدة، ويقيناً سيقع في أيدينا.

قال هيمن:

ـ تنتظرون أن يقتل آخرين حتى تلقوا القبض عليه.

ـ لا، ليس الأمر هكذا.. هو شخص مطلوب لم نلقِ القبض عليه بعد.. وحين نتمكن منه سنجعله يعترف باغتيال المرزوق.

قال هيمن: «بالعصا والكرباج حتى تُخرجوا دهنه من جلده».

ضحك الرائد حسن المقدادي وقال: «هذه المرة لدينا أدلة واعترافات ضدّه من آخرين، لن نحتاج العصا وأخواتها».

سألت: «وماذا عن شقيق رباب؟».

ـ لا نملك شيئاً ضده، ولكن إن وقع القاتل بأيدينا ربما اعترف بمن حرّضه ولماذا.

الفصل الثالث

هبطنا السلم الكونكريتي. فتح فراس سليمان القفل الكبير ورفع الباب الحديدي المحزز. خطونا في ظلام السرداب. لم يكن سرداباً كما كان يحلو للمرزوق أن يسمّيه.. كان جزءاً من الطابق التحتي (التحت أرضي) للعمارة.. خطونا إلى الداخل فزكمتنا رائحة الرطوبة والغبار.. أشعل فراس مصباح النيون فطالعتنا فوضى مريعة.. فوضى الكتب والأثاث والأشياء الأخرى؛ مدفأة نفطية صالون، جهاز تلفزيون 20 عقدة نوع فيزيتال، جهاز راديو كبير صيني الصنع، ثلاثة غلايين، تبغ، قبعات، أقلام جاف وسوفت، وكرّاس نفّذ على صفحاته اسكيتشات مختلفة.. استأذنت من فراس وحشرت الكرّاس في حقيبتي.

كيف لشخص مثل محمود المرزوق، فنان وكاتب عاش سنوات عديدة في براغ وباريس وجاب نصف أوروبا وربما بعضاً من مدن شمال أفريقيا أن يعيش شيخوخته في مكان كهذا.. كانت الإضاءة شحيحة شاحبة، فمصباح نيون واحد لا يكفي لإضاءة جيدة في مساحة تبلغ أكثر من عشرين متراً مربعاً.. يبدو أن المرزوق كان يستخدم مصباح منضدته ذا المظلة المعقوفة للقراءة ورسم التخطيطات. وثبنا على تلال صغيرة من الكتب.. كان من المستحيل أن نسير من غير أن ندوس طرف كتاب

هنا أو هناك.. جلس فراس على كرسي خاله المرزوق فسالت دمعة من عينه.. لمحت درجاً في منضدته الخشبية.. هي من خشب الساج القديم.. ضخمة، متآكلة، ولونها حائل.. الدرج في الأسفل، بابه منبعج إلى الداخل.. قال فراس إنه لا يمتلك مفتاحاً له.. بحثنا في الدرج الأعلى المفتوح ولم يكن فيه.. ذهبت مع فراس إلى القسم الخلفي المعزول من المكتبة حيث سرير المرزوق غير المرتّب، ودولاب ملابسه وثلاجته الكهربائية الصغيرة، وأدواته للحلاقة. ومنضدة صغيرة عليها مصباح آخر للقراءة. ما أثار انتباهي هو ثلاثة كتب تركها على المنضدة خمّنت أنها تمثل آخر قراءاته؛ كتاب (الاستشراق جنسياً) لمؤلف اسمه أرفن جميل شك، الجزء الثالث من كتاب حنا بطاطو (العراق). ورواية (موسم الهجرة إلى الشمال) للطيب صالح.. خطر لي أن المرزوق ربما وجد بعض الشبه بينه وبين مصطفى سعيد بطل الرواية على الرغم من اختلاف ملابسات حياة كل منهما.

عثرنا تحت السرير على صندوق فيه أدوات وأخذنا مفك براغي.. بعد محاولتين انفتح باب الدرج السفلي للمنضدة بدوي مكتوم.. سحبه فراس ولم يكن ثمة إلا سجل كبير غلافه قهوائي من الجلد المقوى السميك.. للوهلة الأولى تصوّرت أنه يحوي جرداً بالكتب، أو جدول استعارات.. فتحه فراس على الصفحة الأولى.. قفزتْ أمام ناظرينا كلمتان؛ (يوميات الخراب).. مكتوبتان بخط عريض وبالحبر الأسود. رفع فراس عينيه نحوي.. كنت أقف إلى جانبه وهو جالس على كرسي خاله.. الدهشة تركت فمه مفتوحاً.. أشرت له بحركة رأس فهمها حالاً؛ اقلب الصفحة.. قلبها.. في الأعلى كان التاريخ 9/ 4/ 2003. صحت:

«روعة..». قال فراس: «ها قد عثرنا على كنز».. قرأنا بضعة أسطر.. «رائع، رائع».. بدا فراس فرحاً وهو يناولني السجل الثقيل.. وضعته، هو الآخر، في حقيبتي..

بحثنا بين الكتب وأعلى الرفوف وما وراء المنضدة، وفي الزوايا. لم نعثر على كرّاسات أو سجلات أخرى تحوي كتاباته.. عدنا إلى غرفته الخلفية.. قلبنا فراشه ونظرنا في كل زاوية، لم نجد أي شيء مكتوب هناك أيضاً.. كان الجو خانقاً في الداخل، نصف معتم.. افترضت أن لا شيء آخر مهم في هذا السرداب، وقد تكون هذه اليوميات كافية لإعانتي في إنجاز جزء حيوي من الكتاب.. «في هذا الوقت»، قلت لفراس: «لا أحتاج أكثر من هذا، لنخرج»..

على رصيف الشارع حيث قُتل المرزوق على مبعدة أمتار قليلة نفضنا الغبار عن ملابسنا.. ونحن نشرب الشاي عند صاحب كشك قرب مطعم للأكلات السريعة أخبرت فراس أن يُبقي أمر دفتر اليوميات، وحتى أمر المهمة التي أقوم بها، سرّياً.. حدّجني بعينين ملونتين صافيتين تذكّر بنظرة قط وديع، وكأنه يقول؛ ثق بي.. قال: «أنا آسف لأننا لم نجد دفاتر أخرى. كنت أعتقد أنه كتب كتاباً. تكلّم ذات مرّة عن الكتاب، ويبدو أنه لم يؤلفه. لم يمتلك الهمّة والمزاج لتأليفه. خابت توقعاتي».. قلت: «هذه خطوة أولى، وما زلنا في البداية». قال: «أعرف أنه أتلف كرّاسات مملوءة بتخطيطاته.. من الجيد أننا عثرنا على واحد منها». ارتفع صوت أذان الظهر من جامع الفاروق.. قال فراس: «في أمان الله، أنا ذاهب إلى الجامع لأصلّي». صافحني ومضى.

عدت إلى المنزل بعد وجبة غداء خالية من اللحوم؛ رز ومرق الفاصولياء اليابسة تناولتها مع صمونتين، وحدي في مطعم صغير.. لم يكن الأستاذ حيدر في المنزل.. فتحت الباب بنسخة من المفتاح التي أعطاني إياها.. استحممت ودخلت غرفتي.. أخرجت من حقيبتي سجل يوميات المرزوق وكرّاس تخطيطاته.. جلست على سريري.. عاينت الكرّاس.. ثمة أحد عشر تخطيطاً أغلبها لوجوه أنثوية، لا يوجد بينها اثنان متشابهان.. في الكرّاس أيضاً اسكيتشان للوحتين يبدو أنه لم يترجمهما إلى لوحات.. الأول يُظهر أشجاراً منحنية في عاصفة سوداء.. الثاني يصوِّر امرأة مقذوفة من أرجوحة معلّقة بين نخلتين نحو السماء البعيدة.. فتحت سجل اليوميات، ورحت أقرأ:

يوميات الخراب

9/ 4/ 2003

ساحة الفردوس أجمل، لا شك، من غير ذلك التمثال، لكن من يضمن أي شيء بوجود اليانكي؟...

شارع الأطباء الآن فارغ، مظلم، مخيف، يشبه درباً تسلكه الأشباح.. أسمع أزيزاً لا ينقطع.. أنا جائع ولا طعام لدي سوى صمونة بائتة وحبة طماطم.. الثلاجة فارغة.. كان يجب أن أشتري بعض الطعام.. الأخبار أنستني.. سأشرب كأساً، وآكل الصمونة البائتة وحبة الطماطم وأصعد إلى سطح العمارة لأنام.. أمس وقبله كانت هناك إطلاقات.. من كانوا يطلقون النار لإخافة الفزاعات اختفوا منذ الصباح.. ليس لديّ تبغ للغليون.. أدخن سيجارتين.. لو عرف الدكتور حبيب لوبّخني.. هو

يدخن أيضاً ولا يسمح لي بالتدخين. يا لأطباء هذه الأيام!.. غداً لن يكون مثل اليوم والبارحة.. لن يكون مثل أي يوم....

12 نيسان

سلب ونهب.. عالم مجنون.. الجو حار.. المدينة بلا حكومة.. لم نر جندياً أمريكياً بعد.. قال لي الصيدلاني الذي اشتريت منه حبوباً إضافية للضغط أنه خائف، الأمور لا تبشر بخير.. قال لي عبد الله؛ خلصنا، وسيكون كل شيء جيداً.. قلت للصيدلاني؛ لا تخف ربما أصبح كل شيء جيداً.. قلت لعبد الله؛ لا أظن سيكون أي شيء جيداً مع اليانكي.. سألني عن معنى اليانكي.. عبد الله حارس العمارة.

أنا نفسي لا أدري ماذا سيحصل، وإلى أين نحن سائرون؟.

15 نيسان

لا شرطة في المدينة.. لا جيش.. لا حكومة.. لا يانكي.. لا حرّاس من الجيش الشعبي والرفاق الحزبيين!!!.. السلب والنهب مستمر.. الغبار ما زال عالقاً في السماء.. سمعت أن المئات ينهبون معسكرات الجيش.. منذ شهر لم أبع كتاباً واحداً.. وصلت قوة من الأمريكان إلى ساحة المفرق.. بضع دبابات وطائرتا هليوكوبتر تحلّقان حول المنطقة.. تجمّع الناس حول الدبابات.. ينظر الأهالي والجنود بعضهم إلى بعض بتوجس واستغراب.. لم أكن هناك.. حكى لي عبد الله.. قال ظننتهم قادمين من القمر. ثم ذهبوا. خرجوا من المدينة وتفرّق الناس. لم يحدث أي شيء..

كل شيء هادئ في بعقوبة سوى عمليات السلب والنهب.. قال لي عبد الله؛ عاد بعض الشرطة وباتوا يحرسون المصارف.. قال؛ جماعة من الأهالي أيضا فعلوا هذا..

كان غاضباً: أستاذ، ليس الناس كلها تسرق.. أكثر الناس أشراف ولا يقبلون الحرام لكنهم خائفون.

قلت له ضاحكاً: ماذا لو أسميك بعبد الله الغاضب؟

قال: أستاذ أنا أحسدك، لأنك تستطيع أن تسخر حتى في جهنم.

نيسان.. أواخر

المدينة مثل لوحة سريالية رسمها فنان دعي.. قصيدة دادائية كتبها شاعر نصف موهوب متبجح لا يعرف ماذا تعني كلماته.. المدينة قطعة من الهراء.. حلم ممزق إلى أشلاء.. ماذا أقول.. ميليشيات تتكون.. لم يجئ الأمريكان بعد.. قطع السلاح تباع على الأرصفة.. هناك رمانات يدوية ورشاشات ومسدسات وذخيرة وبارود.. هناك أكوام من البارود لو لقفت شرارة صغيرة... كارثة.. ومناظير.. رأيت هذا بأم عيني.. قال عبد الله هناك سوق ثانية خلف ملعب كرة القدم المحلي يبيعون فيها الهاونات والقذائف، والأمريكان يتفرجون.. يا الله.. الأعمال متوقفة.. رجل كهل مغرم بالروايات البوليسية طلب مني اليوم رواية يستغرق بقراءتها تنسيه هذه المهزلة.. كلمة؛ المهزلة لي وليست له.. أول زبون منذ قيامة الحرب يطلب كتاباً.. أعطيته نسخة مستنسخة من (اسم الوردة) لألبرتو إيكو.. لم يبد عليه الاقتناع.. لكنه اشترى الكتاب بألفي دينار.. قال؛ «أثق باختياراتك».. أول مبلغ أحصل عليه في موسم الاحتلال..

مشيت إلى ستوديو الأمل.. قال حسّان مطر: الأشغال متوقفة.

قلت: أي أحمق هذا الذي يرغب بتصوير نفسه وسط الوحل؟.

1 آيار

عيد العمال العالمي!!!!!.. شعب بكامله عاطل عن العمل.. البطالة الكاملة.. أنا في شك من معرفة ماركس وكينز بمثل هذا الاصطلاح.....

8 آيار

الحر شديد، الريح ساخنة، غبار.. غبار.. زارني كاميران عادل في المكتبة عصراً.. كان حائراً.. قال: «الاستبداد لا بد من أن يخلِّف مثل هذه القذارة».. سألته: «أنت أهم كاتب مسرحي في البلاد منذ عقدين كيف ترى النهاية؟».. قال: «هذا يشبه مسرح اللامعقول.. لا تستطيع أن تتخيل المسار الدرامي؟». قلت له: «أواثق من أن الأمريكان سيفعلون أي أمر صحيح؟».. قال: «الفرصة مؤاتية لهم ليغيّروا صورتهم السيئة. لا أظنهم أغبياء».. قلت: «لست واثقاً».. قال: «لسنا في زمن الحرب الباردة».. قلت: «لا أظن أن الحال يختلف كثيراً».. كان حائراً.. قال بأسلوبه الهازئ: «ما زلتَ ذلك الماركسي الحنبلي. متشائم منذ العهد الملكي. دعنا نأمل.. انتظرنا طويلاً، فدعنا نأمل».. قلت: «لا، لستُ ماركسياً حنبلياً، فقط أنا لا أثق بالأمريكان».. قال: «لماذا يجب أن يفعل كل شيء الأمريكان.. أليس من الواجب أن نفعل نحن شيئاً؟». كان يمسح عرقه بمنديل ويريد أن يغادر.. أردت أن أسأله: من تقصد بـ (نحن)؟.... لم أسأل.. لم أنبس بكلمة أخرى.. هو الآخر لم يفعل.. أسفت لأن كلامي زاد من حزنه..

المساء الذي حلّ كئيب.. يعصر أحشائي.. الكهرباء الوطنية مقطوعة منذ الأسبوع الأول للحرب. والمولِّدات لم تعد تشتغل بسبب عدم توافر زيت الكاز. أوشكُ على البكاء.. من المؤكد كنت لأبكي لو لم يأت كاكه عباس.. أحضر نصف قنينة جن وكيساً من المشمش وشطيرتين.. الماء فاتر وينقصنا الثلج.. حصلنا على بعضه من محل الغذائية القريب ولم يكفِ سوى لكأس واحدة لكل منا.. لن نتكلم في غير السياسة.. وما الضير؟ سنصعد إلى السطح ونتحدث في السياسة حتى منتصف الليل.. على الأقل كاكه عباس متفائل وسيحاول إقناعي بأن كل شيء سيكون على أحسن ما يرام.... في نهاية الجلسة بعد أن فرغت القنينة قلت لكاكه عباس وأنا أودِّعه: وماذا عن فصيلة الجرذان التي ستقرض الأخضر واليابس.. هز رأسه وقال: كاكه محمود تفاءلوا بالخير تجدوه.. لا نريد سوى أن نعيش بضع سنوات مثل البشر....

كاكه عباس كردي، سُجن مرة واحدة في العام 1963، ونُفي مرتين في السبعينيات والثمانينيات داخل البلاد، وبحثَ عن منفى في الخارج ولم يفلح.. شكّل وجوده إزعاجاً للسلطة لكنها لم تعدّه عنصراً خطيراً في السنوات الأخيرة.. رجع من الأردن ـ سلمته السلطات الأردنية للعراقية عند حدود طريبيل لانتهاء مدة إقامته ـ بعدما أمضى فيها أكثر من سنة، وسكن بعقوبة بدل مدينته خانقين.. قام بمجازفات ذات طابع سياسي أمني بعضها لا معنى لها كان من الممكن أن تكلِّفه حياته من غير نتائج تُذكر.. كان مناضلاً من النوع القديم.. يؤمن بالعمل الحزبي وتبعاته.. خاب ظنّه مرات لكن يبدو أنه لم يُخلق إلا لهذه المهمة.. كتب بعض المقالات القصيرة بالكردية قبل الاحتلال ونشرها باسم مستعار في

صحف كردستان.. حذرته: «أدر بالك.. ربما هناك جواسيس للحكومة في كردستان. أتعرف ماذا سيفعلون بك كاكه عباس إن أمسكوا بجنابك الكريم.. سيشوون البصل على أذنيك».. وكان يجيبني بثقة ضاحكاً: «لا تخف، مضبّط أموري زين».

14 حزيران

حتى الحادية عشرة لم يدخل المكان أحد..

فجأة انبثقت أمامي امرأة في الخريف القاحل من العمر؛ نصف أنثى ونصف كائن حي.. سألتني إنْ كنت أريد شراء المكتبة البيتية لزوجها الذي اغتالوه بلا سبب.. هي قالت: بلا سبب.

كدت أقول؛ هل دورة العلّة والمعلول خرافة؟

لم أقل.. هي قالت: أكثر من ألفي كتاب.

قلت: لا مكان في هذا القبر لكتب زوجك سيدتي. فالعالم محكوم بالغباء.

أربكها جوابي، إذ ربما تساءلت في سرِّها عن العلاقة بين ضيق مكتبتي وغباء العالم.. لو كانت سألتني لقلت؛ أنا نفسي لا أدري.

لحسن الحظ لم تسأل.. خرجت، مثلما جاءت، بصمت مقهور.

آب

حر وغبار وأمريكان.. وميليشيات بدأت تنشط.. وأحزاب كثيرة.. كل ثلاثة يستطيعون إشغال مبنى حكومي أو غير حكومي ورفع لافتة

حزب هم قادته وقاعدته.. أخبرني مصطفى كريم أن عدد الصحف التي تصدر اليوم فاق المئتين. وعدد الأحزاب المتشكّلة ربما أكثر..

هذا ما أسميه بالضراط من العيار الثقيل.

6 أيلول

ما يحدث هو اللامعقول بعينه، كما قال كاميران عادل.. لا شيء منطقي في هذه البلاد.. وأظن أن مؤلفي مسرحيات العبث ومخرجيها سيكونون مسرورين وهم يرون أو يسمعون عمّا يجري.. لكأن بعض البشر أصيبوا بمس مشؤوم.. لكأن بعضهم تخدّروا ويرون هذه الفوضى شيئاً طبيعياً..

اليوم تحوّل مزاح بذيء بين صديقين إلى مشاجرة بالسكاكين، وتدخّلات أقارب وإطلاق نار.. مات اثنان وجرح خمسة.. صار النزاع عشائرياً.. قال عبد الله حارس العمارة: «في جلسة فصل عشائري سيحلّون المشكلة».. الدولة في انهيار والسلطة اليوم للعشيرة والطائفة، والجماعات المسلّحة والمافيات.

لساعة استمعت لمقامات عراقية بصوت يوسف عمر.

تشرين الثاني

لأول مرة أركب حافلة إلى بغداد.. أقنعني كاكه عباس أن نذهب الجمعة إلى شارع المتنبي.. كتب جديدة وأخرى قديمة تعرض بحرية.. لم أكن أحمل نقوداً كافية، ولا مزاجاً لشراء كتاب.. في مقهى الشابندر كان الوضع أشبه بسيرك بعروض هزلية وبعض أشباه المثقفين مثل ديكة

عجائز كل له ادِّعاءاته. كلهم إذن كانوا مناضلين!!. قلت لكاكه عباس: «أنا الوحيد الذي ليس لديّ سجل نضالي».. قال: «كل شيء سيصفّى»..

نحن أبناء تاريخ عكر منذ مئات السنين..

رجعنا إلى بعقوبة عصراً.. سألني كاميران عادل في اليوم التالي: «كيف وجدتها؟».. قلت له: «تبدو موحشة كسجن صحراوي.....».

بدأت الدراسة في المدارس والكليات.. ما زلت لا أبيع شيئاً.. وقليلون أولئك الذين يأتون لاستعارة الكتب.. تنبهت إلى أنني صرت أقرأ كثيراً.. أنهيت مذكرات الجواهري بجزئيه.. عدت وقرأت روايات الأخوة كارامازوف لديستويفسكي والدون الهادئ لشولوخوف.. والحرب والسلام لتولستوي، وهذه الأخيرة لم أكن قد قرأتها من قبل..

نهاية كانون الثاني 2004

بعدما أمسكوا به مختبئاً في حفرة قالوا الأمن سيتحسّن.. الأمن ينفلت.. ازداد عدد من يطلقون لحاهم.. الشعارات الطائفية في كل مكان.. قلت لكاكه عباس: إذا كان الأمريكان تعمدوا خلخلة المجتمع فإن الأمر لن يستقيم حتى ما بعد وفاتنا أنا وأنت.. ربما مقتلنا.. ستقل نسبة الذين يموتون حتف أنوفهم..

6 شباط

وجبة الغداء بلا نكهة، طعم البيبسي كولا الدايت مرٌّ في فمي.. جاءت امرأة حادّة الطبع تسأل عن رواية (الكبرياء والهوى) لجين أوستن باللغة الإنكليزية، قالت إنها من أجل إبنتها التي تدرس في الجامعة.. سألتها:

ولماذا لم تأتِ هي معك.. نهرتني: «ماذا تريد منها؟».. أخذت النسخة الوحيدة التي أملك من يدها وقلت: «ليست للبيع».. اعتذرتْ وقالت أنها تمر بأوقات عصيبة.. قلت: «حسناً سعرها خمسة آلاف دينار».. بكت وقالت إنها لا تستطيع أن تدفع أكثر من ألفين.. قلت: «خذيها مجاناً، وفي المرة القادمة هاتيها معك فلدي مصادر مهمة وقد تحتاجها، لست أخطط لاختطافها منكِ». اعتذرت ثانية وقالت؛ «أنت مثل والدها»..

لم أتعش.. أكلت برتقالة ونصف تفاحة.. شربت شاياً بلا سكّر.. وبعد ساعتين قهوة بلا سكّر.. تفرجت على نصف فيلم عن حياة المطربة الفرنسية أديث بياف عرضته قناة mbc2. انقطعت كهرباء المولِّدة الأهلية في الحادية عشرة.. صار لديّ منذ الأسبوع الفائت تلفزيون جديد ماركة فيزيتال وجهاز ستلايت وصحن دوّار. تقلّبت في فراشي حتى أُذِّن من جامع الفاروق لصلاة الفجر. سمعت هدير عربات همر أمريكية في الشارع...

10 آذار

أمس داهم الأمريكان مكتبتي.. كانوا ثمانية مدججين بأسلحة تكفي لإرعاب رجل مثلي، بيد أنني لم أكترث.. انتشروا في زوايا المكان وبقي اثنان عند الباب. أجروا تفتيشاً سريعاً، وبعض الفوهات مصوّبة نحوي.. «أتعيش هنا؟». سألني السرجنت من طريق المترجم.. أجبته: yes. قال: «أتتكلم الإنكليزية؟».. قلت؛ «والتشيكية والفرنسية أيضاً».. أشرت إلى رف الكتب الأجنبية.. قلّب بعضها، وعاد ليسألني؛ أي نوع من الكتب تبيع؟.

ـ أي نوع يتوافر، وله مشترون..

ـ وكتب الإرهابيين؟.

ـ الإرهابيون لا يحتاجون كتباً..

ـ كتب ضد أمريكا..

ـ نصف كتب العالم ضد أمريكا..

ابتسم: «ألديك معلومات عن الجهات المسلّحة؟».

ـ أنا أشد الناس عزلة في هذه المدينة.. كأنك تسأل ضفدعة مستوحدة عن أسماك القرش.

قهقه وابتسم الجنود: أنت تشبه......

ـ تريد ان تقول آينشتاين..

ـ لا، لا.. تشبه جدّي لأمي. مات بالجلطة قبل سنوات..

ـ لابد من أنه عانى بسبب افتقاره للوسامة.

أطلق ضحكة أخرى وقال: «أنت صاحب نكتة وسريع البديهة.. كان وسيماً مثلك تماماً».

ـ حياتنا نكتة كبيرة..

ـ أوه...

أمسكني من ساعدي وضغط عليها بلطف: «أتمنى أن نلتقي ثانية».

ـ ليس هنا، ليس وأنت تلبس هذه البزّة.. أقصد؛ في ظروف أحسن.

هز رأسه.. وخرجوا...

18 آذار

أقفلت المكتبة مبكراً.. لم يكن لي مقصد ما.. الجو جميل في وقت ما بعد الظهيرة في الخارج.. رأيتني بحاجة إلى تحريك أعضائي المتخشبة قليلاً، ان أمشي على طول الرصيف المحاذي لنهر خريسان جيئة وذهاباً مرة أو مرتين.. أعلم أن بعض المزعجين سيفسدون عليّ خطتي. سيوقفونني ليحكوا بعض التفاهات، كأني لم أشبع من التفاهات. كنت بحاجة إلى أن أكون وحدي، بلا رفقة من أي نوع، حتى لو كان مع ساندرا بولوك. ساندرا بولوك أحبها، أحب أدوارها، خفة دمها، جسدها الجميل، أحب التفرّج على أفلامها. لا أحب السير حتى مع ساندرا بولوك اليوم فكيف إذا كان رجلاً مجعمراً، مجعلكاً، كلامه..........

وصلت الدرجة الأخيرة قبل أن أكون على رصيف الشارع.. لمحتها. تسارعَ نبضي كمراهق خجول تفاجئه فتاته من حيث لا يتوقع. ها هي بعد أربعين سنة. وحتى لو ظهرت بعد ألف سنة بين ألف امرأة في عمرها لن أخطئها.. هذه المرأة هي جرحي. تلبس عباءة إسلامية وتضع إيشارباً أسود على رأسها. وترتدي نظارات طبية. إنها هي، يرافقها اثنان، واحد يشبهها، أحسب أنه ابنها أو شقيقها.. لا هو ابنها، والآخر لا أعرف عنه شيئاً.. بدينة، مترهلة، ووجهها فقد نضارته تحت تأثير مرض ما. قد يكون السكّري. لحسن الحظ لم تلتفت نحوي. خشيت أن تلتقي عيناي بعينيها.. يدخلون عيادة الدكتور بهاء العبيدي/ اختصاصي أمراض القلب في البناية المقابلة.. أتراها تعاني من القلب أيضاً؟. أبقى منتظراً على الرصيف ريثما تخرج مع مرافقيها.. يخرجون بعد نصف

ساعة.. في لحظة خاطفة نتبادل النظر.. تنظر إليّ وتمشي، وأحسب أنها لم تعرفني.. أنا عرفتها من النظرة الأولى، كأن تاريخها منقوش في دنيا لاوعيي. ولعلّها عرفتني.. إن كانت ميزتني فلابد من أنها تفكر فيّ الآن، في هذه اللحظة.. طوال أربعين سنة بقي عزائي أن تفكر فيّ.. أن أخطر على بالها.. أن تراني في الأحلام.. أن أقتحم عليها خيالاتها.. مجنون أنا.. بحثت عنها في عيون الأخريات.. أخفقت..

يقول فراس: «لماذا لا تعود إلى فرنسا؟».. لا يفيد، لقد جرّبت وتأكّدت بأن الأمر لا يستحق.. تخرّبت حياتي هنا منذ ذلك اليوم، يوم جرجروني مثل كلب أجرب ووضعوني في ذلك القطار.. سعيت أن أصلح بعض الأشياء ولم أفلح.. تخرّب الحال، تخرّب العالم..

لم أذهب لأتسكّع على جانب النهر، عدت إلى مكتبتي، حسناً فعلت إذ عدت وإلا لكنت ضربت أحدهم بعكّازتي..

25 آذار

فوجئت ببائع عصير العرق سوس في شارع الأطباء ظهراً بعد عودتي من المطعم.. فرحت كطفل.. وأنا أمسك بالكأس النحاسية الطافحة بالسائل اللذيذ قلت له: أنا هنا، في هذا السرداب البائس.. كلما جئت إلى هنا مع عصيرك انزل إليّ..

عملت أسكيتشاً لبائع العرق سوس مع عبوته النحاسية ذات العنق الطويل وأقداحه.. لم يعجبني..

26 آيار

ترتفع أعداد الذين يُقتلون، أو يُخطفون.. العصابات المسلّحة تكاد

تسيطر على الوطن.. للمرة الثالثة يخطفون رجلاً من عائلة ثرية تمتلك مصانع عديدة.. العصابة تريد فدية عالية.. سمعت أن العائلة الثرية تفكّر بتصفية أملاكها والهرب إلى الخارج.. هكذا سيجد مئات من العاملين في تلكم المصانع أنفسهم على رصيف البطالة..

ماذا ستفعل حين لا تجد لقمة تسكت بها جوع أطفالك.. ستكون لصاً مسلّحاً أو إرهابياً.. وإذا ما منعك ضميرك ربما أقدمت على الانتحار. ولكن ماذا سيفعل أولادك عندئذ، وما الحل المنطقي الذي سيخطر على بال زوجتك.. ماذا لو كنت متديناً وتعد الانتحار من الكبائر.. حلقة مفرغة، أليس كذلك؟.. في هذا الجزء الشنيع من العالم، في هذا الزمن الأغبر، صورة التاريخ هي الحلقات المفرغة.. دوامات تبقيك دائخاً مضروباً على يافوخك ليل نهار.. يغدو الحال أشد إبهاماً يوماً بعد آخر.. كاكه عباس يقول: «احتاجت أوروبا إلى مائتي سنة من أجل أن تستقيم الأمور فيها».. أقول: «حتى وإن كنا سلاحف لن نعيش حتى نرى بضعة أعوام بيض.. لا تأمل بقارب نجاة».

تموز

باغتني كاميران عادل بالدخول عليّ في السرداب، في ساعة مبكرة من نهار ساخن.. الوجوم على وجهه.. جلس وهو يمسح عرقه بمنديل أبيض.. «خير...». «لا شيء..» «كيف حالك؟». «ماشي، مع المواشي». « حلوة، هذه جديدة.. ماشي مع المواشي..».

أدركت أنه ليس على ما يرام.. «ما لك، وجهك مقلوب كأن كوكباً تائهاً ستصطدم بالمدينة بعد ساعات». «يا ليت». «ماذا هناك؟». «ليلة

البارحة دخلوا بيتاً قريباً من بيتي وأطلقوا الرصاص على عائلة بكاملها».. «لماذا؟». «يا له من سؤال.. من يدري.. مثل كل مرة اشتغلت التكهّنات.. قيل كي يسرقوا عشرين مليون دينار ثمن أرض باعتها العائلة أمس.. قيل لأن رب الأسرة عضو في حزب ديني.. قيل ثأر عشائري.. قيل ربما كانوا يقصدون عائلة أخرى وحصل خطأ.. ولكن لماذا يقتلون الأطفال أيضاً؟. من هؤلاء؟. من أي مستنقع نتن للشرّ خرجوا؟. أي سواد هذا الذي في عقولهم وضمائرهم». قلت: «لماذا لا يكونون صناعة مؤسسة أجنبية لخلط الحابل بالنابل، ولكي لا تكون ثمة مقاومة وطنية حقيقية ضدهم».. اعتقدت أنه سيتهمني باستحواذ نظرية المؤامرة على عقلي، غير أنه لم يجب.

حدث انفجار في فلكة العنافصة.. وآخر قرب السوق المركزي وثالث في شارع المحافظة ورابع في بعقوبة الجديدة وخامس في حي التحرير، وسادس في الكاطون.. يستهدفون من؟. لماذا يقتلون الناس، لماذا لا يكتفون بتوجيه غضبهم نحو الأمريكان؟.. سألت شاباً جاء يبحث عن كتاب (الحيوان) للجاحظ؟. قال: «وما أدراك أن الأمريكان ليس لهم يد في هذا؟». قلت: «هم أيضاً يتعرضون لهجمات». قال: «من يدري أي شيء في هذا المزلق.. اعطني الكتاب فحيوانات الجاحظ أرحم».

8 آب

في ذروة قيظ الظهيرة وأنا أوشك على إقفال المكتبة والصعود إلى مكتب الأستاذ عزيز المحامي لأنام القيلولة رأيتهما واقفين على رأسي..

لم أفطن لهما وهما يدخلان.. شابان ملتحيان يرتديان الدشداشة البيضاء التي تبقي نصف قصبة سيقانهما عارية.. «السلام عليكم».. «وعليكم السلام». لولا أنهما سلّما لحسبت أن أحدهما سيستلّ سيفاً خفيّاً يفصل به، بحركة سريعة متقنة، رأسي عن جذعي.. ألم يعثر الأطفال أكثر من مرة على رؤوس مقطوعة موضوعة في أكياس نايلون مرمية وسط الحديقة الجرداء لساحة المفرق غرب المدينة؟. قلت؛ «تفضلا». «زاد فضلك» وسألوني عن عنوانات غريبة عجيبة، وأسماء مؤلفين لم أسمع بمعظمهم. قلت متهكماً: «آسف، النسخ التي لديّ بعتها كلها». ثم عرضوا عليّ قائمة أخرى. وكنت على درجة كبيرة من الحمق حين قلت: «الحقيقة أنا لا أتعامل مع مثل هذه الكتب». «لماذا؟». «تهمني كتب الأدب والفن والعلم والتاريخ». «هل قرأت لأي من هؤلاء المؤلفين رحمهم الله؟». وكان عليّ أن أكبح جماح نفسي، وأصوغ جواباً مقنعاً، قلت بنبرة واهنة لم أفلح في جعلها خالية من السخرية: «لا، حين كانت عيوني سليمة كانت مثل هذه الكتب ممنوعة.. وحين أصبحت هذه الكتب غير ممنوعة ضعف بصري». ابتسم الأصغر سنّاً فيما بقي وجه الآخر جامداً لا يفصح عن طبيعة مشاعره.. قلت لهما: «عندي بعض كتب الجاحظ وابن عربي، والتوحيدي، وابن سينا، وتفسير القرآن للرازي، وآخر للزمخشري.. وتاريخ الطبري.. وكتب لابن رشد والطهطاوي ومحمد عبده وطه حسين». ضيّق الأكبر منهما ما بين أجفانه وهو يرمقني بارتياب، وقال؛ «نحن لا نقرأ كتب المشركين».. استدارا.. قال الأصغر بنبرة واهنة: «السلام عليكم» وخرجا.

لما حكيت هذا لكاكه عباس صفن قليلاً وقال: «عليك أن تحذر..

هناك من يقتلون بسبب كلمة واحدة أو زلّة لسان.. مثل هذه الأجوبة قد تستفزهم».. «وما الجواب البديل، في رأيك، يا ذكي».. «قل أنك تبيع الكتب التي تشتريها من الآخرين، وهذه الكتب مهمة ولا أحد يبيعها لي، لذا فهي غير موجودة عندي».. «آه، كاكه عباس أنت سياسي ماكر، دبلوماسي من البيضة، ولك جواب لكل سؤال».

كانت هذه آخر جلسة سمر لي مع كاكه عباس، فقد نجا ولده من محاولة اغتيال في اليوم التالي حين أمطر مسلحون سيارته بالرصاص.. أجبرته زوجته على الانتقال حالاً من بعقوبة إلى خانقين.. سيترك فراغاً كبيراً في حياتي.. كان الصديق الوحيد، منذ الاحتلال، الذي يشاركني السهر ليلة واحدة في كل أسبوع على الأقل..

14 تشرين الأول

اتصل بي كاكه عباس أول الشهر.. قلت له: مشتاق لك.. قال: سأزورك قريباً. ووفى بوعده وجاء عصر اليوم.. أقفلت المكتبة وذهبنا إلى مقهى الزهاوي.. تعشينا في مطعم العافية.. اقترح أن نسهر في بيت هيمن قره داغي ونبيت هناك.. اعترضت.. أقنعني.. كان هناك سعد محمد رحيم أيضاً.. روائي لم أقرأ له أي عمل روائي.. قرأت بعض قصصه ومقالاته.. لا بأس بلغته وأسلوبه.. ذات مرة قلت له؛ هناك شيء ناقص دائماً في كتاباتك، شيء لا أعرف ما هو، لكني أشعر به.. قال يومها: «لا توجد كتابة مثالية كاملة، نحن كائنات ينقصنا شيء ما دائماً، والكمال الذي نسعى إليه لن نبلغه ابداً».

جلسنا في الحديقة على كراس مريحة، حول مائدة عامرة بالشراب

والمازات.. وحده سعد كان يقتعد الأرجوحة الحديدية.. حكى، وهو يهز جسمه على مهل عن مشروع كتاب له يدور موضوعه حول العلاقة بين السلطة والمثقف.. سألته: «من تقصد بالمثقف؟». أجاب من غير تردد: «منتج المعرفة وصانع الجمال الذي يمتلك رؤية نقدية ويهتم بالشأن العام».. «جيد، والسلطة ما معناها في سياق كتابك؟». قال بالسلاسة نفسها: «مؤسسات التحكم والتأثير سواء أكانت سياسية أو اجتماعية أو دينية أو إعلامية أو اقتصادية». «جيد، يبدو أنك تعرف ما تفعل.. تشبه تلميذاً يحفظ إجابات نموذجية عن ظهر قلب.. يا صديقي، أعتقد أنك تتكلم عن الشبّوط في مواجهة الحيتان».. «ليس الأمر إلى هذه الدرجة من السوء».

قلت في دخيلتي؛ «هذا نائم آخر، ورجلاه في الشمس».. قلت له: «اسمع سعد.. سأفيدك بفكرة.. المثقف اليوم هو ذلك الثرثار العاجز الذي يخدع نفسه بألاعيب بلاغية فارغة لا تقدّم ولا تؤخر، وهو في النهاية من الخاسرين.. أما السلطة فهي جماعات من المافيات الصغيرة والكبيرة المتحالفة أو المتقاتلة فيما بينها، وهي وحدها تحرّك التاريخ منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. ليس هنا فقط، بل في معظم مناطق العالم. اكتب يا صديقي بدلاً من هذا الهراء رواية أعجنها بأفكارك.. علّنا نقرأ شيئاً فيه إثارة وجمال. أما هذا العنوان الغليظ؛ السلطة والمثقف، فقد أُستهلك، صارت بضاعة بائرة لا تفتح شهية أحد». حكّ ذقنه، ابتسم، بدا أنه فوجئ بهجومي، كرع ما في كأسه وقضم شريحة تفاح.. أخذ نفساً عميقاً كأنه يستعد لإفحامي، لكن سيلاً من الرصاص الملعلع في الشارع القريب والذي استمر لوقت بدا لنا طويلاً جعلنا نهرع إلى داخل البيت..

الكهرباء مقطوعة.. والجو حار في الصالة.. جاءنا هيمن بمراوح يدوية فرحنا نهزّها أمام وجوهنا المتعرِّقة.. أراد سعد استئناف النقاش.. قال هيمن: «إما أن تغيروا الموضوع أو أطردكم فيستضيفكم المسلّحون».

31 كانون الأول

آخر يوم في السنة، باردة موحشة.. كنت أبحث عن رفقة.. لا أحد.. كاكه عباس في خانقين، كاميران عادل مصاب بالرشح ولا يقدر على الخروج. مصطفى كريم كدأبه يقضي ليلة رأس السنة في السليمانية. اتصلت بهيمن قره داغي، بالموبايل، قال أنه مدعو لحفلة خضراء وحمراء في بغداد. شتمته فقهقه. فكّرُت بالموت.. ثم قرأت في كتاب؛ رواية (ابنة الحظ) لكاتبة من شيلي اسمها إيزابيل الليندي.. بعد عشرين صفحة مثيرة فقدت الاهتمام.. عيناي تحرقانني.. قررت أن أنام مبكراً.. جاء فراس ابن أختي لميعة.. فراس شاب وسيم، طالب جامعي يدرس علم الاجتماع.. ذكي ودعي.. أحبه، لا أحب فيه التكلّف.. يعتقد أنه بسنتين دراسة جامعية راح يبز دوركهايم وأرنست فيشر.. سألته: ما الذي جاء بك؟.. أراد كتاب (وعّاظ السلاطين) لعلي الوردي. قلت:: موجود في مكان ما من هذه الفوضى».. بحث ساعة كاملة ولم يعثر عليه..

أخذ يلومني: «ما الذي جاء بك إلى هنا؟. لو كنتَ الآن في باريس لسهرت الليلة مع حسناء فرنسية شقراء، تشرب من نبيذ الألزاس وترقص على وقع موسيقى صاخبة. تعود شاباً، كأنك في الأربعين، لن أقول في العشرين.. هنا مع من تسهر في عيد رأس السنة؟». قلت له: «إذا لم يكن لك طلب آخر أرني عرض أكتافك». قال: «أحلم أن أغمض عيوني

وأفتحهما وأجد نفسي قرب برج إيفل.. حالما أحصل على البكالوريوس سنطير إلى هناك معاً.. أنت تعرف اللغة ولك علاقاتك بالتأكيد. أنا أنهي دراستي في السوربون، وأنت تعود لترسم».

«فراس، إنْ لم تكف عن أكل هذا الخراء وتذهب ضربتك بهذه العصا». لوّحت له بعصاي: «خالي، والله لست أمزح، لدينا فرصة، ماذا ننتظر هنا؟». كدت أقول؛ «الموت». قال وكأنه يقرأ ما في رأسي: «ماذا غير الموت؟».

خرج.. الليل يهبط في الخارج. وفي الداخل أطفأت النور فحلّ ظلام عكر مقبض للروح.. مشيت على مهل أتحسس الأشياء من حولي بيديّ ورجليّ.. وجدت كرسياً.. جلست عليه.. شعرت بالألم في معدتي، وبطوفان من الحزن يكسّر ضلوعي.. فجأة فعلت ما لم أفعله منذ لا أذكر من زمان سحيق؛ بكيت.

14 شباط 2005

أقبل عبد الله حارس العمارة يلهث ويداه ترتعشان. حتى الأحمق سيفهم من النظرة الأولى أن شيئاً سيئاً قد حدث وأنه خائف.. سألني؛ «أسمعت أصوات الطلقات؟». قلت «لا، ماذا حصل؟».. «قتلوا ستّار بائع العصير قرب الكراج الداخلي».. قلت: «أخشى أن ستّار بائع العصير جنرال في الجيش الأمريكي».. قال؛ «الدنيا مقلوبة وأنت تسخر، أمس قتلوا بقالاً وفي الأسبوع الفائت فجّروا فرن الصمون التركي في الجهة الثانية من نهر خريسان».. «اجلس عبد الله، واهدأ.. عليك أن تقتنع أنها الحرب».. «الحرب مع من؟». «معنا نحن».. «لماذا؟ ماذا فعلنا؟ ومن

هم هؤلاء الذين يقتلون الناس؟».. «هذه حرب مختلفة يا عبد الله.. ليست مثل حرب إيران وحرب الكويت».. «لا أفهم». «وهل تعتقد أنني أفهم؟. ربما سنموت ولن نعرف.. سيقتلنا أشخاص لا ندري لماذا، وهم أيضاً قد لا يدرون لماذا عليهم أن يقتلونا».. هزّ عبد الله رأسه وقال: «هؤلاء الذين يقتلون أكثرهم أطفال، لا تتجاوز أعمارهم الخمس عشرة سنة..رأيت واحداً منهم.. ابن ريف، تعرفه من وجهه.. فجأة جرّ مسدساً صغيراً من حزامه وأطلق على رأس شخص قرب الكراج الداخلي وركض نحو سيارة تنتظره.. لا أحد يمسك بهم.. حتى الشرطة لا تفعل شيئاً». فكّرت: «هناك من يعدّون جيشاً من القتلة المأجورين». لم أقل هذا لعبد الله الذي خرج ولم يقل سوى: «الدنيا مقلوبة».

الدنيا مقلوبة حقاً منذ تفجير مرقد الإمامين في سامراء..

سنودِّع الحياة قبل أن نعرف ونفهم.

5 آذار

لي زبون برأس كبير صلف كلما رأيته وددت لو فرّكت له صلعته برمل ساخن.. يوقظ فيّ عفاريتي.. أجيب على أسئلته الغبية بجفاء، وأحياناً لا أجيب. وفي كل مرة يأتي يسبُّ الزمن الداعر لأنه لا يقدِّر شخصاً بعبقريتي.. أقول له؛ «خراء».. يهز رأسه الكبير الصلف الأصلع ويقول؛ «صدقت»، ويذهب. وحين يذهب أحزن.. يسأل غالباً عن كتب قديمة لا تتوافر لديّ، مثل كتب السحر والشعوذة.. ويسأل عن كتب لفلاسفة لا أظنه يعرف عنهم شيئاً مثل هيجل وشلنغ وسبينوزا.. وحين أناوله أياً من هذه الكتب إذا ما وجد يشتريه بالسعر الذي أحدِّده.. يحفظ

العنوانات ولا أظنه يقرأ.. لا أحد في العالم تنطبق عليه أكثر منه العبارة المتداولة؛ «مسكين، مثير للشفقة»..

اليوم كان حزني عليه هائلاً فقد ثُرمته عبوة ناسفة وُضعت لقتل مسؤول حكومي.. كان صاحبي الذي سأفتقده حتماً، في المكان الخطأ في الوقت الخطأ. فيما لم يكن هناك المسؤول الحكومي.

23 آذار

صديقي الدكتور حبيب جاءني ليلاً، في فمه سيجارة.. كان الغليون في فمي، وأمامي كأس ويسكي، من ماركة بلاك ليبل.. قال: «ما هذا؟». قلت: «المجد لسلام أبو الأنف الأفطس مهرِّب الويسكي».. قال: «تدّخن وتشرب، هذا غير جيد لصحتك».. قلت: «أنت تدّخن أيضاً».. قال: «أنا طبيب، يمكنني أن أشرب كأساً كذلك».. ضحكنا.

على أنغام أغنيات حسين نعمة وياس خضر استعاد الدكتور حبيب ذكريات قديمة.

تموز

حر قاتل، حر أسود، حر سوريالي، الدنيا تنّور كبير.. وناقلات الهمر المدرّعة تحمل جنوداً سلخت جلودهم الشمس. ينزل الجنود، يتوزعون في الشارع. يدخل بعضهم إلى المكتبة، لا يكلِّمونني.. ينبشون كل شيء.. أقول للسرجنت لحظة خروجهم؛ I am sory. يقف، يستدير نحوي؛ «لماذا الأسف؟». أقول؛ «لأنكم لم تعثروا على ضالتكم بين الكتب».. ينظر إلى أكوام الكتب التي رموها من فوق الأرفف وأخرجوها

من أكياس الجنفاص وبعثروها.. يطرق السيرجنت للحظة وقد فهم مغزى عبارتي، ويقول؛ I am sory.

أنهيت تخطيطاً للوحة مقترحة في ذهني.. عجوز يصعد سلّماً رفيعاً إلى الغيوم يحمل على ظهره كيساً كبيراً محشوّاً بالكتب.. الكتب تتساقط من الكيس.

2006 /1 /1

سنة جديدة.. سنة سيئة جديدة منقَّعة بالدم والخوف. في مثل هذا اليوم من كل سنة تستولي عليّ الكآبة. آخر عيد رأس سنة مريحة قضيتها مع جانيت. خرجنا والدنيا ثلج وأضواء وموسيقى ورقص.. تسكّعنا في الشانزليزيه، وتحت قوس النصر، وأعلى برج إيفل. ثم ذهبنا إلى حفلة يقيمها أصدقاؤنا في شقة ما في المونبارناس.. كان هناك أندريه وصديقته الإسبانية الجديدة إيزابيلا. ومحمد المنياوي وصديقته المصرية التي يدلِّعها بـ (تفاحة). لا أذكر اسمها الحقيقي الآن. رجعنا أنا وجانيت إلى شقتي قرب الفجر.. وفي حومة الدفء الذي تصاعد من جسدينا المتعاشقين نمنا حتى الغروب.

اليوم أنا بردان، مفاصلي تؤلمني، وعظام كتفي. أدخن سيجارة حتى قبل أن أدس لقمة في فمي. شارع الأطباء شبه خاوٍ. اليوم كالأمس، وغداً لن يختلف عن اليوم اللهم إلا في شكل الانفجارات وعدد الضحايا. اتصل بي كاميران عادل ليهنئني: «كل عام وأنت بخير». قلت له: «وأنت بألف خير». الضعف الذي في صوته أقلقني.. سألته إن كان مريضاً.. قال: «أنا مريض ولكن ليس في البدن».. لكنه حكى عن الضعف الذي

أصاب عينيه: «الطبيب يقول؛ لا تقرأ ولا تكتب وقلل من مشاهدة التلفزيون. قلت له؛ هذا معناه الاستسلام للموت، حذّرني من العمى».

ثم لمّح إلى احتمال انتقاله هو وعائلته إلى السليمانية.. قال؛ «بعقوبة لم تعد نفسها يا محمود كأنها ليست مدينتنا القديمة». خنقتني العبرة.. قال: «مالك لا تتكلم.. محمود، من يصدّق.. أنت تبكي».

5 حزيران

ليلة أمس، على سطح العمارة، على فراشي، وأكاد أغفو، رنّ جرس الموبايل.. لم أستطع رؤية اسم من يهاتفني.. «نعم».. كاميران عادل. منذ شهرين يسكن السليمانية. عرض علي أن أذهب إليه هناك لبضعة أيام. «حتى تخرج من قوقعتك التعيسة. هنا على الأقل لن تسمع صوت الرصاص والقنابل. سيأتي مصطفى كريم بعد أسبوع، تعال معه»..

12 حزيران

لبست قميصي الأخضر الفستقي والذي اشتريته قبل يومين وكويته مع بنطالي الزيتوني الذي اشتريته العام الماضي ولم ألبسه من قبل. حلقت شعري وذقني أمس، وذهبت إلى حمّام الهناء الجديد وسط المدينة واستحممت.. جاء مصطفى كريم وصاح: شباب والله.. صعدت إلى جانبه في سيارته اللاندكروز الصالون وانطلقنا إلى السليمانية.. وصلنا بعد الظهر، بعد أربع ساعات. في وسط المدينة استأجرنا غرفة في فندق له اسم كردي مموسق؛ آرين. بعد وجبة غداء واستراحة لمدة ساعة زرنا كاميران عادل في بيته.. احتضنته، كأنني أحتضن الجزء البهي من تاريخي، وبكيت. هو الآخر كفكف دموعه. قلت له: «بقيت نصف قرن لا أبكي،

حتى نسيت ماذا يكون البكاء. الآن صرت مثل طفل نزق مريض أبكي لأي سبب». قال: «أهلا محمود، لا تدري كم أنا سعيد لوجودك معي، افتقد أيامنا الجميلة». رددت وراءه متهكماً؛ «أيامنا الجميلة».. قال؛ «ألم تكن كذلك؟ ألا تشعر بها وتحنّ إليها؟».. هززت رأسي وسألته عن عينيه.. قال: «لا فائدة».

صعدنا إلى جبل أزمر بسيارة مصطفى كريم.. الطريق المعبّد يتلوى.. أرى عائلات جالسة تحت الأشجار تحضّر وجبة العشاء.. يأتون لتناول عشائهم في الهواء الطلق.. على سفح عالٍ، وبعد الغروب بدت المدينة كرنفال أضواء تتلامع في الأسفل.. هبطنا إلى المدينة وصعدنا شمالاً نحو مصيف سرجنار.. تحت أشجار الجوز والزان، حذاء بحيرة اصطناعية صغيرة، والهواء المنعش يهفهف، شربنا البيرة، وأكلنا الكباب المشوي.. كباب لحم البقر ليس جيداً لي ولكاميران غير أننا منحنا لأنفسنا بعض السماح. عند منتصف الليل غلبني النعاس.. أوصلنا كاميران إلى حيث يسكن، وعدنا أنا ومصطفى إلى الفندق..

13 حزيران

أيقظنا كاميران عند التاسعة نهار اليوم التالي: «أجئتم هنا لتناموا؟». قلت له: «لست أسخر صديقي، نعم، لم أنم بعمق هكذا منذ سنين»..

هامش؛ في وسط نقاشاتنا وثرثراتنا في سرجنار سأل كاميران عن كميات توزيع الصحف والمجلات الآن في بعقوبة.. قال مصطفى كريم وهو متعهد توزيعها في المحافظة كلها: «أية صحف ومجلات يا أبا سيروان.. الطريق إلى بغداد غير آمنة بالمرة فمن يأتيني بها، وهناك الباعة

الجوالون الذين صاروا يخافون بيعها لأن الجماعة حرّموها.. ثم من يقرأ أي شيء في هذه الأيام؟».

20 آب

الجثث في الشوارع.. قلت لسائق التاكسي: «أية مصيبة؟». قال: «ولِمَ أنت خائف، لا تهتم، هؤلاء مطلوبون».. قلت: «مطلوبون لمن؟». قال: «للمجاهدين».. ثم خزرني بنظرة عكرة وسأل: «إذا لم تكن مطلوباً لا تخف»... ثم بسماجة وهو يضحك: «يا حاج، هل أنت مطلوب؟». قلت: «نعم، للزواج».. كنت سمجاً أيضاً ونكتتي سخيفة لكنه ضحك.. سألته: «أتدخن؟». قال: «نعم». قلت: «أعطني سيجارة من فضلك».. كنت ذاهباً إلى المستشفى من أجل حصتي من حبوب الضغط.. التدخين يرفع الضغط أيضاً.. سألته: «أتعرف وودي ألن».. قال: «لا».. قلت: «أحسن».. قال: «من هو؟». قلت: «واحد أرعن، يبيع الفلافل في السوق».. قال: «اسم غريب».. قلت: «هو أمريكي».. «ماذا؟ أمريكي يبيع الفلافل في بعقوبة؟ أهو جاسوس متخفٍ؟». «لا ليس هنا في بعقوبة بل في نيويورك».. «ومن أين تعرفه؟». قلت؛ «لا أعرفه، أعرف صديقه».. «من هو؟». قلت؛ «أمزح معك.. في هذه الأوقات نحتاج أن نضحك».. قال؛ «لكنك لا تضحك». قلت: «نسيت».. «نسيت أن تضحك؟».. «نسيت كيف أضحك». ونزلت من السيارة.. حكيت هذا لحارس العمارة عبد الله.. قال: «ألا تخاف، أظن سائقك ممن يذبحون؟».

17 تشرين الأول

في صومعتي هذه أنا مثل راهب تتآكله نار عمياء.. أغلق المذياع..

لا رغبة لي في التفرج على قنوات التلفزيون، ولا حتى في القراءة.. أغمض عينيّ وأنا نصف مستلقٍ على سريري، آخذ نفساً عميقاً وأدَع الأسئلة تتقلب مثل بحر معتم متلاطم في رأسي، في بقعة قصيّة منه.. أسئلة لا أحد يعرف إجابات مقنعة عنها.. يخنقني الملل هنا.. فكرتي عن الجدوى معدومة.. ومنذ أمدٍ بعيد طلّقت تلك الخرافة التي أسموها الأمل، ولست أرغب بالمغادرة، وإنْ كنت استنفدت الرغبة في البقاء.

ذات مرة، لليلة كاملة، عارياً بقيت مع ناتاشا، شاعراً بالرداءة والخواء.. كانت في عريها الجميل صابرة مثل قدّيسة، تحدِّق في السقف بكآبة شفيفة، فيما انا خامد مثل عجوز فاقد للذاكرة.. لم ننم الليل بطوله.. قلت لها وضوء النهار يتسلل إلى الغرفة؛ الخوف قاهر.

لست خائفاً الآن.. ليتني أستعيدِ قدرتي على الخوف.. ناتاشا وحشة روحي.. جرحي الغريب.

25 تشرين الأول

قيل لي أنها ماتت.. قالها رجل ببساطة شديدة؛ زوجة فلان الفلاني التي هي بنت فلان الفلاني، المصابة بمرض القلب، ماتت أمس....

روحي فراغ موحش عظيم.

29 تشرين الأول

لاحقوا شاباً حتى نهاية الشارع ونخلوه بالرصاص.. فرغ الشارع في لحظات.. لم أقفل المحل.. جاءت سيارة إسعاف وحملت القتيل.. حضرت الشرطة بعد فوات الأوان.. انفجرت قنبلة ربما في

سوق الخضراوات وراء جامع الفاروق.. كنت جائعاً ولن أجد مطعماً لأتعشى.. بحثت في الثلاجة التي تنقطع عنها الكهرباء معظم الوقت.، عثرت على تفاحة بدأت تفسد. أكلتها، مع خبز بائت، وكأسي ويسكي.. لم أقفل.. توقعت أن يأتي الأمريكان.. جاء الأمريكان، ولم ينزلوا الدرجات إلى المكتبة.. لا أظنهم يتوقعون وجود مخبول يفتح مكتبته في مثل هذا الظرف.. كنت أرى من مكاني نصف أجسامهم.. من تحت الكتفين وحتى مفصل الركبة.. وتلك بنادقهم متدلية.. تلك مدرعتهم العسكرية. وذلك الهدير المبحوح لمولِّدة كهرباء صغيرة خلف العمارة.. لا رغبة لي بالقراءة. سأنام مبكراً.

28 تشرين الثاني

يوم تعيس آخر.. من شدّة الضجر حاولت ممارسة العادة السرّية.. شعرت بالعجز والإنهاك.. تفو...

14 تشرين الأول 2007

أعود ليومياتي بعد غيبة.. صارت لي صديقة جديدة.. النساء قدري كما يبدو.. هذه جاءت لي برجليها.. ماذا ترجو من هذا الكهل النازل السفح من الجهة الثانية؟.. بحجة الكتب فتحت مسرباً نحو المنبع، في أعمق الأعماق.. عسل الحياة ما زال يتحرك هناك، لم أكن أعلم، هي تعلم، ولديها طريقتها.. رباب تعيدني إلى التجربة/ الاختبار الحلو المرّ. مذ افترقت عن سماهر لم أعاشر أية امرأة، حتى أنني لم أرغب بامرأة بقوة كافية. وتهيأ لي أنني طويت تلك الصفحة وليست ثمة أخرى فيما بقي من العمر. كانت سماهر قد أقبلت بركانَ نزق وشهوة. أيقظت

جنّياتي النائمة. قلت لها بعد ثلاث سنوات من علاقة غريبة عاصفة: «لا أريد أن أظلمك، أمامك الحياة مفتوحة، على عكسي، أنا كائن مهدّم، اذهبي وشوفي مستقبلك».. رفضتْ وأصررتُ، ثم اقتنعتْ، أظن أن أحداً آخر غيري أقنعها.. تزوجتْ فتنفستُ الصعداء. ها هي رباب تطرق عليّ الباب، ليس أي باب.. بل الباب الريّان. نضحتُ في ستين سنة كل ما هو ريّان فيّ، ماذا تنتظرين من جسدي الشائخ هذا؟. قالت: «جئت لأُخرج الشاب المحبوس فيك. بركان الرواء. أنت الشاب الذي لا يشيخ أبداً».. قلت: «أي شيطان حقير خدعك، وأرسلك إليّ في موسم الموت هذا؟». قالت: «بل هو الرحمن».. جازفتْ، ربما عوّلتْ على حقيقة أن لا أحد يصدّق أن تكون العلاقة غير بريئة بين هذا الثعلب العجوز وتلك الرشأ الرامحة المختبئة تحت جبة كالحة اللون.

قلت في سرّي؛ انظروا ماذا أرسل لي رفيقي العجوز العظيم الطيب القابع في السماوات العلا؟. قلت لها ما قلته لسماهر يوم شجعتها على التخلي عني.. قالت: «أنا أفعل ما تأتيني من إشارات من داخلي، أتبع قلبي».. قبّلتُ باطن كفّها، قبّلتْ شفتيّ، صاحت: «احضنّي».. احتضنتها.. أية غزالة كالمعجزة، رشيقة رامحة تختبئ تحت جبّتها الكالحة اللون.

تشرين الثاني

أتكلم عن الحب والمدينة ما تزال مخنوقة برائحة الدم والخوف.. تعتقد رباب أن الحب سيهزم الشر.. رباب رومانسية.. قالت لي: «أنت واقعي أكثر مما يجب، تقيس كل شيء بالمسطرة». قلت: «لست

كذلك». قالت: «بلى، ولا تحسب أن كل شيء يمكن أن يتغير بلحظة واحدة».. قلت لها: «عبد الله يقول، بعقوبة آخر مدينة في البلد سيستقر فيها الوضع».. سألتْ: «من هو عبد الله؟». قلت: «صديقي».

22 كانون الأول

مطر غزير.. شاهدت فيلم الساعات لميريل ستريب.. كدت أنتهي من قراءة قصص (خمّارة القط الأسود) لنجيب محفوظ.. لم أقرأ هذه المجموعة من قبل.. بعض قصص نجيب محفوظ تفوق كثراً من رواياته جمالاً وإبداعاً.. هذا رأيي.. جاءت رباب من غير موعد مسبق قبل الغروب والدنيا برد وعواصف ومطر. أول شخص يدخل المكتبة منذ الصباح.. قالت؛ «سأبيت الليلة عندك».. جفلت: «ماذا؟». ووثبت مثل لبوة وأنزلت الباب.. رباب مجنونة....

25 كانون الأول

توفي الدكتور حبيب بالسكتة القلبية اليوم.. نزل علي الخبر كالصاعقة.. عمّرت غليوني، وشربت نصف زجاجة ويسكي.. لا أهمية لأي شيء؟. حاولت أن أبكي.. فشلت......

29 شباط 2008

سنة كبيسة. لا تحتفل بعيد ميلادها إلا مرة كل أربع سنوات. أتراها تحتفل اليوم؟. في الـ 1988 احتفلت معي لآخر مرة.. وحدنا كنا، اشترينا كعكة متوسطة الحجم.. استمعنا لموسيقى شوبرت وموزارت.. رقصتُ على أنغام أغنية عربية، ربما (فكروني) لأم كلثوم، أو أغنية لنجاة الصغيرة.. كان الإيقاع بطيئاً، وجسدها يتمايل في محاكاة مضحكة

للرقص الشرقي. ثم وضعت في المسجِّلة كاسيت موسيقى حديثة راقصة.. رقصت برشاقة.. قالت: :أتعرف معنى أن ترقص امرأة من أجل رجل بعينه، أتفهم هذه اللغة؟». الآن أحسبني أفهم.. يومها قلت لها: «أفهم».. كنت أكذب. وكانت جانيت تعرف أيضاً أنني أكذب.

10 آذار

أول زبون يدخل المكتبة هذا الصباح شابة، طالبة جامعية، سألتْ عن كتب نقدية تتحدث عن شعر بدر شاكر السياب فقد كُلفت بكتابة بحث تخرّج عنه.. الفتاة رقيقة كنغمة شجية تسمعها آخر الليل.. جمالها من النوع الذي يجعلك تغمض عيونك وتحلم.

لكانت في عمر ابنتي الصغرى إن كنت تزوجت وأنجبت نصف دزينة من الفتيات.. هذا الجمال يبهجني ولا أرغب بامتلاكه ولمسه. يكفي أن أنظر إليه مدهوشاً بعيون طفل يرى طائر الهدهد على سياج حديقة منزله للمرة الأولى.

مايس

الوضع آخذ بالتحسّن على الرغم من انفجارات قليلة.. انشغلنا بقتل بعضنا بعضاً طوال سنتين والأمريكان يتفرجون.. قال لي عبد الله حارس العمارة: «هم أشعلوها».. «من يا عبد الله؟». أشار إلى رفوف الكتب وقال: «أستاذ، قرأت هذه الكتب كلها ولا تدري من أشعلها؟».

17 حزيران

الدنيا حارّة.. العالم جنون.. الحضارة؛ هذا المتراكم البرّاق من القسوة والضلال.

كانون الثاني 2009

ما الجدوى من هذه اليوميات التي لا أتوقع أن يقرأها أحد.. ولماذا يقرؤونها؟. ماذا فيها؟. من أكون كي أكتب يومياتي. ما المثير في حياتي كي يغري الآخرين بالاطلاع عليها. كلّمت كاميران عادل بالموبايل: «نحن لسنا حتى مشاركين فيما يحدث». قال: «نحن ضحايا وشهود».. ضحايا نعم، ولكن شهود في أية محكمة... هراء... سأتوقف.

....

....

وضعتُ كراسة اليوميات جانباً وقمت.. اعتراني إحساس غريب بالأسى والفقدان.. أشعلت سيجارة وسحبت الستارة حتى منتصفها ورحت أراقب زرقة السماء الغامقة، والأفكار تتخاطف في رأسي.. أكان المرزوق يحاول الهرب مما يجري بطاقة البوح، أم أنه كان ببساطة يخشى النسيان؟ لا أن يُنسى هو بل أن يلحق النسيان بما حدث من هَول حوله؟. أكان يعرف أن ما يكتبه ستكون مادة خام لكتابة لاحقة يتنكب لإنجازها أحد ما يجهله؟ أكان يفترض قارئاً ما سينشغل بهذا التدوين الذي يشبه هامشاً اعتراضياً على حوليات التاريخ؟. أتخيّلَ، في أية لحظة، أنه سيكون بطلاً في كتابٍ لابد من أن يستعين كاتبه بما يكتب هو (محمود المرزوق)؟.

ها هنا حذفت ربع ما كتب المرزوق في يومياته ولم أضمنه في كتابي هذا؛ تلك الفقرات التي تخص علاقته بأشخاص معروفين ويتحدّث عنهم بشكل هازئ.. تلك التي يسرد فيها تفاصيل علاقات حميمة..

تلك التي يسترسل فيها كما لو أنه يكتب مقالات من غير اهتمام بالنحو.. فضلاً عن بعض التفاصيل المملّة، وبعض من تداعياته التي يبدو أنه كتبها وهو مخمور.. وهناك مقاطع شطبها هو، كثير منها من الممكن قراءتها لكني ارتأيت عدم إضافتها للكتاب طالما هو لم يقتنع بها. أما ما يلفت النظر في هذه اليوميات فهو الصفحات الفارغة المتروكة هنا وهناك.. أتصوّر أنه تركها ليملأها فيما بعد لكنه لم يفعل.. نسي أو فقد اهتمامه، أو ربما لأي سببب آخر.

الفصل الرابع

بعد أقل من ساعة أجاب سامي الرفاعي على رسالتي التي استلمها بالبريد الإلكتروني..

«الأستاذ ماجد بغدادي؛ تحية طيبة.. كم انتظرت هذه اللحظة؛ أن ينبري كاتب عراقي متمرس ويكتب عن صديقي الفنان الراحل محمود المرزوق. كأنني في حلم سعيد. وسأعترف لك أيها الصديق الذي تعجبني كتاباته وأتمنى أن ألتقيه. سأعترف بأنك أزحت عن كاهلي همّاً ثقيلاً. فلوقت طويل بقيت أتمنى أن يتاح لي الوقت والرغبة القوية الدافعة لكتابة كتاب عن المرزوق. كتبت عنه مقالاً تأبينياً بعد ورود خبر استشهاده. وبقيت أشعر بالذنب لأني لا أبادر وأكتب ما ينقذه من دائرة النسيان. الوقت يحاصرني، والصحة بين بين، كما أنني لستُ كاتباً متفرِّغاً مثلك، أنا رسّام، وعالمي هو عالم الرسم. وها أنت تتحمل هذه المهمّة بدلاً مني. لهذا أشعر بالحماس، وأعلن لك عن استعدادي لمساعدتك بالشكل الذي ترتأيه.. مودتي الخالصة».

الخطوة التالية كانت مجموعة محاورات بيني وبين الرفاعي عبر الإنترنت؛

محاورة أولى؛

- سامي: سأرسل إليك الصور أيضاً.. بعض الصور التي تُلهم.
- ماجد: شكراً لك..
- سامي: للأسف لم أجلب معي الصور كلها إلى هولندا.. ولكن ما معي يفي بالغرض.
- ماجد: أليست هناك طريقة للوصول إليها هنا في بعقوبة؟.
- سامي: انتقلنا بين أماكن عديدة بين بعقوبة وعمّان ودمشق ومن ثم أوروبا. وفي كل مكان تركنا أو أضعنا بعض أغراضنا وحقائبنا.. لست متأكداً من جدوى البحث. قلت لك سأرسل إليك خمس أو ست صور وإذا قرأتها بإمعان وحس فني ستفيدك.
- ماجد: رأيت بعض صوره عند مصطفى كريم.. له شبه بسلفادور دالي.
- سامي: كان يكره دالي.. وينزعج ممن يقول له هذا.
- ماجد: وإينشتاين؟ ماذا كانت ردة فعله حين تشبِّهه بإينشتاين؟.
- سامي: في هذه الحالة يسخر.. ويشتم.. هو أقرب لدالي حين يرفع أنفه وحنكه.. لم يقل أحد أنه كان يشبه الممثل المصري يوسف وهبي.. أعتقد أنه أقرب شبهاً بوهبي منه بدالي وإينشتاين. وطبعاً مع شارب يغطي الفم، وشعر ممشط إلى الوراء حتى الكتف.
- ماجد: أقلت له هذا؟
- سامي: مرة واحدة قلتها له، وغضب.. قال: أنا لا أشبه إلا نفسي. أما

أن تصوِّر لكم عقولكم القاصرة الغبيّة هذه العفونة والسفاسف فهذا ما أرفضه.. كنا متعودين منه مثل هذه التوصيفات والشتائم التي لا يعنيها، فهو ليس من النوع الحقود.. كان يهجو نفسه ويصفها بصفات سيئة أكثر مما يفعل مع الآخرين.

- ماجد: هل أنت مع فكرة أن نضمن الكتاب بعضاً من صوره وصور لوحاته.
- سامي: إذا جعلت الكتاب رواية فلا.. يمكن هذا إنْ كتبت على الغلاف كلمة؛ سيرة، أن تختار بعض الصور المعبِّرة والواضحة.
- ماجد: أردتك أن تكتب عنه شيئاً.. ستكون شهادتك مهمة.. أنت تعرف عنه أشياء ربما لا يعرفها غيرك. وأنا بصراحة لم أعثر على مادة كافية عنه. أية معلومة جديدة تعدّ إضافة...
- سامي: هناك معلومات قد لا يذكرونها لك وهم يعرفونها لأنها باعتقادهم غير مهمة.
- ماجد: مثلاً...
- سامي: يضع في فمه الغليون دائماً. حتى وإن لم يكن هناك تبغ مشتعل. بخاصة حين يرسم.. أتراه كان يقلد بيكاسو، أو فائق حسن؟. يحب شراب البلنكو والعرق سوس.. يرتدي القبعة المكسيكية في الصيف، حين يسير تحت الشمس، وقبعة الفراء الروسية في الشتاء، حين يخرج من مكتبته، وداخلها أحياناً.. حين قُتل كان يرتدي القبّعة الروسية..

[فيما بعد سيؤكد لي مصطفى كريم حين أخبرة بشأن القبعة، أن

المرزوق كان يرتدي ساعة اغتياله قفازات جلدية أيضاً.. ويضع حول عنقه لفافاً صوفياً.. بسبب معاناته من بدايات روماتزم وخشيته من الإصابة بالإنفلونزا].

- ماجد: هذا ما لم يقله لي أحد. ولكن هناك إشارات إليه في يومياته. كما أنني وجدت غلايينه وقبعاته في مكان سكنه، أقصد مكتبته.
- سامي: هذا ما أقوله، لا يظنونها أشياء مهمة.
- ماجد: أنت تهتم بها بحس الفنان المغرم بالتفاصيل.
- سامي: كم تعطيني من الوقت، أقصد لكتابة المادة.
- ماجد: أعتقد أن شهراً واحداً يكون ملائماً لكلينا.
- سامي: حاضر، وكيف ستتعامل مع كتابتي.. أقصد هل ستأخذ منها خلاصة أم ستعيد كتابتها أم ستتركها كما هي.
- ماجد: لم أقرر بعد.. ارسل المادة وسأرى.. ليست لديّ فكرة عن الشكل النهائي للكتاب، ما زلت في طور جمع الوثائق والمعلومات، وكتابة الملاحظات.

الصور التي أرسلها سامي الرفاعي:

عشر صور وجدتها، صباحاً، في حسابي على الفيسبوك، في حقل الرسائل الخاصة.. عشر صور مرسلة من سامي الرفاعي بلا أي تعليق.. جعلني الفضول أفتحها وأحفظها في ملف خاص على سطح المكتب في جهاز اللابتوب، وأتأملها قليلاً قبل أن أتناول فطوري وأشرع في العمل.. سأغيّر برنامجي مبتدئاً بولوج فضاءات هذه الصور وأعماقها.. صور يبدو أن الرفاعي اختارها بعناية وذكاء، أو لنقل بحسٍّ فنان مشبع بثقافة الصورة، يفهم دلالاتها، وماذا ستعني في سياق كتابي..

صورة 1؛

بالأسود والأبيض.. يجلس المرزوق على صخرة بظهر مستقيم، محرِّفاً نظره عن عين الكاميرا قليلاً إلى الأعلى، كأنه يتأمل قمة جبل بعيد، أو أعلى شجرة جوز قريبة.. لا يظهر خلفه سوى السماء ـ تبدو بيضاء عكرة ـ فالمصور يقف أسفل منه.. إنه في مصيف يرجّح أن موقعه في كردستان العراق أوائل الستينيات.. يبدو منشرحاً، خالي البال.. يخيل لي أنه يرتشف الضوء والألوان والأشكال، يتمثل ما يراه، قبل أن يختلي مع نفسه ليرسم.. لو لم أكن أعرفه أكنت أقول أنها نظرة فنان إلى الطبيعة؟. أظن أجل.. لا أرى عينيه بوضوح غير أني أجزم بأنهما تلمعان بفرح.. هذا الرجل عاشق للطبيعة، وحالم كبير.

صورة 2؛

بالأسود والأبيض كسابقتها. أظن بالزمان والمكان ذاتيهما أيضاً. المرزوق راقد على بطنه فوق العشب، يرسم في كراس. أكمام قميصه مرفوعة. خصلة نافرة من شعره الطويل يشق جبينه وينزل على أرنبة أنفه.. وراءه تلوح أشجار جوز وزان عملاقة، وسياج خشبي واطئ. جنينة طبيعية بلمسات بشرية مرهفة، وكل شيء يستحم منتشياً بضوء النهار.. يتوقع الناظر أن يد الرسام الماسكة بالقلم الرصاص ستكمل دورتها حالاً قبل أن تزيح الخصلة إلى أعلى الرأس.. وضعيته لا يمكن أن تكون مصطنعة.. لابد من أن المصور فاجأه والتقط الصورة. إنه الفنان الانطباعي في الظرف المثالي وإنْ لم يكن يقف خلف حامل لوحة وبيده الفرشاة مثل مانيه وسيزان..

صورة 3؛

في بستان مع جماعة من الشباب.. الصورة المكمِّلة لصورة سابقة أراني إياها مصطفى كريم. معتمة قليلاً وأظنها وقت العصر. الجلسة تحت أشجار نخيل لا يبين منها سوى جذوعها مع شجرتي برتقال وشجرة رمان.. الأشجار وارفة وتحمل ثماراً، إذن نحن في فصل الخريف حيث ينضج الرمّان.. المرزوق يتوسط الجماعة، اثنان على يمينه وثلاثة على يساره جلسوا في صف واحد من أجل التقاط الصورة. فبعده سيعودون إلى قعدتهم الدائرية حول مشربهم ومأكلهم. أحدهم يضع يده على كتف المرزوق.. يبتسمون جميعاً.

صورة 4؛

ملوّنة.. الأصفر والبني طاغيان.. يسير في الفجر الرقيق، على ضفة نهر ما. مرتدياً معطفاً قهوائياً بياقة فرائية، مع القبعة الروسية. يداه في جيبي المعطف. يبدو النهر وما وراءه معتماً قليلاً، مع ضربات ليمونية فاتحة، كأنه يحتضن أول الشروق. تساءلت عمّن يكون المصوّر؛ صديق أو صديقة؟.. ربما هي ناتاشا، أو جانيت أو أية واحدة أخرى..

صورة 5؛

هذه التي تقف إلى جانبه عند شاطئ النهر ربما كانت ناتاشا.. هذه اللقطة في تشيكوسلوفاكيا كما يعلمني حدسي.. أعطيا الكاميرا إلى شخص عابر من أجل هذه اللقطة؛ عجوز مستوحدة ربما خارجة من بيتها مبكراً لتتفسح.. إذن هي ناتاشا من التقطت الصورة السابقة..

الصورة هذه غير واضحة جداً على الرغم من أنها ملونة.. لكني أستطيع أن أتبين ملامح المرأة.. بشرتها الفاتحة، وأنفها الأقني، وعيناها الحالمتان، وفمها الشهواني ورقبتها الطويلة.. المرأة أكثر نحولاً من صاحبها المرزوق.. جسمها مشدود على عكسه.. هو يظهر مترهلاً قليلاً.. ابتسامتها مشرقة لطيفة.. ابتسامته عالقة في طرف فمه بسخرية خفيفة.. هي مستمتعة.. هو نصف مستمتع.

صورة 6؛

المكان نفسه، والكاميرا نفسها، والألوان نفسها. هو بشورت السباحة القصير، وهي بالبكيني الأسود، أو البنفسجي الغامق.. يلتفتان إلى الكاميرا ضاحكين وهما يدخلان النهر. النهر واسع بموج رقيق. أهو الدانوب أم إلبه أم مورافا؟ أم نهر آخر في بلاد أخرى؟. الموج وقد أخفى سيقانهما يبرز جمال فخذي ناتاشا وامتلائهما البهي.. له كرش صغير فيما بطنها ضامرة وسرّتها بؤرة سوداء كأن منها يتفجر الشعاع منيراً ما حولها.. صدره مشعر، وما يلوح من نهديها عامر عارم.. خلفهما مركب صغير وطيور نورس محلِّقة.

هذه الصورة تبعث على البهجة فالناظر إليها لا يستطيع إلا أن يضحك بشكل لا إرادي مشاركاً إياهما ضحكهما الصاعد من القلب.

صورة 7؛

ملتقطة من زاوية غير متوقعة. كأن المصوِّر يجلس على غصن وسط شجرة؛ توت مثلاً.. لعل المرزوق يجرِّب منظوراً مميزاً يمكن استثماره فيما بعد، في الرسم..

في مرج ما، في بقعة غير متعينة من العالم، وهو كأنه على وشك التحليق.. الهواء يشعِّث النباتات.. يتخلل شعره، شعره طويل ولحيته نامية وشارباه ثخينان مثل إينشتاين. يبدو وكأنه استيقظ لتوِّه ولم يغسل وجهه بعد. ياقة قميصه الزيتوني مقلوبة، مطو إلى الأسفل عند كتفه الأيسر، والمصوِّر لم ينبهه. لعلّ لا مصوِّر هناك.. وضع الكاميرا على حامل، أو شدّها إلى الغصن، ووقّتها، ولم يبالِ بمظهره.. لم ينظر في المرآة قبل ذلك.. فكرت؛ ما الذي جعله يصوِّر نفسه بهذه الطريقة أول الصباح.. لعله مزاج عابر.

صورة 8؛

كبطل في فيلم كاوبوي هوليودي... يلبس قبعة أمريكية ذات حواف معقوفة وقميصاً أسود أزراره مفتوحة حتى نقرة الصدر. صدره مشعر، عريض. وإلى جانبه امرأة ضئيلة.. كما لو أنهما في قرية تشبه تلك التي يحكي عنها فلوبير في رواية (مدام بوفاري).. ثوب المرأة سماوي مزهر بالأبيض، أزرار الياقة مسدودة، يُبرز الثديين وينضغط عند الخصر وينتفخ أسفل ذلك.. تلبس كاسكيت لاعبة تنس يظلل ملامحها، وهذا ما يترك تنافراً في اللقطة.. يخيل إليّ أنها مليحة، شهوانية، ولعوب.

صورة 9؛

يتوسط امرأتين ورجلين.. خمسة يقفون في صف واحد.. في نظره أسى من يودع مكاناً ألِفَه، وفي عيونهم الوداعة الحزينة لمن يودِّعون شخصاً يعرفون أنه سيترك فراغاً مضنياً حين يفارقهم.

لا يظهر من السماء شيء، والخلفية جدار منزل عالٍ.. أفترض أن السماء غائمة، والمطر وشيك.

صورة 10؛

يمشي بين حشد من الطيور في ساحة بباريس.. ثمة طائر أبيض مفروش الجناحين وراء رأسه كأنه على وشك أن يحط على كتفه.. حمامة بيضاء أشبه بملاك حارس. وهو كما لو أنه فوجئ بمن يصوِّره في أثناء سيره فارتسمت على وجهه بسمة خفيفة.. معطفه الصوفي أسود ياقته عالية، ويغطي نصف فخذيه، يُظهره مع حقيبته السوداء التي يحملها بيده اليمنى رجلاً مميزاً، لعله يُسرع لحضور اجتماع هام.

محاورة 2

ماجد: شكراً أستاذ سامي.. اختياراتك للصور كانت موفقة.

- سامي: أترغب بمفاجأة أخرى.
- ماجد: لم لا.. أنت تشوِّقني.. ما هي؟.
- سامي: أمس وجدت ملفاً في حاسوبي عن لوحات الأصدقاء.. كانت هناك صور أربع لوحات له.
- ماجد: الله.. لو كنت معك الآن لقبّلتك.
- سامي: هههههههه.. قبلتك واصلة.. شكراً.. سأرسلها على إيميلك فيما بعد.
- ماجد: ههههههههههه.. خطرت لي فكرة حول المادة التي أريد أن تكتبها عنه.
- سامي: قلها.
- ماجد: لا أظنك تعرف الكثير عن مرحلته الأوربية..
- سامي: لا أكاد أعرف عنها شيئاً.. كان متكتماً بعد عودته..

- ماجد: لا أحد كان معه ليدلي لنا بشهادة عمّا حصل هناك. وللأسف لم أجد حتى الآن مادة كتبها عنها، إلا بعض الإشارات في يومياته.
- سامي: صحيح تماماً..
- ماجد: وعن مرحلة ما بعد عودته من باريس حصلت على يومياته وهي قليلة، يشير فيها إلى وقائع وأحداث بدءاً من لحظة دخول الأمريكان بغداد وإسقاطهم التمثال. فضلاً عن حكايات كثيرة سمعتها من معارفه عن هذه الفترة.
- سامي: وإذن.....؟
- ماجد: هناك مرحلة أخرى غامضة هي مرحلة ما قبل رحلته إلى أوروبا.. كنت تعرفه آنذاك..
- سامي: يكبرني بعشر سنوات.
- ماجد: أعرف، لكنك كنت مقرّباً إليه بحكم الانتماء الفكري والاهتمام الإبداعي، يقولون أنه أستاذك..
- سامي: طالما قلت هذا..
- ماجد: كم سيكون رائعاً إذا ما أوضحت أمرين؛ انتماءه السياسي الملتبس وسجنه أولاً..
- سامي: عبارتك دقيقة؛ انتماؤه الملتبس...
- ماجد: نعم، ومن ثم علاقته بامرأة أشار إليها في محاضرة باتحاد الأدباء شتاء عام 2000.
- سامي: آه.. فكرت أن أخفي هذا الأمر.. حضرت تلك الجلسة، كان ذلك قبل مغادرتي العراق بسنة.. نحن نتحدث عن امرأة تزوجت، وهو في السجن، من رجل ميسور. وماتت بمرض القلب قبل

ثلاث سنوات أو أربع. ولها أبناء وبنات لهم مكانة اجتماعية جيدة في بعقوبة.. أحدهم طبيب جرّاح، وبنت مهندسة نفط، وأخرى محامية.. هذه ورطة.

- ماجد: تحدّثْ مواربة، باسم مستعار، وسأحاول تحوير بعض المعلومات في أثناء تأليف الكتاب، بطريقة تموِّه ولا تنسف الحقائق المهمة.
- سامي: طيب، ما زلت حائراً، لا أدري كيف أفعل هذا؟.

لم ينتظر شهراً.. بعد ثلاثة أيام فوجئت برسالة سامي الرفاعي على إيميلي.

رسالة سامي الرفاعي

في سنته الأخيرة بأكاديمية الفنون الجميلة حاك شبكته حولها.. كان ذلك زمن اصطخاب موجة اليسار مستهل الستينيات.. جلس إلى جانبها في الحافلة الراجعة من بغداد إلى بعقوبة.. لم يحدث الأمر مصادفة.. بدأ يراقبها منذ أكثر من شهر.. ينتظرها في موقف الحافلات بساحة الميدان كل يوم؛ شعرها الفاحم القصير، عيناها اللوزيتان، رصعة خدها، أناقتها، أو قل اختيارها الذكي لملابسها، فخذاها المصقولتان العاريتان بمقدار نصف قدم أعلى الركبة. هذه كلها مع أشياء أُخر أسرته. سرقت قلبه. تصوّرَها أجمل أنثى في البلاد.. ما كان يعرف حتى اسمها.. يعرف من الكتب التي بيدها، أنها طالبة جامعية، سنة أولى كلية الآداب قسم اللغة الإنكليزية. ولأجلها سيدخل المعهد البريطاني ليقوّي لغته الإنكليزية. شغفه بها كان جنونياً.. حين رأيتها فيما بعد تأكدت من أنها لم تكن جميلة جداً.. جمالها في المستوى العادي؛ قصيرة تميل بشرتها إلى

السمرة، بأنف صغير مقوّس، وشامة صغيرة تلمع على طرف حنكها. أكد لي، وهو يحكي عنها فيما بعد، أن وهجها الأنثوي عاتٍ ولا يُقاوم.. لكني أظن أنه أسقط عليها صورة أنثى مثالية لا توجد إلا في رأسه..

قرر في ذلك اليوم أن ينجز خطوة أولى.. جلس يداخله شيء من الوجل من غير أن يفوه بحرف.. حين تحركت الحافلة فتح كرّاسته وشرع يرسم ليلفت انتباهها لكنها بقيت تنظر من النافذة ولا تأبه به.. ولمّا اقتربت الحافلة من المدينة قال لها بصوت خافت: «منذ ساعة وأنا أرسم في هذا الدفتر اللعين لأجعلك تعجبين بي، وأنت لا تنظرين إلا إلى تلك المناظر التافهة في الخارج والتي شاهدتِها ألف مرة».. بهتت الفتاة للحظات قبل أن تكتم ضحكتها.. أضاف: «انظري، انظري إلى رسوماتي».. وراح يقلّب صفحات الكراس ليريها تخطيطاته.. أكمل بنبرة تتحشرج: «خطر لي أنكِ إنْ رأيتِ ما أفعل ستتزحلقين، أقصد ستقعين في البئر، يعني الحب، حبي.. لكنك غير مهتمّة.. تجدينها سخيفة أليس كذلك؟».. أرادت أن تظهر غضبها، كانت طاقة الضحك في داخلها أقوى. قالت وابتسامتها تتسع: «هذه أغبى طريقة في جذب فتاة». أجاب وهو يحك رأسه: «أعرف؛ أغبى طريقة، صدقتِ والله، لكني لم أجد غيرها، أترين، إنها طريقة إنسان مصعوق بالدماغ، ها، ماذا قلتِ؟». قالت بإنكار: «عن ماذا؟». هز يده باستخفاف: «تسألين عن ماذا وأنا منذ الصباح أشرح لك.. اسمعي أنا غارق، غارق... أنا محمود المرزوق.. فنان والله، رسام.. صحيح حمار شوية.. لكن أنا....».

تنبه إلى أن الحافلة تتوقف.. بقي جالساً حتى نزل آخر الركّاب، وهي ما تزال محبوسة تنتظر أن يفسح لها.. لم يفعل.. قامت: «اسمح لي..».

قام وخرج من مقعده إلى الممر، وأشار لها لتخرج ماداً يده مع انحناءة خفيفة. سارت وسار وراءها حتى نهاية الحافلة..

وهي تهمّ بالنزول، ومن غير أن تلتفت قالت: أنا غادة.

(هذا ليس اسمها.. استخدمتُ الاسم الذي نعتها به في جلسة اتحاد الأدباء نهاية التسعينيات).

هو من أسرة تنتمي لبرجوازية بعقوبة. وبعقوبة مدينة لم تكن قد تخلّصت تماماً من طابعها الريفي.. أسرة كبيرة متفرِّعة تمتهن تجارة الأقمشة وتمتلك البساتين.. هي من أسرة بغدادية عريقة سكن فرع منها بعقوبة مؤخراً بسبب تردي وضعها بعد الثورة إذ كان أبوها المحامي من المقرّبين للعائلة المالكة، ومرشّحاً ليكون وزيراً.

في غضون ما تبقى من السنة الدراسية حبكا معاً قصة حب باهرة.. أقنعها أن الزواج الآن سيجعل حياتهما رتيبة ولا معنى لها، وعليهما أن يمضيا في العلاقة إلى حين تخرجها في الجامعة: «عندها أكون قد رسّخت اسمي في دنيا الفن وجمعت بعض المال وتكونين أنت مستعدّة للذهاب معي إلى باريس.. باريس مدينة الأضواء، مدينة الإبداع والجمال.. هناك سأصنع مجدي وأنت شريكتي.. ستكونين دي بوفوار الخاصة بي». لم يكن يؤمن بالزواج.. يريدها علاقة حرة، على الأقل لسنوات. يقول لها ضاحكاً: «علينا أن نصنع مغامرتنا الخاصة وذكرياتنا.. لا بأس بقليل من المشكلات المسيطر عليها». غير أن المجتمع المحافظ ما كان مستعداً لترضية مثل هذه النزوة.. أما هي فقد آمنت به، ولأجله قبلت المجازفة.. وحدثت المشكلة الأولى يوم رآهما أحد أقربائها في

سينما روكسي ببغداد يشاهدان فيلماً مصرياً.. كاد والدها يجبرها على ترك الدراسة وهي في المرحلة الثالثة.. ولكي يعالج الوضع المتأزم ذهب إلى والدها في مكتبه وطلب يدها.. ذهب وحده.. المحامي النابه المحنك، المرشح السابق للوزارة نظر إليه شزراً وقال: «وأين أهلك.. تأتيني لتخطب ابنتي وحدك.. هنا في مكان عملي.. أمخبول أنت؟».. قال متلعثماً أو أنه افتعل التلعثم: «يا عمي، أنت على حق.. بي شيء من الخبل صحيح. والسبب.... ستعرف فيما بعد.. سأقول لك بصراحة لماذا جئت وحدي».. «لماذا؟». «لأني لا أثق بقدرتهم على إقناعك.. أخشى أن يتلفظ أحدهم بكلمة فجّة من غير أن يقصد، فقط لأنه غبي، فتركلنا إلى الشارع». نظر إليه الرجل وهو لا يصدّق أذنيه، وكان يحاول إخفاء ابتسامته.. قال: «وأنت، أبمقدورك إقناعي؟». هز المرزوق رأسه: «لا أدري.. أنت رجل مخيف».. «مخيف؟!».. «أقصد، هيبة.. أنت رجل مهاب.. أعددت لك ألف عبارة ونسيتها كلها.. أنت رجل محامٍ وذكي جداً، وتستطيع أن تخمِّن ما أردت قوله في مثل هذا الموقف». وضع المحامي إصبعه قريباً من أنف المرزوق وقال بحدّة: «لا أوافق». «لماذا؟».. «لأنك مخبول رسمي، ولا أريد أن يقال عن ابنتي يوماً أن زوجها في الشمّاعية».. «هذا ما لن أفعله. لن أدخل الشمّاعية. أنا فنان.. يعني؛ خبلي في ضمن المستوى المسموح به». أطلق الرجل ضحكة عالية، وقال: «أنت أغرب شخص التقيته في حياتي.. اذهب وهات أهلك.. ليس لدي كلام آخر». ولعله كان يعتقد بأن عائلة المرزوق معترضة على هذه الخطبة، ولهذا جاء وحده.. ولذا فإن الأمر سينتهي عند هذا الحد.

لم ينته الأمر عند هذا الحد ففي مساء يوم السابع من شباط، المصادف الثالث عشر من رمضان، بعد ساعة الإفطار، ذهبت نسوة من أسرته وأقربائه ليخطبوا له غادة.. اشترط أن يبقيا مخطوبين لحين تخرّجها بعد سنة وبضعة أشهر. وانطلقت الزغاريد ليلتها من بيت المحامي. وكانت قد جرت العادة أن يذهب الرجال، مع النساء، في اليوم التالي ليكملوا الاتفاق الخاص بمقدّم الصداق ومؤخّره، وبقية شروط الزواج التقليدية، ويقرأوا الفاتحة. ومن ثم يضع كل من الخطيبين الخاتم في بنصر الآخر..

في اليوم التالي؛ الثامن من شباط، المصادف الرابع عشر من رمضان، استيقظ الناس على خبر انقلاب عسكري بثته الإذاعة، سال خلاله الدم غزيراً واضطربت أحوال البلد. أُعدم الزعيم عبد الكريم قاسم، وسيق آلاف الشيوعيين إلى السجون.. كان المرزوق ماركسياً غير منتمٍ، إلا أنه كان على رأس قائمة المطلوبين للحكومة الجديدة.. لم يودعوه سجن المدينة بل أخذوه إلى معتقل قصر النهاية في بغداد ظناً منهم أنه العنصر القيادي الأخطر في حلقات الشيوعيين في اللواء.. هكذا موّه لهم شخص من الحرس القومي اسمه شفيق نونة لسبب شخصيّ محض. ولكي أكون منصفاً مع شفيق نونه أريد التأكيد أنه قاد ابن عمّه الشيوعي ستار نونه أيضاً إلى الحبس فقد كان وفيّاً لانتمائه.. ثمة لغط، أو شائعة، عن حكاية امرأة انتحرت في بيت عم المرزوق، ومشادّة وإطلاق نار في بار بين الثلاثة، أقصد الاثنان من آل نونة ومحمود المرزوق، لست متأكداً من تفاصيلها، وقد حدثت وأنا طفل، قبل تعرّفي على المرزوق بسنوات.. هناك في المعتقل تعرّض المرزوق لتعذيب شديد.. بعد شهرين وجد مئات من المعتقلين أنفسهم محشورين في عربات قطار لُحمت أبوابها ونوافذها

إلى الحد الذي لم يبق فيها منفذ لدخول ولو جزيئة هواء واحدة. ذلك القطار الذي سمي بكتب التاريخ السياسي المعاصر (قطار الموت) كان أحد ركابه محمود المرزوق.

تحرّك القطار جنوباً، والغاية سجن نقرة السلمان في صحراء السماوة.. كانت الخطة أن يموت في الطريق أكبر عدد ممكن منهم، غير أن السائق تنبّه لطبيعة حمولة قطاره.. هذه الأكداس البشرية المعرّضة للفناء راحت تقرع على جدران العربات وتحاول خلع النوافذ من غير جدوى.. وما كان من السائق المصاب بالصدمة والذهول إلا أن ينطلق بالسرعة القصوى الممكنة ليصل محطة السماوة قبل حصول الكارثة، أو اتساع رقعتها. هناك بعد ساعات أليمة أوقف القطار وكان أهالي السماوة، الذين وصلهم الخبر بطريقة ما، ينتظرون.. قاموا بتحطيم أبواب العربات وأخرجوا الرجال الموشكين على الاختناق.. كان هناك موتى، وأشباه موتى. ومن بين الأخيرين محمود المرزوق، وقد نجا.

لو لم يكن والد غادة محسوباً على القوميين لألقوا القبض عليها أيضاً، فهي صديقة شيوعي مارق ولابد من أنه أثّر عليها بأفكاره.. لم يكن الرجل منتمياً هو الآخر. لم ينضم إلى صفوف الحركة الناصرية ولا إلى البعثيين. كان أقرب بتوجهاته إلى الوطنيين البرجوازيين العراقيين الحالمين بدولة عراقية على الغرار الليبرالي الغربي. ومع هذا جرى استجوابه بعد أشهر، لا بسبب ابنته وإنما لأنه واحد من رجالات العهد الملكي المباد.. بعد ساعتين من التوقيف في خيمة للحرس القومي تدخّل بعض المتنفذين من أصدقائه وأطلقوا سراحه.

دخل المرزوق سجن نقرة السلمان وعمره خمس وعشرون سنة، وخرج منها وهو في الثلاثين.. في هذه الفاصلة التعيسة والمهملة من حياته خسر ثلاثة أشياء؛ الأول؛ إيمانه الكلّي بالحب بعد أن تزوجت حبيبته غادة ـ أو أجبروها على الزواج ـ من ابن عم لها ثري، سيكون له شأن خطير بعد انقلاب 1968.. الثاني؛ ثلاثة أرباع إيمانه بموهبته فناناً يمكن أن يمضي بنجاح في مشروعه الخاص. الثالث نصف إيمانه باليسار فكراً وتنظيمات.

في براغ سيستعيد إيمانه بالحب حين يعشق امرأة روسية بيضاء.. وسيحافظ على الربع المتبقي من إيمانه بموهبته.. وسيخسر النصف الآخر من إيمانه بتنظيمات اليسار القائمة، في مقابل إعادة تفكير نقدية جذرية بالفكر اليساري سيوصمه على إثرها بعض الماركسيين الأرثوذكس بالتحريفية.

في مستهل السبعينيات شكك بمشروع الجبهة الوطنية، وحين قالوا له أنت لست منّا ولا تفهم بالسياسة.. قال: أنتم على حق.. لست حيواناً سياسياً مثلكم.. أنا حيوان يعرف كيف يرسم..

ما أعاق محمود المرزوق عن أن يصبح شخصية فنية وثقافية مشهورة هو ضعف تقديره لذاته.. عدم إيمانه الكافي بموهبته، وربما بجدوى الفن عموماً. ولطالما أثارت أعصابي تلك العدمية الكسولة التي طبعت سلوكه. ولطالما غضبت منه وزعلت، أنا صديقه.. وتلميذه بمعنى ما في عالمي الفكر والفن.. كنت أرى الجذوة المشتعلة في داخله وقد واراها تحت طبقة من الرماد البارد.. الجذوة التي كنت أتحسسها كلما رأيت له تخطيطاً أولياً، او لوحة فنية لم تكتمل، أو حتى خربشات

جنونية على ورقة مهملة على منضدته. وأقول: «حرامات يا محمود تهدر هذه الطاقة كلها».. فيرد مازحا: «.... أم الطاقة، لا تدوّخني بفلسفتك، صعدت القطار الخاطئ منذ ثلاثين سنة، ولست أتكلّم في السياسة». وحين أضحك متألماً يضيف: «المحطة خربة والسكة صدأت ولا تسمع سوى الريح تعوي».. هذا بعدما عاد من أوروبا إلى بعقوبة وفتح مكتبة كبيرة ظناً منّه أنها تجارة مفيدة ومربحة ثقافياً ومادياً.. وقد قال لي يومها: «اسمع سامي، أنا كبرت وغسلت يدي من الفن لكن ما سأجنيه من هذه التجارة سأنفقه على الثقافة، سأحوِّل المكتبة في يوم قريب إلى دار نشر وسأموِّل ورشات فنية وسأعيد الحياة إلى المسرح في المدينة».. قلت له: «أنت مثل أهل الكهف الذين استيقظوا في زمن آخر ستكتشف أن عملتك القديمة لم تعد لها أية قيمة.. تجارة الكتب بائرة.. من الجميل أن تفتح مكتبة هنا، ولكن لا تتوقع أن تربح شيئاً».. لم يقتنع.. ما كان يصدّق أن الناس بعد أن أتعبتهم الحروب كفوا عن القراءة، ومن ثم ستجيء ظروف الحصار، ولن يعودوا إلى ارتياد المسارح والسينمات ومعارض الرسم.. ويوماً قلت له: «اعطني خبزاً ومسرحاً... لقد عزّ الخبز والناس بالكاد يحصلون عليه لذا من سيفكر بالمسرح والفن؟.. اقترحت عليه أن يتفرغ لنفسه ويستأنف الرسم.. لا بأس بمكتبة صغيرة لقضاء الوقت.. قلت له: «الكاتب لا يحتاج إلا لقلم وأوراق وهذا لا يكلِّف شيئاً كبيراً.. أما الرسم فبحاجة إلى أموال لشراء الأصباغ والفرش والقماش والخشب وبقية الأدوات.. وأنت استثمر بعض ما معك من مال في إنتاجك الفني».. قال: «إذا لم يعد الناس بحاجة إلى الكتب فما حاجتهم للوحاتي؟». أفهمته بأن هناك شريحة ثريّة، تقتني اللوحات

وتعلّقها في صالات منازلها الفارهة، فضلاً عن الأجانب الذين يزورون كاليريهات العاصمة ويقتنون اللوحات الجيدة مقابل أثمان معقولة. قال: «سأفكر بالأمر» لكنه لم يفعل.. افتتح مكتبة كبيرة وخسر.. أغلقها ونقل كتبه إلى سرداب بناية يملكها عمه.. أعتقد أنك تعرف بقية القصة».

محاورة 3

- ماجد: قرأت شهادتك لتوّي.. رائعة..
- سامي: يسرّني أنها أعجبتك.
- ماجد: تتضمن مادة غنية.. تفاصيل لا يلتقطها إلا رسام..
- سامي: هناك أشياء كثيرة أخرى.. اخترت ما حسبته دالاً ومفيداً لك.. لولا ضيق الوقت، ربما كتبت عن أشياء أخرى.. هذا أهم ما لديّ.
- ماجد: شكرا لك، وشكرا للمرزوق وهو في قبره لأنه كان مناسبة لتعارفي معك.. أتشرف بصداقتك وإن لم نلتق.
- سامي: الشرف لي صديقي. وأتمنى الحصول على نسخة موقّعة مهداة لي من الكتاب بعد نشره.
- ماجد: بالتأكيد، هذا لا يحتاج إلى تذكير أو توصية.
- سامي: سأرسل إليك صور لوحات المرزوق حالاً.
- ماجد: أنت تُغرقني بأفضالك.. ممتن لك صديقي.

اللوحة الأولى:

جسد أنثوي ملتم على نفسه قليلاً، معلّق في فراغ مضبب. مرسوم من منظور جانبي. ملامح الوجه غير واضحة تماماً، غير أن المشاهد يميّز عيناً واحدة لوزية وأنفاً رفيعاً وفماً ممتلئاً مفتراً يُذكّر بثمر الأجاص. يدها

المرفوعة تخفي نصف ثديها. وشعرها الطويل المنساب خلفها يلتف ليستر تكويرة الردف وجزءاً من فخذها.. باستثناء الأبيض والأسود اللونان الطاغيان هما البني الفاتح والأزرق الفاتح.

اللوحة الثانية:

لابد من أن المرزوق سمّى لوحته هذه بالصرخة.. فم مفتوح أبعد من الحد الأقصى يصرخ باحتجاج مؤلم. الفم الصارخ يغطي ثلاثة أرباع مساحة الوجه. العينان حمراوان غاضبتان والملامح متقبّضة.. لا يحتاج المشاهد لذكاء خارق من أجل أن يكتشف كمّ العذاب الذي يدفع إلى إطلاق هذه الصرخة العارية.. إنها صرخة في وجوهنا، في وجه العالم.. تجفل وكأنك تسمعها.. ظل كثيف معتم يحيط بالوجه، فيما لون الصرخة المنطلقة دامٍ كفوهة تنّور.

هذه صرخة إنسان أذلّه الظلم، وليس بمقدوره بعد الآن أن يسكت أو يساوم.

اللوحة الثالثة:

منفّذة بالأسلوب التنقيطي.. يحاكي معها طريقة رسام من جيله ومدينته هو صديق قديم له اسمه عزيز الحسك كما أعلمني سامي الرفاعي في ملاحظة مرفقة. لكنه هنا أدخل شيئاً من التكعيبية. تكعيبية بيكاسو على وجه التحديد. ثلاثة وجوه أنثوية مثلثة متشابهة وكل منها بلون مختلف؛ الليموني والأخضر الفاتح والوردي.. كأنك ترى المشهد من وراء سيل ممطر.. الوجوه صلبة، لكنها وديعة ومطمئنة.. للوحة هذه تأثير مهدئ للأعصاب.

اللوحة الرابعة:

اللون الحشيشي يطغي على فضاء اللوحة.. كأنه تيار من خيوط خضر ينبث من الأسفل، أو أجمة من أعشاب طويلة.. الخيوط أو الأعشاب تتمثل عبر أسلوب أقرب ما يكون إلى التجريد، لكن خلف هذه الخطوط يرقد كائن ما، هو نائم أو ميت.. بعد تأمل مركّز تكتشف أن الكائن امرأة. توحي اللوحة وكأن الرسام يحاول تخليد حبيباته اللواتي عرفهن طوال حياته بامرأة/ رمز تجعلها النضارة الدافقة الخضراء محميّة تماماً ضد شرّ الخارج، وعصيّة على البلى..

الفصل الخامس

اشتد المطر.. امرأة تعبر الشارع الآخذ بالغرق.. عباءتها اللامعة المبتلة تلتصق بجسمها.. الريح تجعلها، وربما الارتباك أيضاً، على وشك الترنّح.. أظنها تتخيل العيون الفضولية المصوّبة نحوها من النوافذ المطلّة.. أشجار الكالبتوس العالية، على جانبي نُهير خريسان، تتمايل وكأنها تنشد في حلقة دراويش.. أفكر بالعصافير أين تراها تختبئ.. السيارات قليلة، تخوض في المياه ببطء.. الماء يرتفع إلى حافة الرصيف.. مرق الفاصولياء الذي أتناوله مع الخبز الحار يمنحني الدفء، فيما نافذة المطعم الزجاجية العريضة التي أراقب من خلالها العالم تتركني مطمئناً، وخاوياً.. يسألني النادل فيما إذا كنت أطلب شيئاً آخر.. أشكره؛ «الشاي فقط».. لا أدري لماذا ينعتني بالحاج.. ربما بسبب الشعرات البيض في سالفي والتي صارت تتكاثر منذ بعض الوقت.. الكهرباء مقطوعة، والضوء المنسل عبر النافذة إلى داخل المطعم شحيح وكامد.. يرن جرس الموبايل.. الأستاذ حيدر يسألني أين أكون.. أقول في مكان نظيف سيء الإضاءة.. يضحك ويقول: «لو تأتي الآن.. هناك ضيف بانتظارك».. لا أسأله؛ من يكون الضيف.. أقول: «حسناً، ربما عثرت على سيارة تاكسي في هذه الساعة».. يأتيني النادل

بالشاي.. أبدي ملاحظة عن إمكانية أن تتوقف لأجلي سيارة تاكسي في مثل هذا الجو.. يتدخل زبون يجلس قريباً من مائدتي: «انتظر خمس دقائق ريثما أنتهي من الأكل».. هذا من حسن الحظ.. سيارته مركونة على بعد عشرة أمتار من المطعم، وهذا ما يضطرنا إلى الركض والمطر يرشقنا.. يضحك السائق وهو يشغِّل سيارته.. أخبره بالعنوان.. يوصلني لبداية الزقاق.. يعتذر عن الدخول حتى منزل الأستاذ حيدر بسبب السيل الذي يكاد يندفع إلى داخل البيوت.. أقطع بقية المسافة مهرولاً.. أقول للأستاذ حيدر بعد اجتيازي عتبة منزله، وإغلاقه الباب بوجه الإعصار: «عليّ أن أدخل الحمام فقد تبهذلت».. أستحم بسرعة وألبس بيجامتي مع سترتي الجلدية وأدخل الصالون.. أصافح الرجل السبعيني الذي جاء في هذه الساعة غير المؤاتية لرؤيتي، ونتبادل عبارات المجاملة.. لا أعلم سبب زيارته.. يعلمني الأستاذ حيدر مبتسماً: «الحاج منصور الهادي عرف أنك تكتب عن المرزوق وجاء ليراك».. أجلس قريباً من المدفأة النفطية وأمد نحوها يدي بحركة عفوية طلباً للدفء.. ما زال جسمي رطباً.. يفرقع الرعد وتنطفئ الكهرباء.. الظلام يغمر الصالة.. «سيشغِّلون المولدة بعد دقيقة»، يقولها الأستاذ حيدر وكأنه يعتذر.. يباغتني الحاج منصور، وهو يشعل سيجارة، بجملة صادمة: «لماذا يرغب أي أحد بالكتابة عن أي أحد ليست له معجزات؟!». ارفع حاجبيّ وأقول: «المعجزات للأنبياء وحدهم».. يضحك ويقول: «أتكلم عن الأثر». يبدو الحاج منصور فظّاً، وانطباعي الأول عنه ليس مريحاً.. وإذن أجاء من أجل أن يوبخني لأني أكتب عن المرزوق؟.. ضوء النيون في الصالون يشتعل.. «اللهم صل على محمد....» يقول الحاج منصور..

أقول: «منذ اكتشاف فن الرواية صار بالإمكان أن نجعل الأشخاص الاعتياديين أبطالاً، فقط مع بعض الإثارة». يقول: «من هذه الناحية لك الحق كله.. كان المرحوم مثيراً للغط.. بطلاً على طريقته.. بطل من غير حروب ودماء.. بطل من ورق».. لن تحتاج إلى ذكاء حاد لتكتشف أن الحاج منصور لا يحب المرزوق، ومن السابق لأوانه الاستنتاج بأنه جاء ليثنيني عن تكملة المشروع، وأعتقد أنه أدهى من أن يطرح مثل هذا الرأي مباشرة.. كما أنه من قلّة الذوق أن أستفسر منه؛ وإذن لِمَ أنت هنا؟.. ويبدا أن الأستاذ حيدر قرأ حيرتي، أو أنه تنبّه لنبرة السخرية في كلامي، وأراد أن يجنِّبني التسرّع بالحكم، مما سيتسبب بإحراج لا داعي له.. قال؛ «الحاج منصور كان مع المرزوق في نقرة السلمان»..

السماء تدمدم بطبولها البعيدة.. أتراجع قليلاً عن المدفأة، معدِّلاً طريقة قعدتي.. «رائع».. «كنتُ في ذلك القطار» يقول.. «ستردم لي ثغرة في القصة» في نبرتي، الآن، شيء من الحماس.. يقول بجلافة: «لا تتوقع قصة درامية هائلة.. كان الأمر كله سخيفاً ومملاً».. «هو ليس كذلك لكثيرين».. «الوهم.. تلك التضحيات التي لا معنى لها، وانظر إلى أين وصلنا».. قطعاً لا أريد الثرثرة حول جدوى النضالات القديمة.. أفكر بتغيير وجهة الكلام.. «لا شك أنك ستتذكر أشياء حين تتحدث».. أذهب وأجلب آلة التسجيل الصغيرة، مع كرّاسة ملاحظاتي.. «بالمصادفة عرفت أنك هنا بشأن الكتابة عن المرزوق».. يضحك كاشفا عن طقم أسنان اصفرّت بفعل التدخين.. «لا أتذكر الكثير.. الأيام كانت متشابهة هناك». يشعل سيجارة أخرى.. «ثم لا تنس.. سبعة وأربعون سنة منذ ذلك الوقت».. يرتشف من كأس الشاي.. يسحب نفساً عميقاً

ويطلقه.. «أكثر صورة عنه من تلك الأيام عالقة في رأسي ذلك القاموس اللعين.. تصوّر أنه حفظ القاموس كله عن ظهر قلب.. خمس سنين وهو يطالع في ذلك الكتاب الثخين الذي تهرأت حوافه وأصبح جلده كمؤخرة ماعز عجوز».. «ربما لأنه لم يكن هناك كتاب آخر».. «بل كان هناك بعض الكتب، وأظنه التهمها أيضاً.. محمود المرزوق ضحية الكتاب.. الكتب خرّبت حياته».. «وربما أنا أيضاً مثله».. كما لو أنه بصدد القول: «الطيور على أشكالها تقع» لكنه يستدرك: «لا أقصد أن العلّة في الكتاب.. هي في الذي يقرأه بطريقة غلط.. أو في اختيار ما يقرأ». أقول: «ليس من المعقول أن يكون المرزوق قضى خمس سنين في السجن يحفظ القاموس، ويقرأ الكتب، ولا شيء آخر؟».. يأخذ نفساً أخيراً من سيجارته ويطفئها في المنفضة الزجاجية التي أمامه، إلى جانب صحن البرتقال الذي جلبه الأستاذ حيدر ووضعه على طاولة صغيرة.. يهز رأسه هزات متتابعة ويقول: «لا، هناك شيء لعين آخر كان يقوم به؛ يلعب الشطرنج».. يحل صمت قصير.. «كان يقول؛ طالما أن الزمن متوقف هنا، فاللعبة المناسبة لنا هي الشطرنج.. أظنه كان على حق في هذا، وهو على أية حال قليلاً ما يكون على حق». يأخذ برتقالة ويبدأ بتقشيرها بأظافره؛ «لم أحب الشطرنج قط.. قرأت بعض الكتب هناك».. يعطيني الأستاذ حيدر برتقالة مع سكينة بمقبض من البلاستيك.. وهو يلتهم برتقالته يقول الحاج منصور: «لي رأي قد يزعجك، ولكن هذه هي الحقيقة». ينتهي من أكل برتقالته ويمسح يديه وفمه بمنشفة مبللة الحافة، يقدّمها له الأستاذ حيدر.. أنتظر ماذا سيقول عن الحقيقة من غير أن أنطق بكلمة مشجعة: «العالم تخرّب بسبب أناس مثل محمود المرزوق.. لا

أقول أنه يستحق مثل هذا المصير، لكنني لم أتفاجأ، هو حصد ما غرسه والآن يجادل زبانية جهنم». يضحك بعجرفة.. يبتسم الأستاذ حيدر مدارياً حرجاً لا يعرف كيف يتملص منه.. أنا أكتفي بمضغ آخر ما تبقى من برتقالتي، أتناول المنشفة، أفرك بها أصابعي الدبقة من عصير الفاكهة، وأقول: «شكرا لصراحتك».. «لست أكرهه» يقول، وأرغب بالرد: «لكنك تكرهه». «لو جعلوا كل شيء يسير من غير تلك العنتريات». أتدخل وأسأله عن علاقات المرزوق في السجن، لأني لا أريد تضييع الوقت بمناقشات سياسية لا تجدي.. يخاطبه الأستاذ حيدر: «لكنك كنت مندفعاً أكثر منه». «كنت غبياً ضالاً واهتديت». «أدخلَ في نقاشات حادة مع الشيوعيين المنظمين هناك؟».. «ذات مرة ضربه شرطي ضخم حتى أدمى فمه، لا أذكر لماذا».. أحاول استفزازه علّه يقول شيئا مهماً.. تفاصيل ستفيدني في إتمام الكتاب: «أهو من النوع الذي يحب العراك بالأيدي».. «لم أره ضرب أحداً قط.. يحب أن يُضرب» ويضحك.. ضحكته سمجة.. «رأيته يُضرب خمس أو ست مرات.. يدوس بطنك بالكلام، وحين تضربه يكتفي بالتراجع.. أذكر وجهه متورماً.. لم نكن أصدقاء.. هو لم يودني، وكذلك أنا.. لم يكن من طينتي.. ذات مرة ظهر سكراناً.. قيل أنه كان يرشو السائق فيجلب له الزقنبوت.. كانت الفلوس تأتيه من عمه.. كشف نفسه، وأوسعوه ضرباً.. تركوه في الشمس مربوطاً إلى عمود.. يومها كان مثل كلب أجرب.. لا أقصد الإهانة، بل أنقل ما رأيت.. أصيب بضربة شمس وأوشك على الموت.. بعد ذلك دخل في صمت طويل.. حرّاس السجن كرهوه أكثر من أي شخص على الرغم من أنه لم يفعل شيئاً يلفت النظر، أقصد من وجهة النظر السياسية.. كان

بمجرد أن يجلس وحده ويقرأ في ذلك القاموس يجعل الجن يستيقظ في دواخل بعض المعتقلين والشرطة.. كان بارعاً في لعبة الشطرنج.. لعب مع آمر السجن وغلبه.. وكان معنا معتقل من الضباط الكبار، نسيت اسمه.. نظّما دورة مفتوحة.. لم يفز المرزوق ولا الضابط الكبير.. فاز شاب صغير اسمه عزيز، لا، أظنّه معتز.. غلب المرزوق في الجولة الأخيرة.. حين انتهت الجولة كان المرزوق سعيداً ويضحك.. هذا ما جعلني يومها أغتاظ منه، لا أعرف لماذا؟ لو أظهر بعض الغضب والحزن ربما تغيّرت نظرتي إليه.. كان غير مهتم بأي شيء.. لا يهتم إلى الحد الذي يجعلك تفقد أعصابك». يشعل سيجارة أخرى، ويطلب شاياً.. ساعة الحائط في صالة المنزل تدق برنين حاد أربع مرات.. وهو يحمل الشاي والكعك بصينية مذهّبة يعلمنا الأستاذ حيدر أن المطر توقف غير أن الغيوم لم تنقشع، والأكيد أنها ستبقى تمطر الليل بطوله.. «وكيف سأرجع إلى بيتي» يقول الحاج منصور: «لست في صحراء، ستبيت هنا».. «لم انم خارج بيتي منذ أكثر من عشر سنين.. فقط حين ذهبت إلى مكة». قلت: «ليست قاعدة عظيمة يجب أن لا تكسر».. لم يفهم قصدي في البدء فأوضحت له.. قال: «سيأتي ابني بسيارته ويأخذني قبل أذان المغرب». قلت: «ولكنك لم تقل كل شيء» قال: «صدّقني أنك تضيع وقتك.. ليس هناك ما يستحق.. ثم أنا كبرت ونسيت تفاصيل كثيرة.. مرّنت نفسي على نسيان تلك الأيام، وحتى الأيام التي تلتها.. علينا أن ننسى كل شيء ما خلا الخالق عز وجل.. علينا أن نذهب إلى هناك بعدّة أفضل مما ذهب بها المرزوق لمواجهة ربنا.. يوم لا ينفع مال ولا بنون».. أحاول أن أعيده للحديث عن المرزوق: «ألم تجرِ أحداث ذات

طابع درامي، كان المرزوق طرفاً فيها؟». يطلق ضحكته الساخرة ذاتها، ويقول: «أنت تبحث عن قصة لم تحصل.. تريد أن تجعل من الحبّة قبّة.. تريد أن تخلق أسطورة.. تؤلف كتابا مثيراً عن شخص لم يكن مؤثراً.. وليس بطلاً بأي شكل». «هو بطل من هذا الزمان».. أقول نصف مازح.. يقصف الرعد ونسمع صوت الريح.. المطر يعاود الهطول: «سترك يا رب» يقول الحاج منصور.. أقول: «لن تنقلب الدنيا بصوت الرعد».. «هناك الآن ألف سبب وسبب يجعل الخالق جل في علاه يغضب علينا». الوقت قصير ولا أريد تبديده في نقاش عن الآخرة.. أهز رأسي وأسأل: «لنعد لصاحبنا المرزوق». «تسمع أحياناً الرعد ولكن لا مطر».. أيلمّح للمرزوق؟! ربما كان في ذاكرته أشياء أخرى يمكن استدعاءها بالتحفيز.. «استكان شاي آخر وسيجارة أخرى يمكن أن تُخرج جنيات الذاكرة من كهفها».. وهذه المرة أذهب أنا إلى المطبخ وأسخن إبريق الشاي وآتي به في كؤوس ثلاث.. نحتسي الشاي بصمت.. وفجأة وهو يشعل سيجارته الجديدة يهمس الحاج منصور كمن يسأل نفسه: «أكان هو؟». نتبادل أنا والأستاذ حيدر نظرة رجاء ولا نقول شيئاً.. «أظنه كان هو».. ويرشف الحاج منصور من كأسه ويسحب نفساً عميقاً من سيجارته رافعاً رأسه ومطلقاً الدخان نحو السقف.. «ذلك الشرطي الشاذ، المأبون، اتهم المرزوق بالتحرش به.. هدد أن يشتكيه لآمر السجن.. نعم، كان المرزوق وقد وقف وسط ساحة السجن.. أظن الوقت كان أول الصباح أو آخره.. من يتذكر؟. صاح: من لا يعرف هذا الساقط.. يتحرش بي منذ شهرين والآن يئس.. لست مستعداً أن أريق مائي في نتانته».. يسكت الحاج منصور.. يطفئ سيجارته ويأخذ رشفتين من كأس الشاي..

«المرحوم كان ماجناً طوال حياته، لكنه لم يكن شاذاً.. الحق يقال.. لو كانت الشكوى من امرأة لصدّقتها.. المهم، هجم عليه بعض رجال الشرطة بالعصي.. تعالت أصوات السجناء يدافعون عن المرزوق، كان هناك عريف شائب، طيب القلب، قال أنه يعرف الاثنين جيداً، وصرخ بالشرطي الشاذ أن يسكت وبالشرطة الذين ضربوا المرزوق بالعصي أن يهدؤوا، وكان الخبر قد وصل إلى آمر السجن فتم اقتياد المرزوق إليه مع الشرطي.. كانت ساعة فوضى كسرت رتابة الوقت هناك.. كنا نحتاج لمثل هذه الأحداث كي لا نموت من الضجر.. أعلن المعتقلون بدء إضراب عن الطعام.. لم يرد آمر السجن أن يتطور الموقف ويتوتر أكثر.. وأعتقد أن العريف الشائب أوضح له الصورة.. عاد المرزوق وسط تهاليل رفاقه، ولم نر الشرطي الشاذ مرة أخرى.. نقلوه تجنباً للفضيحة.. وقيل فُصل.. لم نعرف الحقيقة، لكن الأمر انتهى بسلام».. يرن موبايل الحاج منصور.. يقف ويقول «وصل».. يعتذر مني، يصافحني ويعانقني: «كنت أتمنى أن أكون ذا فائدة في هذه القصة». أقول: «بالتأكيد حصلتُ منك على معلومات جيدة ومثيرة». يهز رأسه ولا يبدو مقتنعاً.. يشكر الأستاذ حيدر على حسن الضيافة.. يجلب الأستاذ حيدر من الغرفة القريبة للصالون مظلة سوداء كبيرة، ويفتح الباب.. يتناهى صوت أذان المغرب متكسراً في الريح.. الزقاق خالٍ ومغمور بالظلام الذي هبط مبكراً.. تقترب سيارة الفولكس واكن ببطء وحذر.. شريط الزقاق الضيق وكأنه نهر جارٍ، وفوقه تتذهّب خيوط المطر في مسقط أضواء مصابيح السيارة.. يخرج الحاج منصور رافعاً طرف دشداشته، محتمياً من وابل المطر بالمظلة التي يمسك مقبضها المعقوف الأستاذ حيدر..

يعود الأستاذ حيدر والسيارة تستدير على مهل وتخرج من الزقاق.. يقول وهو يغلق الباب ويطوي المظلة المبتلة، ويركنها إلى الجدار: «ما شاء الله.. لم تمطر هكذا منذ سنوات».

بعد ساعتين يأتيني الأستاذ حيدر إلى غرفتي ويعطيني رقم موبايل الحاج منصور.. «طلب أن تتصل به».. أقول: «أعتقد انه تذكر شيئاً آخر».. في الموبايل أحس بصوته مختلفاً قليلاً: «كانت هناك أيضاً خطة هرب شخصين من السجن.. لا أذكر إن كان المرزوق أحدهما أو لا.. يخيل لي أنه كان العقل المدبر.. طبعاً ليس الهرب مشياً على الأقدام، وإنما بسيارة.. فالسجن كما تعلم هو في صحراء، ومن يجازف باجتياز الصحراء سيقتله الجوع والعطش أو تفتك به الذئاب.. وليست هناك سوى سيارات السجن.. لم يستطع رشوة سائق سيارة التموين بعد فضيحة السكر.. لا أذكر إن كان هو وصاحبه اتفقا مع أحد الشرطة، مقابل مبلغ من المال، بالحصول على ملابس عسكرية ومفتاح تشغيل سيارة مملوءة بالوقود.. كانت هناك سيارات الشوفر ليت.. هل كانا يريدان الهرب نحو الحدود.. تخونني الذاكرة أستاذ ماجد.. ذاكرة رجل بعمري وما عانيت، فيها ثقوب كثيرة.. لم تنجح الخطة.. بطريقة ما لم تنجح.. هل خرجا وتاها في الصحراء.. هل انغرزت إطارات الشوفرليت في الرمل.. هل انكشفت الخطة قبل التنفيذ.. والله لا أتذكر.. آسف للإزعاج أستاذ ماجد.. هذا الجزء من الحكاية ليس متماسكاً.. ربما حلمت بهذا فقط.. ربما أتصوّره.. اعذرني». وقبل ان يغلق الخط أسأله فيما إذا لم يكن يمانع أن أذكره في كتابي باسمه الصريح.. يصفن أكثر من المعتاد قبل ان يردد جازماً: «لا، ليس باسمي

الصريح.. لا أرغب أن يهاجموني.. أقصد بعض الأدعياء، ثم سأحرج أمام أقربائه، لسنا في أوروبا»..

الحاج منصور الهادي.. ليس هذا اسمه!

الفصل السادس

ـ 1 ـ

اليوم هو السبت، وأول النهار مشرق وبارد. فيما شيء من سكون يخيّم على المدينة.. أجلس على كرسي أمام النافذة وأراقب عصافير الدوري والفاختات وطيور الحمام وهي تلتقط طعامها من أرضية الحديقة الخلفية للمنزل في ضجة سارّة.. السبت لا أخرج في العادة.. أقضي ساعتين أو ثلاثاً في القراءة. ثم أشرع بالعمل على كتابي.. لم أقع بعد على مادة دسمة للكتابة. وما يقولونه عنه ـ أقصد المرزوق ـ ممن يعرفونه لا يتعدى سرد بعض طرائفه وتكهنات لا أساس لمعظمها، كما أظن، من الصحة.. أوشك على الإصابة بالإحباط.. أمس أسررت لمصطفى كريم بهذا.. قال لماذا لا نغيّر روتين أيامك قليلاً.. وتحدث عن جلسة غداء وشراب سنقضيها في بستان بضاحية بهرز.. ذلك البستان حيث أُحتفي بمحمود المرزوق قبل اثنتين وأربعين سنة، وكما يظهر في صورتين التقطتا يومها بمناسبة إطلاق سراحه من سجن نقرة السلمان. هناك سينتظرنا بعض أصدقاء مصطفى كريم أحدهم وهو مضيفنا؛ شاعر قدير من جيل السبعينيات اسمه إبراهيم البهرزي سبق

وأن قرأت مجموعته؛ (صفير الجوّال آخر الليل).. الآخرون من مثقفي المدينة؛ اثنان منهم من أصدقاء المرزوق القدامى.

تناولت فطوري مع الأستاذ حيدر، ودردشنا بشأن ما تبقى من إجراءات سفره للالتحاق بولديه خارج البلاد.. قال إنه لم يغادر العراق سوى مرة واحدة إلى الديار المقدسة لأداء فريضة العمرة.. كان ذلك في السنة الماضية.. وأعلمني أن له أخاً يعيش في أستراليا مع زوجة إنكليزية اقترن بها في أثناء دراسته الطب بلندن. ويأمل (الأستاذ حيدر) أن يحصل، مع الولدين، على لجوء إنساني هناك. وأراني بعض تخطيطاته، ولوحات صغيرة له منفّذة بالألوان المائية، وكلها تصوِّر الطبيعة. ويظهر فيها، هو مدرس مادة الرسم المتقاعد متأثراً بالمدرسة الإنطباعية.

كان الوقت ضحى حين طرق الباب سائق تاكسي جاء ليصطحبني إلى بهرز اتفق معه مصطفى كريم الذي سيلتحق بنا عند الظهر، في البستان، بعد إتمام بعض شؤونه..

. 2 .

الإطلاقة التي اخترقت الزجاج الأمامي لسيارة التاكسي صفرت بيني وبين السائق قبل أن تثقب أعلى جلد المقعد الخلفي وتختفي وراءه.. كنا ما نزال عند ساحة البلدة المكتظة وحولنا أهم مؤسسات الحكومة المحلية.. انتحى السائق بسيارته جانباً بسرعة وارتباك وأوقفها ونزل. هرع نحونا عدد من رجال الشرطة القريبين، وهم يصيحون؛ سلامات، سلامات. وفيما صوّب اثنان منهم فوهتي بندقيتيهما نحو الاتجاه التي أقبلت منها الرصاصة اتصل الثالث برؤسائه يعلمهم بالحادث وبشخصي بعدما عرّفته باسمي ومن أكون.

لم تكن رصاصة بندقية قنّاصة بل رصاصة رشاش كلاشينكوف مفردة كما أثبتت تحقيقات الشرطة برئاسة الرائد حسن المقدادي الذي وصل بعد دقائق قليلة.. جاء مصطفى كريم على وجه السرعة بعدما هاتفته. وأول ما فعله هو مخابرة إبراهيم البهرزي بالموبايل والاعتذار عن موعد البستان بسبب ما حصل.. كان رأي مصطفى أن الإطلاقة كانت تقصدني، وأنها أخطأت مسارها أو كانت تحذيرية. فيما قال الرائد المقدادي أنها عشوائية أطلقت من جهة البساتين البعيدة وكانت في ربع طاقتها الأخيرة حين اخترقت زجاج سيارة التاكسي وجلد مقعدها الخلفي. فمن المستحيل - حسب تصوّره - أن يصيب رامٍ مهما كان بارعاً زجاج سيارة بهذه الدقة وهي

تبعد عنه بأكثر من كيلو متر ونصف، وأين؟. في منطقة مزدحمة. وبينه وبين الهدف أشجار وسيارات وبشر.. ملتُ إلى تفسير المقدادي، ولم أقتنع أن الحادث كان مدبّراً.. غير أن مصطفى كريم طلب مني أن أستعد لمغادرة المدينة، فلربما كانت حياتي في خطر.

المزعج في الأمر أن مجموعة من القنوات الفضائية العراقية أظهرت بعد ساعة في أشرطتها الأخبارية هذا النص أو ما يشبهه؛ (نجاة الكاتب والصحافي ماجد بغدادي من محاولة اغتيال في بعقوبة صباح اليوم). ولا أعلم كيف وصلتهم الأخبار بهذه السرعة ومن سرّبها؟. عندها انهالت عليّ المكالمات من كل صوب.. من زملائي في الجريدة، من أصدقائي ومعارفي، من أقربائي الأقربين والأبعدين.. ومن فاتن التي راحت تأمرني بعصبية؛ ارجع حالاً إلى بغداد.

ولم أرجع حالاً إلى بغداد حتى فوجئت بمكالمة منها صباح اليوم التالي وأنا ما أزال في فراشي: «ماجد، أين أنت.. أنا هنا، في بعقوبة».

ـ ماذا؟، أنت تمزحين، أليس كذلك؟.

ـ لست أمزح.. تعال خذني.. أنا قرب الكراج القديم.. هكذا قال سائق الحافلة التي جئت بها.

ارتديت ملابسي على عجل وأسرعت إليها بسيارة أجرة.. وجدتها تقف حيث وقفتُ في لحظة وصولي إلى بعقوبة قبل شهر ونصف. من النظرة الأولى عرفت أنها متوجسة وغاضبة.. قالت حتى قبل أن تسلّم عليّ؛ «عنادك هذا لا معنى له.. أنت تعاند للاشيء مثل طفل.. حضّر أغراضك ودعنا نعود إلى بغداد».

أفهمتها أن المسألة ليست كما حكت عنها القنوات الفضائية. وأن الرصاصة كانت ضالة والمصادفة وحدها جعلتها في اتجاه السيارة التي استقلّها.. وأن خبير التحقيقات في مديرية الشرطة أكد هذا بالأدلة الملموسة.. وقلت؛ «أنا سعيد لأنك هنا. وسنمضي النهار معاً لتتأكدي أن الواقع الحقيقي المعيش غير الواقع المصوّر في الميديا.. والآن أين آخذك والمدينة ليست فيها أماكن تستقبل عاشقين مثلنا».. مشينا بين الأزقة والشوارع الفرعية حتى وصلنا إلى مطعم في شارع سارية تقدم قيمر العرب والكاهي عند وجبة الفطور.. كانت العيون الفضولية مركّزة نحونا.. أو نحوها على وجه الدقة.. امرأة جميلة لا تضع الحجاب وترتدي بنطالاً أسود وقمصلة سوداء فيما قميصها البنفسجي يعكس على وجهها رونقاً آسراً. وأين، في بعقوبة التي شبّهها بعضهم في أثناء الاقتتال الأهلي وانتشار الميليشيات المسلّحة بقندهار الأفغانية. قلت لها؛ «لم ألفت انتباه أحد طوال أسابيع في المدينة وها أنت تفضحينني».. أكلنا بشهية وشربنا الشاي، ونحن نتهامس.. قالت؛ «كنت أظن أن الجماعات المسلحة تحتل الشوارع».. قلت؛ «كان الأمر هكذا إلى ما قبل ثلاث سنوات».. سرنا الهوينا على نهر خريسان في فيض ضوء النهار البارد.. عبرنا جسراً صغيراً للمشاة ودخلنا بين الأزقة التي توصل إلى شارع نادي الضباط القديم قبل أن ننزل جنوباً ثم ننعطف غرباً نحو نهر ديالى.. تناهى صوت صلية رشاش بعيد.. قلت؛ «لا عليك. الوضع هنا آمن».. اجتزنا جسر الجمهورية إلى الجانب الثاني للمدينة ودخلنا متنزه ما بين الجسرين، ولحسن الحظ كانت هناك بعض مجموعات الطلبة، فبناية كلية التربية قريبة. جلسنا على مقعد في الشمس واستغرقنا في جدال

مخاوفي وجرّبت مرات عديدة بعد ذلك، حين غدوت شاباً، تسلّق تلال ليست عالية تماماً حتى حسبت أنني شفيت من حالة الخوف من الأماكن العالية، وبقي كابوس ذلك اليوم يلاحقني في منامي سنة بعد أخرى.

ها أنني الآن في الموقف ذاته.. أخرج من فراشي ومن الغرفة.. في طريقي إلى الحمام ألمح الأستاذ حيدر يصلّي الفجر.. أعود إلى فراشي مبقياً الباب مفتوحاً قليلاً كي أتنفس جيداً.. بعد دقائق وأنا أفكر بشناعة هذا الكابوس ينساب صوت الأستاذ حيدر يقرأ آيات من القرآن بصوت رخيم.

- 4 -

اتصل بي فراس سليمان وأنا ألملم أوراقي وأغراضي. وقد نويت أن أعود بعد غد إلى بغداد بعد أن استنفدت وسائلي في الحصول على معلومات جديدة عن المرزوق، إذ يمكن ان أكمل الكتابة هناك في شقتي. القصة فيها ثغرات كبيرة، وأي جديد يمكن أن يفيد، وأظنني سأواجه صعوبة في إعطائها نسقاً مثيراً ومقنعاً.. الخيال في مثل هذه الحالات يقدّم معونة واضحة لكنني لست بصدد كتابة رواية.. الرجل الغامض الذي يتحمل تكلفة هذا المشروع لا يفكر بنص متخيل في قالب رواية بل يريد سيرة حقيقية تعتمد وقائع ووثائق واعترافات.. وفكرت؛ إنه لم يتصل بي منذ آخر مكالمة بيننا قبل الاتفاق.

الساعة تشير إلى الثامنة والنصف مساءً.. صاح فراس منفعلاً:

«هناك شيء آخر.. شيء كان أمام أعيننا طوال الوقت ولم نره.. مفاجأة أليس كذلك؟».

«ماذا؟، أية مفاجأة؟ عمّ تتكلم؟».

«معي شيء لا يُخبر عنه بالموبايل.. سأكون عندك خلال دقائق قليلة».

جاء فراس وهو يحمل علبة حلويات معدنية قديمة تقشّر بعض طلائها وبان عليه الصدأ.. هذه العلبة أذكرها.. كانت فوق كومة من الكتب في

سرداب المرزوق، وسألتُ عنها فراس في اليوم الأول لدخولنا إليه.. رد بلامبالاة: «فيها قوائم الكهرباء ووصولات شراء كتب وأوراق مشابهة أخرى، لا شيء مهم».

مدّ لي العلبة وهو واقف في غرفتي ببيت الأستاذ حيدر.. كان الأستاذ حيدر يقف وراءه ويتطلع بفضول إلى ما سيخرج من العلبة.

«افتحها».

«أخشى أن ينط منها عفريت قائلاً؛ شبيك لبيك».

«نعم، العفريت مختبئ تحت».

وأنا أهم بفتحها انطفأت الكهرباء.. صحت؛ «أرأيتم، سينط العفريت الآن».. ضج فراس والأستاذ حيدر بالضحك.. قال الأستاذ حيدر؛ انطفأت الكهرباء الوطنية وسيشغّلون مولدة الشارع خلال دقيقة..

أُضيئت الصالة مرة أخرى.. فتحت العلبة؛ ثمة حزمة من القوائم والوصولات المختلفة، ورحت أبحث حتى وقعت، في قعرها، على مظاريف ثلاث رسائل، لونها جميعاً أبيض. مظروف عليه عنوان المرزوق واسمه، باللغة الفرنسية، ويبدو أنه لم يصل بالبريد الرسمي. فلا طوابع ولا أختام ثمة. وثانٍ عليه عنوان جانيت في باريس وثالث لا عنوان عليه.. قال فراس: انظر ماذا بداخل كل منها.

أخرجت من المظروف الأول ثلاث أوراق مطوية.. نشرتها.. وجدت ثلاث صفحات مكتوبة على الآلة الكاتبة باللغة الفرنسية.. لا أعرف الفرنسية، لكن الرسالة مذيلة في أسفل الصفحة الثالثة باسم جانيت..

«سنجد مترجماً لهذه».

بسرعة فضضت الرسالة الثانية.. كانت هناك خمس أوراق مطوية. خمس صفحات مكتوبة بالحبر الأسود الدقيق.. الرسالة الثالثة كانت بورقتين بأربع صفحات من الكتابة - وجه وظهر - بالحبر نفسه والرسالتان كلاهما باللغة الفرنسية أيضاً. وهما مذيلتان باسم محمود المرزوق وموجّهتان لجانيت.

«شكراً فراس.. هذا جيد.. حدسي يقول أنك وجدت لي ما يجعلني أرمم بعض الثغرات في قصة خالك».

قال الأستاذ حيدر بعد مغادرة فراس: «كنت أتمنى أن تبقى بضعة أيام أُخر.. أنستَ وحشة البيت أستاذ ماجد.. ابق وسنجد لك في بعقوبة مترجماً عن الفرنسية». أخبرته أن عليّ العودة إلى بغداد وهناك أعرف مترجماً ممتازاً، دكتور من خريجي السوربون. أضفت: «لا أقدر على الكتابة المنظّمة إلا في بغداد.. هذه عادة قد لا تكون جيدة لكنني هكذا. وأنت لم تقصِّر.. أسعدتني رفقتك وصداقتك وكرمك وملاحظاتك». شدّ على يدي وقد بان عليه التأثر ولمعت عيناه وكأنهما ستغرورقان بالدموع.

أمضيت أمسيتي الأخيرة مع مصطفى كريم وأصدقائه.. أقاموا لي، في بستان قريب، مأدبة عشاء عامرة.. كان هناك ما يشبه الكوخ داخل البستان ولم تكن التدفئة جيدة.. غير أن الطعام والشراب والسجال الحار أنسانا البرد، لا بل أشاع الدفء فينا.. نصف الكلام كان عن المرزوق، وخمّنت أن لكل فرد في هذه المدينة قصته، أو يعرف قصة شخص، مع بائع الكتب ذاك الذي لا يعرف أي أحد منهم السبب الحقيقي لاغتياله..

ـ 5 ـ

في نهار اليوم نفسه الذي وصلت فيه إلى بغداد أخذت تاكسياً إلى كلية الآداب في باب المعظم.. موعدي مع الدكتور حسن سرحان في الثانية عشرة.. الطرق مقطوعة بسبب انفجار سيارة مفخخة عند نهاية شارع الجمهورية من جهة باب المعظم.. عبرتْ سيارة التاكسي من جسر السنك إلى جهة الكرخ.. قطعتْ شارع حيفا، ودارتْ من الجسر المعلّق نحو الأعظمية، ومنها إلى الوزيرية.. نزلتُ قرب أكاديمية الفنون الجميلة ومشيت المسافة إلى كلية الآداب. تأخرت عن الموعد أربعين دقيقة.. كان الدكتور حسن ينتظرني في كافتريا أمام الكلية.. اعتذرت عن التأخير. وحكيت له عن مشروع الكتابة عن المرزوق وعن الرسائل.. ناولته النسخ الأصلية منها بعد أن احتفظت بمستنسخات عنها درءاً للطوارئ السيئة.. قرأ أولاً بضعة أسطر من رسالة جانيت، ومن ثم أسطراً أخرى من رسالتي المرزوق.. قال: حسناً، الخط واضح. وأعتقد أنني سأنتهي من الترجمة خلال أسبوع. فلي مشاغلي أيضاً.. اتفقنا أن نعقد جلسة نقاش بعد ذلك، لاسيما أنني أعرف شيئاً من أسرار حكاية المرزوق مع جانيت وتجربته في أوروبا. وربما فهمت سياق بعض الجمل وساعدت في الصياغة النهائية..

نصوص الرسائل مثلما ترجمها الدكتور حسن سرحان:

1. رسالة جانيت

عزيزي محمود

لا أعلم إن كانت هذه الرسالة ستصل إليك أم لا.. التقيت برجل من بغداد هو الدكتور أحمد الشمّري. كان قد أكمل دراسة الطب ويهم بالعودة إلى بلاده. أخبرته عن الطريقة التي يمكن بها إيصال رسالة إلى شخص عراقي لا أعرف سوى اسمه يسكن بعقوبة، وحكيت عنك. قال: أظن أن لا مشكلة.. لي أقارب هناك وشخص بمواصفاته لابد من أنه معروف في مدينة صغيرة مثل بعقوبة..

أكتب مفترضة أنك ستقرأ كلماتي، وستفكر بالرد..

مر وقت طويل.. ثماني سنوات.. أحياناً يخيل لي أن كل شيء جرى في الحلم أو في حياة أخرى منذ زمن بعيد.. وحتى هذه الساعة لا أعلم السر، سر ذلك الانقلاب.. فجأة تغيّر ما حولك وما فيك وتشقلب العالم على وجهه.. في البدء اعتقدت أنك، أنت الماركسي العتيد، حزين على مصير المعسكر الاشتراكي الذي انهار فجأة. كنت ألاحظ مقدار التبدلات التي طرأت عليك بعد التغيير في تشيكوسلوفاكيا. صرتَ أكثر كآبة وقلقاً. ولم يعد الحال كالسابق؛ تفاصيل سلوكك اليومي، مزاجك،

أفكارك، لم تعد ترسم، واستغرقتَ في الصمت.. كنت مضطرباً وقلت لي أن عليك أن تذهب إلى براغ على وجه السرعة.. رفضتَ أن تخبرني بالسبب، لكنني بحدس الأنثى عرفت أنك ذاهب من أجل امرأة وليس في سبيل أي شيء آخر.. عذر مقبول وإن كان يؤلمني في الأعماق. ربما هو أمر شخصي جداً لا تود البوح به.. ليس من حقي إرغامك. أمضيتَ هناك أكثر من شهر، وخلال ذلك لم تبادر إلى الاتصال بي. حتى أنني فكرت بأنك ربما عثرت على من تعشق، على حبك الأول، الحقيقي. وأنك ستمكث معها، وأن سقوط الشيوعية جرى في مصلحتك. وهيأت نفسي لتقبل هذا الواقع الجديد.. تصوّرت أنني فقدتك وقد لن نلتقي مرة أخرى أبداً. لكنك جئت ثانية.. يا للمفاجأة.. ها أنك ثانية في باريس، ولكن بهيئة مريعة.. كنت منكسراً مخذولاً على وجهك إمارات من هو على وشك فقدان صوابه. وفي مرة بكيتَ وأنت تضع رأسك على صدري.. قلتُ لا بأس.. فضفض لي.. قل ما عندك لترتاح.. يبدو أن السر كان أكبر من قدرتك على إخراجه.. كان يقبع في صدرك مثل حجر صواني ثقيل.. ولا أكتمك بأنني شعرت بالارتياح لأنك لم تجد ضالتك هناك.. وقلت ربما لم يعثر عليها، ربما تزوجت من رجل آخر.. ربما اتخذت لنفسها صديقاً جديداً لم تشأ أن تتركه من أجلك.. وألفُ ربما أخرى دارت في خلدي.. قلت؛ المهم إنه عاد وهو الآن هنا معي، يضع رأسه على صدري ويبكي ولا أظنه سيغادر ثانية. ولم أكن أعلم أنها المرة الأخيرة.. وإنك ستنسل في الليلة ذاتها، من غير أن تفسِّر لي، أن تمنحني أي تبرير، أن تقول على الأقل؛ أنا آسف.. ألا تعتقد بأنني كنت أستحق أن تقول لي لماذا؟ وإلى أين؟ وإلى متى؟.

ظننت في البدء، حين تعارفنا جيداً ومضينا في العلاقة بصدق وسلاسة، أنني بت أملأ حياتك.. وأنني منحتك السلوى والنسيان.. شخص من نمطك لابد من أنه عرف نساءً كثيرات، وله حكاياته.. مَنْ منّا ليست له حكاياته بهذا الشأن؟. في البدء قلت لنفسي ربما لقي كل منّا نصفه الحقيقي. ربما سنبدأ كلانا رحلة حياة مختلفة وننسى ما هو شائك ومؤذٍ وغير سعيد في تاريخينا. وألفتك أكثر تفاؤلاً، حتى إنك انغمست في العمل، ترسم وتحكي عن كتابة كتاب.

لأشهر طويلة بعد تعارفنا لم تلمسني.. أتذكر تلك الليلة حين جئتك مبللة من المطر ونمت عارية في فراشك ودعوتك لتلتصق بي، لتدفئني. حتى هذه اللحظة لست متأكدة من أنني كنت أرمي لإغوائك. وضعتك بخبث في حالة اختبار صعبة لكنك اكتفيت باحتضاني من نصفك الأعلى. قاومتَ الكائن الهائج فيك بضراوة. كان توترك وسخونتك يتسرّبان إليّ. وفي جزء من الثانية أحسست على جلدي بصلابة ونزق خاصتك. قلتُ هو ليس فاقداً لرجولته كما تهيأ لي في البدء..لكني تساءلت لماذا؟. قلت في سرّي إما أنه خائف، أو هو شاذ، أو أنني لست من صنف النساء الذي يفضّله.. لم يخطر لي ساعتها أنك كنت هائماً بامرأة أخرى ولا ترغب بخيانتها. ولست أنا سوى واحدة عابرة ستعوفها حالما تلتقي بالأخرى ثانية. غير أن الأمر، لحسن الحظ، سار بشكل جيد بعد ذلك.. وقطعاً لن تنسى ذلك المساء بمرسيليا إذ حلّقنا معاً في فضاء النشوة كما لو كنا نفعل مكررين ما فعلنا منذ سنين طويلة.. جرى كل شيء كأنه مرسوم هكذا على صفحة القدر.. تعرف أنني مؤمنة بالله. أخبرتك أنني أؤمن بإله يحبنا ويسامح ويشفق، ويتدخل لإنقاذنا في اللحظات الحرجة.

فقط إذا كنا نؤمن بصدق كافٍ. على الرغم من أنني لم أرتد الكنيسة منذ مرحلة المراهقة.. كنت تسخر مني. وتتحدث عن الإله الذي في داخلنا. الذي نخلقه في عقولنا.

ما زلت أذكر تلك اللحظة، في يومنا الأخير معاً. عبارتك التي تلفّظت بها بصوت متحشرج.. عبارة لن أنساها حتى الموت.. حين رفعت رأسك عن صدري وكفكفت دموعك قلت: «إن الله يعلم، إنه يعلم».. لم أفهم ماذا تقصد.. فكرت أن الأمر أعقد بكثير مما أتصوّر. وأن هناك قصة لم تحكها لي.. ولا أكتمك بأني ما زلت أشعر بالفضول لمعرفتها..

قلت لي ذات مرة ونحن على ظهر مركب سياحي في السين؛ «أفكر كيف ينتهي الأمر بشخص ما بعد نصف قرن إذ يكون في مكان ما بعيد عن مكانه الأول.. السبب باعتقادي ليس في مجموعة القرارات الصحيحة التي اتخذها بل ما اقترف من أخطاء وحماقات.. وبسبب الآخرين.. الآخرون هم الجحيم.. أفهم تماماً الان ماذا قصد سارتر بعبارته».. قلت لك؛ «أتريد القول أنك في المكان الخطأ مع الشخص الخطأُ رغماً عنك». قلت: «كيف تفكّرين؟. ليس هذا ما أقصد.. لو كان كل منّا حرا تماماً ويتخذ القرارات الصحيحة دائماً والرياح تجري بما تشتهي سفنه ربما ما كنا التقينا.. ولكن أليس من الممكن أن تتقاطع جملة أخطاء وحماقات وتقودنا في النهاية للشخص الصحيح والمكان الصحيح؟».

كنتَ متناقضاً، محيّراً. لم أفهمك قط. وربما أنت أيضاً لم تفهم نفسك.. تلك التجارب كلها والكتب الكثيرة التي قرأتها لم تصنع منك الشخص الذي أردتَ.. قلت لي أنك ابن خيبات أمل كثيرة.. صحتُ

بك: ماذا دهاك، كلنا هكذا. معظم البشر ليسوا راضين عن وضعهم غير أنك تحصر نفسك في نقطة معلّقة في مكان ما من ماضيك لا تريد مغادرتها.. حدّقت في وجهي، بعينين جاحظتين، وقلتَ كأنك تلهث: جملتكِ هذه مرعبة.

رحلتَ تاركاً تخطيطاتك ولوحاتك المنجزة والأخرى التي لم تكتمل.. لم أعرف ماذا أصنع بها.. تخطيطاتك معي، ولوحاتك غير المكتملة وزعتها بين محمد المنياوي وأندريه، ولا أعلم عن مصيرها شيئاً.. بصراحة لم أسألهما، فيما بعد، عنها قط.. أما لوحاتك المكتملة، وهي تسع لوحات، فقد علّقت أربعاً منها في صالة شقتي الجديدة، وأربعاً في غرفة النوم، وواحدة في المطبخ. اكتشفت قبل شهرين إصابتي بسرطان القولون.. كنت بحاجة إلى مبلغ للعلاج فيما ظروفي المادية سيئة.. مررت على تاجر لوحات يعمل في السوق السوداء وأعلمته بأمرها. جاء وعاينها، عرضت عليه ثماني لوحات، وواحدة أخفيتها، فهي لي.. صورتي وأنا عارية وقد رسمتها وروحك تتوهج.. أحياناً يخيل لي أن امرأة أخرى، أو نساء أخريات يختفين في إهابي.. كما لو أنك رسمت تاريخ عشقك من خلالي.. لا بأس بهذا، طالما أنا موجودة.. لا يمكنني أن أكون كل تاريخك.. حتى أنا (وكذلك أي شخص) لا أستطيع أن أختزل تاريخي كله بشخص واحد، بك.. يمكن، فقط، أن يحدث هذا في الأساطير والحكايات الخرافية القديمة.

أعطاني ذلك التاجر اللعوب، في النهاية، سعراً معقولاً.. كان يمكن أن أبيعها بضعف المبلغ لو كانت معي وثيقة تثبت عائديتها لي.. والآن أنا مدينة لك بثمانين ألف فرنك.. إذا ما نجوت وكسبت مثل هذا المبلغ

فسأرسله لك حالاً. أما إذا متُّ قبل ذلك فأرجو أن تغفر لي.. أما أنا وعلى الرغم من الجرح الذي تركته فيّ بهربك اللامسوّغ فقد غفرتُ لك، وسامحتك..

جانيت

8/ 1/ 1997

2. رسالة محمود المرزوق الأولى:

الباهرة جانيت؛ الزهرة التي خذلتها بلؤم في حديقتي البعيدة

أوقاتك إشراق وعافية

أرجو أن يكون مزحة ما ذكرتِه بشأن مرضك.. ليس من الإنصاف أن ترحلي أنت الأخرى قبلي. اثنتان كفاية، فقد وصلت مع موتهما إلى أقصى حدود التحمّل. لا تفعليها أتوسّل إليك.. فإن تكوني كائنة في هذا العالم يخفف عني الشعور المؤلم بالوحدة.. نعم، حتى وأنتِ ما وراء البحر يضعني التفكير بأنك تتنفسين هواء العالم في حالة من الألفة، والتوازن الروحي.. صرتُ أرى الهاوية منذ الآن، مذ قرأتُ رسالتك.. ما أخافه ليس الموت الفيزياوي، بل بلوغ لحظة الصفر، العدم الموحش والجنون..

ثمة امرأة جديدة في حياتي. هنا في مدينتي. لم أسع إليها برجليّ. ما كنت أفكر بمغامرة علاقة أخرى وأنا في خريف العمر. هي التي باغتتني واقتحمت وحدتي. بدأتْ بشراء كتاب (الحب في زمن الكوليرا) لماركيز. (لم أقل لك أن لي مكتبة صغيرة وسط بعقوبة أسستها بعد عودتي

من باريس)، ثم جاءت لتناقشني بموضوع الكتاب، بسرّ الحب الذي لا تنطفئ جذوته حتى بعد نصف قرن. ثم طلبت رقم هاتفي بدعوى أنها قد تحتاج بعض الكتب، ويُفضّل أن تهاتفني لتتأكد من وجودها عندي قبل أن تجيء. وفي ليلة وأنا نصف ثمل اتصلتْ بي.. تكلّمنا طويلاً.. وفي لحظة ما من الحديث اكتشفت، من خلال خبرتي بالعلاقات، أنها تحبني.. تصغرني بثمانية وعشرين سنة.. لا أدري ما الذي أعجبها فيّ.. هذه الأمور كما تعرفين لا تعليل منطقي لها.. حاولتْ ملء بعض الفراغ حولي وفي داخلي، لكنها لم تنجح إلا بشكل محدود. ربما فقدتُ طاقة الحب. ربما لأن المساحات المهيأة لهذا في أعماقي مشغولة تماماً، وليس فيها من متسعٍ لامرأة مثل رباب. اسمها رباب. ولأكن صريحاً؛ كنت بحاجة إليها، ولكن من غير قدرة كافية لأقدّم لها شيئاً تستحقه. كنتُ تعباً من الحب، ولا استعداد لي لدفع ثمن إضافي في الحياة لا أمتلكه. وقد فهمتِ الأمر بعد ذلك.. قالت: على الأقل أنت تحتاج إلى صدر دافئ تريح رأسك عليه ويسعدني أن أؤدي هذا الدور.. كانت على حق.. هذه مقايضة تبدو عادلة. أترينها عادلة حقاً؟.

لستِ مدينة لي بشيء.. لا أقول أني تركت لكِ اللوحات تعويضاً عن نذالة مرتكبة.. أصبحتْ لك أصلاً، صارت ملككِ الشخصي، ساعة فرغتُ منها. هي هديتي التي بلا قيمة كبيرة. فقط لأني أنجزتها في لحظة إشباع روحي بحضوركِ. لستُ واثقاً من جودتها الفنية. ما أنا واثق منه هو أن كلاً منها تحوي مضغة من روحي، وأنها ما كانت لتستوي بالشكل الذي انتهت إليه لولا وجودكِ اللطيف البهي والمنعش معي..

أعلم أني مدين لكِ بتفسير، فما فعلته شيء لا يغتفر، أستحق الجحيم

بسببه.. قد تفاجَئين إن قلت لك أني أحلم بفردوس في حياة أخرى، فردوس هادئ معي فيه ثلاث نساء أنت إحداهن.. أيمكن لرجل أن يعشق أكثر من امرأة واحدة في الوقت عينه، أظن نعم.. ثلاث نساء في جنينة رائعة مع كثير من الكتب وأدوات الرسم. أقصى حد لحلم رجل عجوز مثلي يضنيه ماضيه. شيء غريب أن أعجز في إضافة رباب لنساء الفردوس. ربما لأنها جاءت متأخرة جداً.

ليس هو النوستالجيا وإنما الإرث الثقيل.. ما افتقدته دوماً في حياتي هو الإيقاع، التناسب، التوافق.. كانت الأمور تسير رغماً عني على السكة الخاطئة.. وأنا واثق أنك ستفهمين قصدي إن حكيت لك عن ناتاشا.. نعم مثلما قلتِ، كانت هناك امرأة.. وحدس امرأة ذكية وحساسة مثلكِ لا يعقل أن يخطئ..

التقيتُ ناتاشا مصادفةً في قطار ما، انطلق من براغ إلى تبليتسه. تعارفنا من غير تعقيدات. كأننا كنّا على موعد. كأن قدراً غامضاً جمع بعضنا إلى بعض.. هكذا من حدث بسيط يمكن أن تُحاك قصة تراجيدية.. روسية بيضاء كلّفوا والدها، في الخمسينيات بمهام حزبية واستخباراتية في تشيكسلوفاكيا، وبعد ربيع براغ 1968 اختفى الوالد تماماً عن الأنظار بتهمة مطبوخة؛ التحريفية والتآمر.. وكتحصيل حاصل صارت هي عنصراً مشكوكاً بولائه، وخطراً محتملاً على مستقبل الاشتراكية في العالم.. ولم يبق لها قريب بعد وفاة أمها بالسرطان في العام 1972 سوى عمتها العانس والتي ظلت لسبب أجهله تعيش بعيدة عنها.

لسوء الحظ كنت أنا الآخر، في نظر السلطات الأمنية ببراغ، شخصاً

لا يؤتمن جانبه.. ومارقاً يجب مراقبته. وحين يلتقي شخصان لكل منهما ملف مريب في محفوظات المخابرات فلا بد من أن تكون ـ بنظرهم ـ مؤامرة مخيفة تُدبّر في الخفاء. أسبق لك قراءة كتب كافكا؟. عشت جواً كافكوياً بامتياز. جو القلق والخوف والشك واللايقين.. وكان عليّ ألا أظهر مشاعري الحقيقية أمامها كي لا أرعبها، غير أنها، طوال الوقت كانت مرعوبة.. استدعوها ذات ليلة وسألوها عني. وبعد شهر اصطحبوني إلى بناية كئيبة واستجوبوني.. ربما تكون البناية عينها التي استجوبوا فيها ناتاشا.. سألوني عنها أولاً، ومن ثم عن التحوّلات في معتقداتي. كانوا يريدون أن يفتحوا دماغي لينظروا ماذا فيه. إن كنتُ مؤمناً بالله، إن كنت ما أزال ماركسياً. وأسئلة أخرى مشابهة. توهمت أن الأمر انتهى عند هذا الحد.. وأنهم يجسون نبضنا ليس إلا، فليس لديهم شيء ملموس ضدّي أو ضدّها.. تركونا حتى نهاية الربيع قبل أن يأخذوني من بين ذراعيها.. كنا مستغرقين في النوم وقت الفجر حين خلعوا الباب واندفعوا إلى الداخل واقتادوني شبه عارٍ، معصوب العينين إلى زنزانة باردة مظلمة. أبقوني فيها ساعات طويلة، النهار بطوله، وليلاً أرجعوني إلى الشقة من غير أن يسألوني أو يفسّروا لي مغزى هذا الإجراء الغريب.. وحين وصلنا الشقة دخلوا معي وكانت ناتاشا هناك، لم تبرح المكان.. شاحبة، عيناها زائغتان، وعلى وشك الانهيار.. قالوا لي أمامها؛ شكراً لكَ أيها الرفيق على ما أعطيتنا من معلومات، وآسفون للإزعاج الذي سببناه لك. وجرجروها هي. وأحدهم صفعها والآخر وصفها بالعاهرة الخائنة. التفتت ونظرت إليّ نظرة سريعة لم تلبث سوى ثوانٍ قليلة.. ثانيتان أو ثلاث.. نظرة حشّدت فيها مزيجاً من مشاعر الخوف

والشك والحيرة والاتهام والازدراء.. أوحوا لها، بطريقة قذرة دنيئة، بأني أنا من وشى بها. لفّق لها تهمة ربما عقوبتها الموت لأنقذ حياتي.. وكان عليّ في تلك اللحظة أن أقول شيئاً.. أن أصرخ، أن أعلمها بأنهم كذّابون، وأنهم لم يسألوني أي شيء. ولم أعطهم أية معلومة لأني لا أمتلكها، وأنهم يوهمونها.. لم أتخذ هذا القرار.. ترددت، خفت، جبنت.. لم أفه بحرف واحد..

ومنذ ذلك اليوم اختفتْ ناتاشا، ومات في داخلي شيء وإلى الأبد..

استعدت المشهد الفظيع ذاك ألف مرة، عشرة آلاف مرة.. أردت أن أتأكد مما كان يدور في ذهني، وأية مشاعر كانت تتولاني، في تلكم اللحظات التعيسة الخاطفة، وكيف انعكس ما بداخلي في نظرتي وهي تنظر في عينيّ.. ماذا قرأتْ فيهما؟. كيف فهمت الأمر؟. ومنذ ذلك اليوم وأنا أحاول إقناع نفسي؛ أليست تعرفهم أفضل مني، أليست هي على درجة عالية من الفطنة بحيث لا يمكن أن يخدعها مثل هذه المناورة الغبية التي أدّوها بخسة وحقارة ليخرِّبوا ما بيننا، ليشوهوا صورتي في نظرها منذ تلك اللحظة وحتى تحين ساعة الموت؟. وماذا تراهم قالوا لها هناك بعد اعتقالها؟. أية أكاذيب نسجوها ليجعلوها تعتقد بأن فتاها الذي أحبته ووثقت به ليس سوى جبان رعديد لفّق لها تهماً كاذبة لينجو بجلده؟.

كان من المستحيل أن أعرف أي شيء عنها.. عن مصيرها.. وإن كانت ما تزال على قيد الحياة أم أقدموا على تصفيتها؟. وفي ليلة جاءني أحد أبناء بلدي. واحد من أولئك الذين ارتضوا أن يمتثلوا لما هو قائم.

هو ليس صديقاً بالمعنى الحرفي للكلمة، وثمة شائعة متداولة تقول أنه يعمل لصالح مخابراتهم؟ نصحني أن أغادر تشيكوسلوفاكيا في أقرب وقت، خلال أسبوع على أبعد تقدير، فهناك ما يُحاك ضدي؟. قال: «أنا أودك وأحترمك ولا أرغب أن يصيبك سوء. أعرف أن وضعك المادي جيد وأنك تستطيع العيش في أية عاصمة غربية، اذهب إلى باريس أو لندن أو أمستردام أو حتى نيويورك.. اشترِ خلاصك وهناك ابدأ من جديد. أنت رسام موهوب وقد تجد فرصتك الكبيرة بعيداً عن هذا المكان الكارثي. اتخذ القرار الصحيح، أرجوك».

تخيّلي جانيت أي أسبوع صعب مكفهر كان ذاك، وأية أسئلة كابوسية حاصرتني وأية خواطر لاحقتني في اليقظة والمنام قبل أن أحزم أمتعتي وأهرب.. لوهلة تصوّرت أنهم ينتظرونني في المطار وسيقومون باعتقالي هناك.. لم يحصل شيء من هذا.. يبدو أنهم كانوا يريدونني أن أرحل.. حتى وأنا في الطائرة المحلّقة فوق الغيوم لم أطمئن.. وأخيراً وصلت باريس مع ذلك العبء.. مع ذلك الإحساس بالخيبة والخسران.. منذ ذلك اليوم، بدءاً من نظرة ناتاشا تلك المحمّلة بألف ألف سؤال، وحتى هذه اللحظة وأنا أعيش الهزيمة في داخلي.. وقد حاولتِ أنتِ جانيت بصبر عجيب وتفانٍ وإباء نادر أن تنتشليني من حالتي، لكنك لم تستطيعي.. لسبب بسيط جداً وهو أن ما حصل من عطب لم يعد قابلا للتصليح.. قُضي الأمر.

في باريس بقيت اقتات على قليل من الأمل؛ أن يطلقوا سراح ناتاشا، ولا بأس إنْ كانت ما تزال معتقلة.. المهم أن تكون حية ترزق.. وطالما منّيت النفس بأن تعاود التفكير بروية فيما حصل، وهي في خلوتها.

عاماً لكنه يتذكرني جيداً.. يتذكر لقاءنا الأخير. صافحني بوجه عجيني مترهل اغتصب ابتسامة باهتة. في نظرته انكسار وذل. ذهبنا إلى بار قريب. وكأنه من أجل أن يضمن حماية من نوع ما هرع إلى زاوية يجلس فيها اثنان من معارفه التشيك، لا أعلم عن درجة علاقته بهم.. رجل اسمه ياكوب وامرأة اسمها مايا.. ربما كان اتفق معهما ليستقبلانا بتلك الحفاوة ويدعوننا إلى مائدتهما التي تسع لستة أشخاص.. سألني بعد كأسين من الفودكا: «ما الذي أعادك إلى هنا؟». «اكتشفت أنه أنت». «أنا ماذا؟!». «سبب عودتي إلى براغ». رمقني بعينين قلقتين والتفت إلى حسين اللامي كأنه يستنجد به. ضحك حسين وقال؛ «كأسان من هذا الشراب التاريخي اللاذع تضخان في الدم روح الدعابة».. قلت: «لم أعبر هذه المسافة كلها من أجل جولة دعابات». كان ياكوب ومايا مستغرقين في حديث جانبي هامس، وكنا نحن الثلاثة العراقيين نتحدث بالعربية.

قال أمجد بعد أن كرع كأساً ثالثة: «أفهم ما تريد؟ لست غبياً.. جئت لتتشفى وتنتقم».. «لم أجئ أبداً لهذا.. لست بصدد الشماتة والانتقام». قال حسين: «يبدو أن هناك حكاية مخفية». قلت: «بالضبط، حكاية مخفية جئت لأعرفها.. فقط أريد أن أعرف احكها لي يا أمجد وسأرحل حالاً».. «لم أشِ بك بمقدساتي.. استدعاؤك من قبل جهاز المخابرات كان على وفق خطة خاصة بهم».. «لم تشِ بي، لم أفكر بهذا، وحتى لو حصل فليست هذه هي المشكلة».. «ما زلتَ في شك».. «لا، في حكايتي بُعدٌ لا أظنك على اطلاع عليه».. «وإذن ما الذي جئت لتعرفه؟».. «ناتاشا».. «من هي؟».. «تعرفها، صديقتي التي اعتقلوها ساعة إطلاق سراحي».. «نعم، ماذا عنها؟». «احك لي بقية القصة».

قال أنه ذاهب إلى المرحاض.. تصوّرته سيهرب.. لم يفعل.. عاد بعد دقائق وجلس وراح يحدّق بي بعينين جامدتين.. لثوانٍ قليلة انتابني إحساس عارم بالشفقة عليه. بدا كائناً متهدماً خسر رهان الحياة. وجدت فيه في تلك الثواني توأمي الروحي.. إنه مثلي، ألقى أوراقه كلها ولم يعد لديه ما يراهن عليه.. خطر لي أن أقوم وأخرج من البار إلى الفندق ومن ثم إلى المطار بيد أن شيئاً ما أبقاني ملتصقاً بمقعدي.. بخار الثمل يصعد في شراييني ويغشي جمجمتي.. قررت: إن لم يبادر بالكلام فلن أسأل.. التفت حسين للتشيكيين واعتذر منهما لأننا نتكلم بالعربية.. قالا؛ لا بأس.. ألقى عبارة غامضة ربما من أجل أن يشحنها بقدر من السخرية أننا ربما بصدد تصفية حساب قديم.. ضحكوا هم الثلاثة، فيما بقي وجهانا أنا وأمجد عابسين قليلاً.. بدا وكأن التشيكيين فهما أن الأمر جدّي حقاً.. قالت مايا: «أليس من الأفضل أن ننسى؟».. راح أحدنا ينظر في وجه الآخر، وطغى جو من التوتر والحيرة.. بغتة قال ياكوب: «إن نسينا سيتكرر ما حدث». ضحك أمجد وكأنه يريد تحاشي خصام على وشك الحدوث.. قالت مايا: «وما الذي يجب.. الانتقام؟».. أجابها ياكوب: «لا، بل العدالة.. تصفية حساب مؤلمة مع الماضي، وبعد ذلك فقط يمكننا أن نحكي عن التسامح».

«وهل تظن الأمر بهذه البساطة».

«مهما كان الثمن؟».

«من منّا ليس مسؤولاً.. من منّا خرج سليماً ويرى من حقه محاكمة الآخرين؟».

«هذا ما أقوله يا مايا.. أن نعود لنكون أنفسنا.. أن نستعيد جميعاً ما فقدناه، أو بعضه في الأقل».

«جميعاً، تقصد من؟».

«الضحية والجلاد معاً».

«لقد خسر من خسر، ولا أعتقد أن بمقدورنا استعادة أي شيء».

«ربما، ولكن يمكن أن نعطي معنى ما للخسارات».

«الجدوى؟ أتقصد أن تكون حتى لتلك الخسارات جدوى ما، معنى؟ أهذا ما تفكر فيه؟ عبث في عبث».

«لا، سيكون من العبث أن نترك كل شيء على حاله. فالخسارة حينئذ ستكون مضاعفة وموجعة».

«مثل هذا التفكير يجعل ماضينا يطاردنا أبداً، وسنخسر الفرصة الأخيرة من أجل المستقبل».

«أوتعتقدين أن الفرصة متاحة من غير إعادة النظر وتصفية الحساب».

«ستعيش في هذا السجن، ستبقى عائشاً فيه، لأن لا أحد سيوفر لك الفرصة، لا أحد».

ربما أحس أمجد أن من جاء بهما لينقذاه بطريقة ما خذلاه من غير أن يفطنا.. قال: «اسمع محمود، صدّقني لا أعرف ملابسات القضية كلها، ولماذا أصبحتما هدفاً لهم.. أسرّ لي صديق يعمل هناك أنهم جعلوها تقرأ أوراقاً وقعتها أنت..».. «يا الله.. لم أوقع على أية أوراق».. «بلى ورقة إطلاق سراحك. جاؤوا بشخص وقلّد خطك وتوقيعك.. لا أدري ما الذي كتبوه في تلك الأوراق.. أخذت تبكي وتنكر ما كُتب عنها..

اعتقدتْ أنكَ أنتَ من وشى بها.. أرادوا منها أن تشي بك لكنها لم تفعل.. قالت؛ هذه كلها أكاذيب».

سكت أمجد.. لم يعلق حسين بشيء، بوغتَ بما يُقال..

ـ لدي سؤال أخير، قل لي ماذا فعلوا بها؟. أتعرف شيئاً عن مصيرها؟. هل ما زالت على قيد الحياة؟.

ـ لا.

ران صمت ثقيل.. لم أفهم ما الذي قصده بـ (لا).. إنه لا يدري، أم أنها ميتة. لم أسأله. كأنني أؤجل لحظة جلاء الحقيقة.. قال:

ـ عرفت أنهم عذبوها واغتصبوها. ثم ماتت، لا أدري كيف.. نتيجة التعذيب، أم أنهم أطلقوا الرصاص على رأسها.. لا أدري.

قمت.. قام حسين.. أمجد لم يحرِّك ساكناً.. ظل ياكوب ومايا يحدِّقان فينا باستغراب من غير أن يعلِّقا بشيء.. قلت: «شكرا على الضيافة».. مشيت بضع خطوات مترنحاً.. وضع حسين يده تحت إبطي وقادني إلى سيارته في المرآب القريب. قال؛ «شربت كثيراً، الفودكا خدّاعة».. أوصلني إلى الفندق، ولم يفه بكلمة حول الحكاية التي سمعها عني وعن ناتاشا.. قال وهو يضعني في فراشي: «إلى متى أنت باقٍ؟».. «سأرجع إلى باريس غداً» عانقني مودِّعاً وخرج.. شعرت بوحدة مريعة.. أحسستني بحاجة إلى البكاء.. إلى النوم.. عصتني دموعي.. واستولى علي الأرق حتى الصباح.

ها أنك تعرفين الآن

محمود المرزوق 5/ 2/ 1997

3. رسالة محمود المرزوق الثانية

الآسرة جانيت

أوقاتك عافية وسعادات

لا أقدر إلا أن أتخيلك وقد برأتِ من مرضك اللعين.. ذلك الجسد المعجون بالمحبة والطيب والنور، الباذخ الجمال، المنذور للحياة، لن يتعايش أبداً مع خلايا الخراب والموت. سيحاصرها ويلفظها. أعرف كم أنت قوية، تمتد جذورك إلى منبع الطاقة الأصلية، حيث عصارة الإرادة، وسر الكينونة، ومغزى البقاء.

لست أواسيك، أو أعزّيك، أو أتقصد إسماعك كلمات لطيفة تخفف عنك وقع بلاء مقدور.. لا، ولست ذلك الشيخ الخرف الذي يهذي بكلام رومانسي مبتذل، في الوقت غير المناسب، ولا يفقه معناه. ولست ذلك المادي الخائب المرتد إلى كهوف الخرافة.. هنا يا جانيت أتكلم عن إرادة الحياة.. الإرادة الخليقة بصنع المعجزة.

في يوم بعيد، شباط 1963، وقع انقلاب عسكري في العراق. لن أدوّخك بالحديث عن ملابسات التاريخ السياسي لبلدي. سأحكي لك عن حدث معين..

من استولوا على السلطة اعتقلوا كل من عدّوه مناوئاً حقيقياً أو محتملاً.. وبطبيعة الحال سيتصدر اسمي قائمة الخطرين، أنا اليساري المفضوح وإن لم أنتمِ إلى أي جناح من أجنحة اليسار الناشطة حينذاك. لم يودعوني سجن مدينتي. أخذوني إلى سجن في بغداد اسمه قصر النهاية، ومن هناك إلى سجن معسكر الرشيد. وذات ليلة اقتادوني

مع مئات آخرين إلى محطة قطار غربي بغداد العالمية.. وضعونا في عربات حديدية معتمة، أرضيتها مغطاة بالقار، وهي خاصة بنقل البضائع والحيوانات.. أغلقوا الأبواب بإحكام وسار بنا القطار... كنا خائفين، نحدس أنهم يبيتون لنا أمراً مأساوياً. يرومون إبادتنا بطريقة شيطانية. ومع صعود الشمس ارتفعت درجة الحرارة وبدأت أجسامنا تعرق وازددنا شعوراً بالاختناق. تعالت أصوات الأنين والتأوهات والحشرجات. وأخذنا نلعق عرق أجسامنا. في تلك اللحظات العصيبة تخاطف أمام أعيننا شبح الموت. كان قرارهم أن نموت.. وقررت في دخيلتي أن أحيا.. قلت مهما حصل لن أموت ولابد من أن أحكي عن هذا كله لامرأة ما، في يوم قادم بعيد، في مكان آخر. أبقيت لهب الحياة مشتعلاً في قلبي. للأسف لم أحك هذا لناتاشا، ولم أحكها لك وأنا معك، ولا لأية امرأة عرفتها.. ها أنذا أحكيها لك الآن.. أحكي القصة كلها بعد أن عرفنا تفاصيلها الأخرى فيما بعد.

أمر ضباط الانقلاب السائق الذي لا يعلم شيئاً عن طبيعة حمولته أن يسير ببطء شديد جنوباً إلى مدينة السماوة. في محطة المحاويل، في منتصف الطريق، توقف القطار للاستراحة.. يبدو أن رجلاً جاء وأخبر السائق بحقيقة حمولته البشرية.. صُعق السائق واتخذ قراراً غاية في الشجاعة أن ينطلق بالسرعة القصوى لينقذ حيواتنا.. وصل القطار محطة السماوة قبل ثلاث ساعات من الموعد المخطط لوصوله، وهجم الناس الذين تناهى إليهم خبر حالنا، على العربات وحطموا أقفالها وأخرجونا.. ورحنا نتساقط على الأرض من الإعياء والعطش..

قضيت في سجن نقرة السلمان الصحراوي خمس سنين، وأطلقوا

سراحي بعد وقوع انقلاب آخر.. غير أنهم لم يتركوني وشأني.. كنت المرشح الأول في أية قائمة اعتقال أعدّت للتو، حتى وإنْ لم أرتكب أي أمر يخل بالنظام الذي حدّدوه. اعتقلوني مرتين قبل أن أهاجر إلى براغ. وحصل معي ما حصل في براغ وقد شرحت لك عنه في رسالتي السابقة. وما لم أخبرك به هو أنهم احتجزوني في مطار باريس بعد نزولي من الطائرة في أول مرة أدخل فيها فرنسا.. حقق معي رجل ضخم. لم أكن أتقن من الفرنسية إلا القليل، لذا استجوبني بالإنكليزية.. كان ينظر لي شزراً وكأنه على وشك اكتشاف أمر جاسوس أو إرهابي خطير، وتبين في النهاية أن الأمر لا يعدو كونه شبهة غير قائمة على أساس صلب، تشابه بالأسماء أو شيء من هذا القبيل..

أعتقد أن فيّ شيئاً يستفز رجال الأمن والشرطة وحراس النظام في كل وقت ومكان، يستنفر فيهم حاسة الخطر. كما لو كنت أبث شعاعاً منذراً من مساماتي، فأنا أبداً مصدر إزعاج وشكوك وتهديد دائم. يبدو أنهم لم يكونوا يحبون رائحتي إذا وافقنا بعض العلماء على أن ما يجذب وينفر في الشخص هو رائحته. فقد تتوافق الروائح أو تتنافر، وعلى وفق ذلك تتكوّن مشاعرنا ووجهات نظرنا تجاه الآخرين.. لحسن الحظ كانت رائحتي مقبولة عند النساء. كثيرات من النساء. وإلا كيف تراها تكون حياة الرجل إذا ما اشمأز من رائحته جنس الإناث.. يبدو أن رائحتي كانت مقبولة أيضاً عند الحيوانات، لاسيما الكلاب.. لم يهاجمني كلب في أي يوم.. حتى تلك الكلاب الشرسة كانت تستكين حالما تقترب مني.. وحدهم رجال الأمن والشرطة يكرهون رائحتي.. حين أضع هذه الحقائق، إن كانت حقائق مثبتة فعلاً بأدلة مادية، أجد أن

في الأمر مقايضة عادلة.. ماذا لو كان الرجال والنساء والكلاب يقرفون من رائحتك.. ألن تغدو الحياة عندئذ جحيماً لا تطاق. لو كان الحال هكذا معي لانتحرت..

انظري من أين بدأت وإلى أين انتهيت.. ألا يؤشر هذا انفصاماً ذهنياً. خللاً في الجملة العصبية. أو في الأقل صدعاً وتشوشاً في التفكير؟. من عاش حياتي لا يمكن أن يكون سوياً تماماً.. وشخصياً أشك بوجود أناس أسوياء في هذا العالم.. الأسوياء جداً لابد من أنهم مملّون يعيشون دوماً عند نقطة الصفر..

سأقول لك الآن ما لم أقله جادّاً إلا في القليل النادر. ربما لم أقله لغيرك. أقول: أحبك، لطالما أحببتك.. تشبثي بالحياة.

كان يجب أن أكتب لك هذا وأرسله قبل سنتين.. ها أنني أبادر متأخراً مرة أخرى.....

محمود المرزوق

في 18 كانون الأول 1998.

***

لم أستطع التأكد من أن المرزوق أرسل رسالتيه إلى جانيت أو لا.. لا أعلم فيما إذا كانت هاتان الرسالتان هما النسختين الأصليتين، أم أنه قام بنسخهما ليحتفظ بهما ويراجعهما بعدئذ، ربما ليتأكد من أنه لم يخطئ في مخاطبتها.. وقد يكون أرسل الأولى وتردد في إرسال الثانية. الثانية التي كتبها بعد سنة وعشرة أشهر بعد الرسالة الأولى.. أم تراه خشي أن

يرجعها البريد إليه لأن المرسل إليها غير موجودة في هذا العنوان.. لأنها، ببساطة، قد تكون ماتت.

عنوان جانيت الآن معي.. ماذا لو أبعث إليها الرسالتين، فهما مكتوبتان لها أصلاً.. سأشرح لها، بافتراض أنها ما زالت حية ترزق، كيف وصلتا لي بعد مقتل المرزوق.. سأبين لها بعض تفاصيل مشروع الكتاب وأطلب منها أن تمدّني بأية معلومات أو صور يمكن أن تثري المادة الخام التي حصّلتها عن المرزوق قبل المباشرة بالكتابة.

الفصل السابع

كنت في الحمّام بعد يوم عمل شاق حين غرّد الموبايل.. وكنت ما أزال عارياً حين عاينت الرقم المتروك على قائمة المكالمات الفائتة.. ولأنه رقم غير معلّم باسم؛ رقم مجرد حاف مثل أي رقم، قررت ألا اتصل بصاحبه.. الساعة تجاوزت العاشرة ليلاً، ارتديت بيجامتي وأطفأت المصابيح ولم أبقِ إلا على مصباح الصالة الذي يسرّب بعض الإضاءة إلى غرفتي من خصاص الباب. دخلت فراشي اليوم مبكراً على غير العادة، ثم قمت لأغلق الهاتف كي لا يزعجني صاحب الرقم الغريب بالاتصال ثانية وأنا نائم. وقبل أن أصل إلى الجهاز الموضوع على الكومودينو، قرب اللابتوب، اهتز بالرنين وظهر الرقم نفسه.. ماذا لو كان شخصاً مزعجاً؟ لم لا أقفل الخط وأغلق الهاتف؟. غير أني بضغط خاطر غامض فتحت الاتصال:

ـ ألو...

ـ مساء الخير أستاذ ماجد.

الصوت أنثوي، رقيق، مغناج، يقطر عذوبة.

ـ مساء الأنوار، تفضّلي.

ـ آسفة للإزعاج، أخشى أنك من الذين ينامون مبكراً كالعصافير.

ـ في الغالب أنا كالبوم أبقى معظم الليل صاحياً.. مَن حضرتك؟.

ـ أنا رباب.

وكدت أفلت الجهاز من يدي.. طفرت وأشعلت مصباح الغرفة وجلست على كرسيي الدوار.

ـ أهلاً آنسة رباب.. كدتُ أيأس من إمكان الاتصال بك.

ـ كنت مسافرة، لم أتحمل الفاجعة. أخذت إجازة مرضية وسافرت. لم أتمارض، بل مرضت حقاً.. محمود كان كل شيء في حياتي. سمعت أنك تؤلف كتاباً عنه.

ـ وهو كذلك، وأحسب أنك يمكن أن تعينينني.

ـ أخبرني مصطفى كريم، ولكن لا أدري بم يمكن أن أفيدك.

ـ بالمعلومات.. إن كان لديك شيء مكتوب يخصه.. رسائل مثلاً.

ـ أعطاني قبل اغتياله بأسبوع دفتراً، الحقيقة هو لم يعطني إياه، وجدته في درجه، وقلت أريد أن أقرأه وكان يجب أن أُرجعه له لكنه......

وتناهى لي عبر سماعة الموبايل صوت نشيج خافت.

ـ أرجوك آنسة رباب.. أقدّر حجم ألمك.

تحشرج صوتها:

ـ الدفتر كبير ولكنه للأسف لم يكتب فيه سوى أقل من أربعين صفحة.. هي خواطر وذكريات، وهناك أشياء لم أفهمها.. كلمة أو جملة

يكررها، جمل لا يربط بعضها ببعض أية رابطة. غير أن هناك أشياء أخرى جيدة. قال لي: ليس هذا هو الكتاب الذي أردت تأليفه، إنه لا شيء. لا أصلح لهذا الشغل.

ـ هذا أروع خبر أسمعه منذ رجوعي من بعقوبة.. كدت أعتذر عن إكمال العمل. ثم اعتقدت أنني سأخرج بكتاب باهت.. يمكن أن تفيدني هذه الصفحات كثيراً. أنا واثق.

ـ طيب، وكيف أوصل لك الدفتر.

ـ أنت في بعقوبة.

ـ نعم.

ـ سأجيئ إلى بعقوبة. سأكون غداً في مكتب مصطفى كريم عند العاشرة صباحاً. سأحاول الوصول مبكراً.

ـ لا أستطيع مقابلتك قبل الثانية عشرة، فأنا معلِّمة ومرتبطة بدوام رسمي.

ـ آه، تذكرت الآن.. سمعت شيئاً من هذا القبيل عن عملكِ..

ـ وماذا قالوا غير ذلك؟.

ـ الحقيقة لا شيء. مصطفى كريم تحدّث عنك ولم يخبرني أنك معلِّمة. حتى محمود لم يشر في يومياته إلى عملك.. تحدّث عن شخصك فقط. لا أذكر من أخبرني؟.

ـ أكان يكتب يومياته؟. أعثرت على يوميات له؟.

ـ نعم، وأيضاً لم يكتب فيها إلاّ أشياء قليلة ناقصة، لكنه تكلم عنكِ.. سأريكِ ما كتب عن علاقته بكِ. ولكِ الحق أن توافقي أو ترفضي أن أنشر ما يخصكِ، كما هو، أو بعد تعديل.

ـ سأكون في المكتب بعد الظهر.

ـ طيب، تصبحين على خير.

بعد ظهر يوم من نهاية آذار ببعقوبة؛

بعباءة إسلامية سوداء، أزرارها كبيرة، وعليها منمنمات بيض وذهبية تدخل المكتب. تنفلت، من حافة إيشاربها الأسود خصلة صغيرة من شعرها البني على جبهتها. وجنتاها ناتئتان، وبياض بشرتها مشرّب بحمرة رمّانية شفيفة. فمها صغير بشفتين تورمهما شهواني. وقوامها ناحل، رشيق.. أنا ومصطفى كريم نقوم فتصافحنا.. في عينيها بريق الذكاء والجرأة.. تجلس وتترقرق دموعها.. يواسيها مصطفى، وأقول أنا كلاماً باهتاً عن القدر والمصير وسوء الوضع العراقي.. تعطيني الدفتر المحشور في ظرف أسمر كبير.. أريها المقاطع التي يشير بها المرزوق إليها في يومياته.. تقرأ.. تشهق، تمسح دموعها بمنديل ورقي.. ترشف قهوتها على مهل.. تقول:

ـ انشر كل شيء كما تريد، قل ما قاله عنّي.

ـ بأي اسم، باسمك الصريح؟.

ـ لا، باسم رباب.. ليس هذا اسمي في بطاقة الهوية.. رباب هو الاسم الذي اختاره لي.. العالم يعرفني باسم آخر لم يعد مهماً.. اسمي

ما سمّاني به.

تخرج.

***

الدفتر من فئة المئتي ورقة وبالحجم الكبير. ذو غلاف كرتوني أملس وثخين يحتشد بأزهار التيوليب الصفر.. أفتحه.. على الصفحة الأولى عبارة (كشف حساب). وليس هناك ذكر لاسم المؤلف. أقلب الورقة.. تطالعني كلماته بخطه الأنيق وبالحبر الأسود.. الصفحات كلها مكتوبة بالقلم السوفت الأسود، وعلى الوجه فقط من كل ورقة.

هذه كلماته أعرضها لقرائي من غير أن أجري عليها أي تعديل أو تحريف أو إعادة صياغة سوى ما تقتضي سلامة اللغة، وأخطاؤه اللغوية والنحوية قليلة جداً. وربما فاتتني بعض الأخطاء فلست خبيراً فطحلاً في النحو والإملاء.. إذن بقيت كتاباته كما دوّنها.. لكنني حذفت بعض المقاطع والصفحات.. لم أحذف أشياء مهمة.. ما حذفته لا يغير من فحوى ما كتب. ففي سبيل المثال حذفت صفحة كاملة مملوءة بالشتائم.. حذفت نصف صفحة كتب فيها (ههههههههه) طويلة.. حذفت مقطعاً يصف بها رجلاً متنفذاً بعبارات بذيئة.. حذفت بعض الأسطر هنا وهناك والتي حسبتها كسراً لسياق السرد والمعنى، أو هي عبارات مفككة دوّنها في لحظات مزاج سيء. وأبقيت على تسلسل الكتابات بنسقها المتداخل كما اختارها هو. أي أن زمن الأحداث ليس خيطياً تتابعياً. أتراني قمت بما هو حق لي؟. نعم.. ألست المؤلف؟.

***

كشف حساب

«أولئك الذين يفسرون الهَوْل بجملة واحدة قصيرة أو ببضع جمل مختزلة معتقدين أنها اليقين النهائي الأصفى، ويشعرون، بعد ذلك، بالراحة لأنهم فهموا الأمر جيداً، ما هم إلا حمقى مغفّلون».

***

«ما نعتقد أنه الوضوح التام واليقين النهائي في نظرنا النرجسي إلى أنفسنا ليس سوى نتاج لأوهامنا وعمانا الإيديولوجي».

***

«الشروط الأولى للفكر الذي يمكن الاعتداد به هي أن يكتنفه بعض الغموض، ويثير الشكوك، وينبش بوقاحة، ويعترف بنقصه!».

***

أتوه في ذاكرتي، ذاكرتي الخؤون، ذاكرتي التي تعرّضت للخيانة.. الطرقات كلها التي سارت بي.. الألوان التي رسمتني، الأحزان والبلايا والضحكات والدموع والشهوات، والمرافئ التي أنقذتني من نفسي، الظلال والروائح والغبار. والحبيبات اللائي هجرنني.. القرى والطيور والأنهار.. السحاب والسواحل والمراكب. الأصدقاء، النادرون كالعنادل البيض، وأولئك الجوف. القطارات التي سرتُ بها في شعاب العمر. والوجوه التي رسمتني.. ألف وجه لي ووجهك وجهي.. وجهي وجهكِ.

***

لطالما حلمت.. سعيت لكتابة كتاب عنوانه «كشف حساب».. كشف حساب مع النفس قبل الآخرين، قبل العالم.. كانت عندي مسلّمة واحدة هي أن أكون صادقاً.. من هنا كانت الصعوبة تظهر.. بعد سيل من الجمل، من البوح والاعترافات أرجع وأتساءل إنْ كنت متأكداً مما أقول!!.. حتى أنني، أحياناً، رحت أشك فيما إذا كان لهذه الكلمة من معنى، أي معنى.. قلت هذا لجانيت ذات ليلة باريسية قارصة.. ليلة ثلج وضجر.. أنت تتحوّل.. قالت لي.. أردت أن أصطاد في عينيها نظرة الاحتقار كما إلى مسخ، ولم أعثر إلا على اللطافة والدفء.. وأمسكتني من يدي وقالت: «الحب، ألا تؤمن به؟. إن كنت تؤمن فأنت تؤمن بوجود الصدق».. قلت؛ «الأمر أعقد يا جانيت.. أشعر بالعجز، ذهني مبلبل موحش كسجن انفرادي».. «حين تعرّفت عليكَ للمرة الأولى حدثتني عن ماركس وألبير كامي وعن الحياة.. خلتك لوهلة منقذاً أقبل من الطرف الآخر من العالم».. «قولي نبياً زائفاً أعزل». ضحكت وقالت: «هذا من تأثير منتصف حالة السكر». ولم أقل شيئاً آخر. كنت على وشك أن أضيف: نحن أبناء الأخطاء والمصادفات.. وحسناً فعلت إذ لم أقل، إذن لكنت ظهرتُ بمظهر بائس أخرق.. سكتُّ، ثم قلت: «هيا بنا».. كنت معها في مقصف الوردة الذهبية.. لست على يقين من وجود مثل هذا المقصف في الشانزليزيه، أم كنا في مقهى بمونبارناس. أم في شقتي بالحي اللاتيني؟. جانيت عيناها حشيشيتان وأنفها قصير.. هذا ليس عيباً.. لو كان أنفها أكثر طولاً لبدت أقل جمالاً.. هي لم تكن خارقة الجمال.. كانت لها رقبة دقيقة طويلة وشعر قصير.. شعرها يميل إلى الكستنائي.. كان خشناً قليلاً. لا، فقط أقل نعومة من شعر ناتاشا..

لم يكن لها صدر عامر كما لناتاشا. نهدان صلبان جميلان. كانت نحيلة، جلدها الأبيض بارد.. أتحدث عن اللون لا الحالة الفيزياوية.. كانت جانيت دافئة، قطعة من الدفء.. نظرتها ابتسامتها صوتها ملمسها.. لماذا ألح بالوصف.. أهذا يهم.. كنت أحب رسمها وهي عارية.. أحب جسمها بالأحرى، قوس خصرها، بطنها الضامر، ساقاها الباسقتان.. لم أقل لها هذا قط.. آه، هناك شيء آخر.. الشفتان ممتلئتان، لا تكاد العليا تلامس السفلى إلا حين تأكل.. كانت تأكل بفم مغلق.. لم تكن شرهة.. كنت أعشق شفتيها، وأرغب بتقبيلهما دائماً.. ولم تكن ترغب بهذا دائماً.. لذا لم أكن أتمادى.. ربما لا تكون الكلمات وافية بالغرض حين تريد وصف امرأة تركتها منذ سنوات.. هربت منها.. ولم أترك حتى رسالة.. خشيت ألا أكون صادقاً ولم أفكر كم جرحتها.. قصة قديمة.. هي جرح آخر.. واحد من جروحي الكثيرة التي لن تندمل.. لم أشر إلى بعض النمش أيضاً على وجنتيها.. وشامة صغيرة على نهدها الأيمن، أم هو الأيسر.. امرأة قصية كما في حلم، كما في رواية قرأتَها قبل زمن بعيد، نسيتَ عنوانها لكن لم تزل تتذكر البطلة.. أو ما تظن أنك تتذكر، إذ من يضمن سلامة الذاكرة؟. كنتُ أكن احتراماً شديداً لذلك الجسد.. كنت في أثناء الرسم أشعر بالامتلاء، بالاكتفاء. بأنني في حضرة ما هو بهي ومشع وساحر.. هذا الحضور السخي والحر والشفاف واللطيف والنبيل لما هو إنساني.. عرّفني عليها أندريه.. أندريه رسام بورتريهات.. يمضي ساعات في حديقة اللوكسمبورغ ليقنع السياح برسم وجوههم مقابل مبلغ ليس بالكبير.. أراني ذات مرة وأنا في شقته تخطيطاً لوجه أنثوي.. علّقتُ ربما بدافع المجاملة: «جميلة».. قال: «سأعرّفك عليها».. «على

من؟». «على جانيت».. عرّفني عليها بعد شهرين.. كنا في معرض لرسام صديق خلاسي من بورتوريكا، يكتب الشعر أيضاً.. جانيت كانت تمسك بكأس عصير وتتحدث مع شخص كهل.. «جانيت أعرّفك على صديقي محمود المرزوق المعجب بوجهكِ».. ارتبكتُ وكدتُ أقول؛ أنا تحدثت عن الرسم لا عن الوجه وصاحبته. غير أنني لم أقل.. قلت: «كلاهما جميل، الوجه والبوتريه».. الرجل الكهل الذي بصحبتها مضى إلى شأنه وبقيت مع جانيت.. تحدّثنا عن الرسم قليلاً.. قالت إنها تشتغل موديلاً ليس للرسامين الكبار بل الهواة، وأولئك الذين لم يحققوا نجاحاً كبيراً.. قلت ضاحكاً: «أنا واحد من هؤلاء القوم».. ضحكت وقالت: «ربما لستُ ملائمة لهذا الدور، أليس كذلك؟». أجبتها: «على العكس، أنت تملكين وجهاً معبّراً، كم أود أن أرسمك».. وأعترفت بأنه ليس لدي مشغل مستقل، وإنما أرسم في شقتي، «إن لم تكوني تمانعين».. «أبداً».. وجاءت في الأسبوع التالي.. لم أطلب منها خلع ملابسها.. رسمتها وهي جالسة على كرسي وخلفها ستارة باللون الفستقي.. كانت تلبس ثوباً ليمونياً قصيراً ضيّقاً بزيق يكشف أعلى انحناءة صدرها ونقرة نهديها.. أذهلني نحرها الرقيق، كأن ماء الحياة يجري عبره.. ركزت على هذا الجزء من جسمها وأنا أرسمه.. لم نكمل في اليوم الأول.. بعد ثلاث، أو هي أربع جلسات، أنهيتُ اللوحة.. قالت إنها جميلة.. لم تصل إلى حالة الدهشة وهي تنظر إلى اللوحة كما أوهمني غروري.. كانت تبتسم وأصبت بخيبة أمل.. ولم أكن أريد أن تنتهي العلاقة عند هذا الحد، واكتشفت لاحقاً أنها لم تكن تريد كذلك أن تخرج، بعد أن أخذت أجرتها، من باب شقتي الصغيرة وإلى الأبد.. وخرجنا إلى مطعم متواضع

والعقائد الجامدة والمسمومة والتطرف والإعلام الديماغوجي والدعاية السياسية الخدّاعة والمصالح الفردية الضيّقة.. غضب ووشى بي.. في التحقيق أنكرت هذا.. قلت صاحبي لم يفهم قصدي.. ما قصدته هو أن الصراع الطبقي يتجلى ويعمل خفية من خلال الفاشيات والمافيات والعقائد الجامدة والمسمومة والتطرّف والإعلام الديماغوجي والدعاية السياسية الخدّاعة والمصالح الفردية الضيّقة..

«سأفترض أن ما تدّعيه هي الحقيقة، كن حذراً». قال لي المحقق وهو يطوي أوراقه ويخفيها في حقيبة جلدية متقشرة ويدعني أخرج من بناية المخابرات.. كان السوس قد نخر عميقاً في المؤسسات البيروقراطية هناك.. لكنني خفت.. بعد هذه الحادثة تولاني القلق.. ومع أية طرقة أو قرع جرس كان يتهيأ لي صورة رجال رسميين جاؤوا ليقتادونني إلى المجهول، وكنت أبحث عن ذريعة للمغادرة، للهرب.. ثم حصلت أشياء وخرجت مضطراً.. جئت باريس وهرّب لي عمّي مبلغاً هو بعض حصتي من أملاك أبي في بعقوبة.. استأجرت شقة في الحي اللاتيني وجعلت منه ملاذي ومحترفي.. غير أني بقيت غير متوافق مع عالمي.. الشيء الوحيد الذي طاوعني هو شيطان اللغة.. في بغداد تعلمت الإنكليزية بدورات في المعهد البريطاني.. في تشيكوسلوفاكيا لم أحتج إلى أكثر من ستة أشهر لأتكلم التشيكية جيداً، ولسنة لأكتب بها.. ولأني حلمت دوماً بباريس حاولت تعلّم الفرنسية في براغ.. دخلت دورة تطويرية ما، واشتريت بعض الكتب، ولم أحتج في باريس لأكثر من سنة لأقرأ بالفرنسية فلوبير وبروست وناتالي ساروت.. قال أندريه؛ الجزء المسؤول عن اللغات في دماغك أكثر تطوراً من بقية الأجزاء..

أندريه كان متوافقاً مع أشيائه، مع مديات طاقته.. كان يعرف حدوده.. لا أجزم أنه لم يكن يحلم بالمجد، بإنجاز كبير، بفرصة وحظ وأفق ينفتح على حين غرّة.. لكنه كان يعمل في إطار ممكناته.. يعقد الصفقات الصغيرة وينجح.. لم أكن مثله.. كنت رومانتيكياً أسترجع عوالم باريس ما بين الحربين. أغمض عيوني واسترسل في أحلام اليقظة.. باريس في سنواتها الجميلة.. أولئك الكتّاب والفنانون من العالم كله.. طلاب العلم، ورجال الصحافة، والمناضلون الماركسيون، والقادمون من المستعمرات، والنهلستيون، والسورياليون، والوجوديون، والحداثيون والتجريديون، والأبيقوريون، والطهرانيون، والآبقون والمنحرفون والمدمنون على المخدرات وشذاذ الآفاق والأفّاقون والسكارى المفلسون والقوّادون والمثليون والعاهرات، كل أولئك يعيشون في سلام مع بعضهم بعضاً، في تناغم روحاني وحضاري خلاّق.. فضاء مبرقش، صاخب، حيوي، سخي، مبهر، ضاج بالأضواء والألوان والنساء والخمور والسجالات والكتب والموسيقى والرقص والأزياء ومعارض الرسم والمنحوتات والسينما.. جنة على الأرض.. سعادات معروضة على الأرصفة.. ووصلت باريس هارباً من براغ.. لم أحتج إلى أكثر من أسبوع واحد لأكتشف أن الزمان غير الزمان والحال مختلف.. لم يكن هناك في مقهى فلور ألبير كامي وسيمون دي بوفوار وجان بول سارتر.. رأيت فقراء حقيقيين؛ عرباً وأفارقة ولاتينيين وآسيويين، وحتى فرنسيين شقر.. ولمحت متشردين ومتسولين، وعاهرات قادمات من كل بقاع الأرض؛ شابات وفي سن الكهولة.. وتلمست في أكثر من مناسبة نظرة الازدراء العنصرية عند بعضهم. وبدا من الصعب على كثر

من المهاجرين أن يتكيفوا ويجدوا فرصتهم. وسمعت عن أحياء بؤس تحكمها عصابات تكتظ ببشر من شمال إفريقيا.

تعرّفت على أندريه في مرسم يملكه فنان مصري اسمه محمد المنياوي.. محمد المنياوي التقيته في مقهى وهو يخط اسكيتشاً على ورقة بيضاء.. لم أكن أعرف أحداً في باريس.. خمّنت بسبب سمرته وبروفايله ذي الشكل الفرعوني أنه مصري.. اقتربت منه وقلت: «أنت مصري؟». «أيوه».. «أنا عراقي، رسام مثلك».. انعقدت بيننا صداقة سريعة.. أخبرته كيف أنا في باريس الآن.. وحدّثني كيف هو في باريس الآن.. كان ناصرياً محبطاً سجنه السادات سنتين لنشاطه الهدّام كما جاء في ديباجة القضية.. وحين خرج من السجن سمحوا له أن يطير باتجاه أوروبا.. كان قد قرر عدم العودة، وكانوا يعرفون أنه لن يعود، ولم يكونوا يريدونه أن يفعل.. كان مصدر صداع للأمن.. محمد جاء من المنيا كما قال لي إلى القاهرة في العام السبعين من القرن العشرين عند رحيل عبد الناصر وشارك في تشييعه وبقي حتى سنة 1984، لم يعد قط إلى المنيا.. وصل أسبانيا وعاش في ملقا سنتين قبل أن يذهب إلى فينيسيا، ومن إيطاليا سافر إلى فرنسا بالقطار وها هو هنا.. يقول ساخراً: حيث أصل لا أفكر بالرجوع.. بالخلفيات.. أذهب أماماً دائماً.. وحتى النهاية. «وأين تأمل أن تكون النهاية؟». «ليس مسألة أمل بل كيف تشاء الظروف.. أتخيل نفسي في سيبريا يوماً ما مع أولاد وأحفاد المنفيين المبعدين من العهدين القيصري والستاليني، في قرية محاصرة بالثلج موحشة وأنا في أرذل العمر.. أنظر إلى الأمام حيث ينتظرني الملاك عند الباب».. يضحك.. أنا أيضاً ينبغي أن أضحك.. الضحك يفيد الصحة

النفسية، يفيد عافية الروح والبدن مثلما يزعم الأطباء ومحمد المنياوي..

في مرسمه قدّمني محمد لأندريه.. لم يكن أندريه يحب الثرثرة عن الفن والرسم.. واختار بدلاً من ذلك أن يعمل.. مرة قال لي حين وجدني ملولاً خائب الرجاء: «ربما أنا وأنت لا نختلف كثيراً عن هؤلاء الذين يبيعون لوحاتهم بمئات آلاف الفرنكات.. قد تكون أنت أو أكون أنا أفضل من بعضهم، من واحد منهم على الأقل، لكن عليك أن تعرف أن هناك سوقاً ودعاية وحظوظاً وفرصة واحدة لا تتكرر ربما ستتاح لنا يوماً وربما لن تتاح أبداً.. ومن الحكمة ألا نحرق أيامنا في انتظارها لئلا نحترق».. أندريه باريسي صميم ابن ملازم فرنسي أسره النازيون وأعدموه، وكان هو في عمر السابعة.. أمه امتهنت التمثيل في المسارح الصغيرة، وقدّمت عروضاً في سيرك متنقل لمدة تاركة ابنها الوحيد عند خالته.. وماتت على اثر جرعة زائدة من الماريغوانا.. «يوم ماتت كنت في الثالثة عشرة.. لحسن الحظ كانت هناك خالتي»..

... بخالته.. لماذا أعرّج على هذه التفاصيل التي ربما أكون أختلق بعضها عن أندريه وعن المنياوي.. حسناً، كانا صديقين جيدين لي في ذلك الوقت.. كان أندريه متزوجاً ونصحني ألا أتزوج من جانيت وأكتفي بالصداقة. ولم يكن محمد المنياوي متزوجاً وكاد يقنعني بالاقتران بهذه الفرنسية التي ستدعم وجودي في بلاد الأفرنج إذ من يضمن ماذا سيحصل غداً؟.

***

أنا، ساعة الضحى، كمن شرب قنينة من عرق رديء مغشوش.. شيء

ما ثقيل يكلكل على الدماغ كالطين. شيء زيتي كثيف لزج وفاتر يسد المسالك، قنوات النفس ويغمر خلجانها.. يخلخل عمارة المنطق.. يجعل التفكير يتعثر، يتخربط، يتجعلك، يتفتت، يتناثر.. صداع بكامل منطقة الرأس، هيجان في المعدة، غثيان يصل أقصى أقاصي الروح.. كم أود أن أتقيأ.. أن أدلق ما في جوفي من مرارات وخطايا ورماد وإرث خرب وزمن ميت وأوهام.. خارجاً من زوبعة كوابيس أستيقظت على وقع أصوات عالية.. ضجة في الشارع، على غير العادة.. ولا رغبة عندي في أن أمشي أربع خطوات وأزيح النافذة وأنظر.. أنظر إلى داخلي.. أنا مريض، وأرغب بالبكاء والصراخ ولا أستطيع.. أمشي إلى الحمام، أتقرفص، أحني رأسي على حوض المرحاض، أضع أصبعي في حلقي، أضغط بنهايته على أول منحدر البلعوم.. عووو عععععععع، أكاد أختنق، تدمع عيناي، ثم يتفجر سائل أدكن مرّ عفن.. كما لو أنه ينبثق من الأسفل، أسفل القاع الأخير.. لو أنتهي من هذا القرف، هذا الوجع، هذه الكتلة من الموات.. لو أتخلص من هذه الجثة المدفونة فيّ.. لو استرجع الكائن الغض المعافى ذاك الذي كنته قبل ثلاثين سنة.. يأتي أندريه مصادفة.. كان ماراً في الشارع وصعد إلى الشقة.. شقتي في الطابق الثاني، أنت مريض.. يأخذني إلى المستشفى.. يقول الطبيب؛ لست تعاني من تسمم كحولي أو غذائي.. الفحوصات لا تدل على وجود أعراض مرض محدد، لعل حالتك نفسية.. نعم، نعم.. تأتي جانيت ومن ثم محمد المنياوي.. لابد من أن أندريه هاتفهما.. يبقيان معي حتى العصر.. أقراص صغيرة سحرية، اثنان أو ثلاثة، تذهب بثقل الرأس والبطن، أراني مضعضعاً.. يخيّرني الطبيب بين أن أرقد الليلة في المستشفى أو أرتاح

في البيت.. لا أطيق المستشفيات، هي مثل دوائر الحكومة في العراق، مثل السجون، مقبضة، كئيبة، موحشة.. أخرج.. يودعني المنياوي وأندريه عند باب المستشفى.. نأخذ أنا وجانيت سيارة تاكسي إلى الحي اللاتيني.. تصعد معي إلى الشقة.. أشعر بالخواء، بالوهن، باللاجدوى.. وهي تغطيني تقترح جانيت أن نسافر بعد أسبوع إلى نيس حيث تقطن أمها.. أنت بحاجة إلى تغيير. هذا الروتين ممرض.. تستلقي إلى جانبي.. تلصق جسدها بجسدي.. يغمرني حرارة بدنها.. تمطر في الخارج.. امتلئ بالحزن.. طوفان من الحزن يغسلني، يطهّرني، ينظّف روحي.. أشدّها إليّ... أذوب... أغفو.

في اليوم التالي أسأل المسيو إيمانويل صاحب متجر البقالة في الأسفل عما حصل البارحة.. المسيو إيمانويل طويل، بكرش بارز، ويشبه شارل ديغول.. يهز رأسه: «ماذا حصل؟». قلت له: «كانت هناك ضجة وأصوات عالية، شجار أو حادث سير أو شيء من هذا القبيل»..

- لا، لم يحصل شيء.. لا أظن.. البارحة.. متى؟..

- وقت الضحى..

- وقت الضحى؟!، لا لم يحصل شيء، أخشى أنك كنت تحلم مسيو مرزوغ.. يقهقه المسيو إيمانويل....

***

بالقطار ذهبنا إلى نيس.. قالت جانيت؛ أمي ستتفاجأ بقدومنا.. ألم تبليغها؟.. لا، لو خابرتها ربما قالت أجّلي سفرتك إلى الصيف.. ماذا لو

لم تكن في البيت.. ماذا لو كانت منشغلة بأمر ما ولا ترغب باستضافة أحد.. ماذا لو طردتنا.. ماذا لو، ماذا لو.... كانت جانيت تنظر من النافذة، لم تلتفت إلي.. قالت؛ وأين المشكلة؟ في حال إن حصل أي من هذا الذي تقول سنبيت في فندق أو موتيل ونرجع إلى باريس غداً أو بعد غد.. كانت أمها هناك.. استقبلتنا ببرود.. لا تبدو عليها علائم شيخوخة حادة.. صافحتني من غير أن تنظر في عيني.. كانت تنظر إلى جانيت وفمها مزموم.. فمها الشهواني الذي يشبه فم جانيت.. سألتْ إن كنا نريد أن نشرب أي شيء.. شربنا القهوة.. بعد ساعة جاء رجل في عمرها.. متين البنيان، صحته جيدة.. لم يرتح لوجودنا.. اغتاظت جانيت.. همست في أذني؛ «أمي لا تتوب، تتصرف كمراهقة».. «أليس من حقها؟». «هذا الرجل ماكر وسيء».. «تعرفينه إذن».. «أعرف الشيطان الذي في جوفه».. «منذ متى؟».. «منذ كنت طفلة».. «وأبوك».. «من يدري كيف مات أبي؟»..

أنا وجانيت نتغدى في مطعم.. لا نعود إلى منزل أمها.. تتخابران.. تتشاجران.. تقول لي؛ «هي في الخامسة والستين وتظن نفسها في العشرين».. «طاقة الحياة والرغبة لا ترتبطان بعمر محدد».. «أنت لا تفهم، لو كان أي شخص آخر لما اعترضت».. «أكانت تخون أباك معه».. لا تعليق.. «وأبوك أيعرفه شخصياً؟».. «هو صديقه».. «كان يعرف».. «كان يتألم بصمت».. «كان ضعيفاً».. «هذا ما كان يغضبني فيه».. «...........». «كنت أكرهه أحياناً وأشفق عليه أحياناً.. مات فجأة ولم يبلغ الخمسين.. سكتة دماغية».. «لماذا لا يتزوجان، أقصد أمك وهذا الرجل، قلت ما اسمه؟ مسيو دانييل؟».. تنظر إلي متعجبة

كأنها تقول؛ يا لك من غبي.. أقول لها؛ «أفهم».. تقول بعصبية؛ «أنت لا تفهم، لا يمكنك أن تفهم».. لا ألحّ عليها.. حين تريد أن تبوح بسر ما لن يردعها شيء. وحين لا تريد لن يجبرها حتى هتلر وزبانيته.

نتسكع في المدينة، نجلس في مقهى.. نشرب كأسي نبيذ.. نتعشى في مطعم للأكلات السريعة.. نمشي ميلين إلى الفندق.. في الفندق تقول لي؛ انس الأمر.. أن نكون معاً في غرفة فندق وحدنا يجعلني في حالة توتر واضطراب.. هذا لا يشبه حالة أن تكون معي في شقتي.. سرير واحد عريض في الغرفة.. تخلع ملابسها وتدخل الحمام.. تستحم.. أستحم بعدها.. نحن مرهقان.. تحكي لي عن بعض المفارقات التي مرّت بها وهي تشتغل موديلاً.. ذات مرة رمى رسام شاب فرشاته وحاول أن يسحبها إلى الفراش.. صفعته.. جلس يبكي.. توسل إليها من أجل أن تمنحه جسدها.. «حرنتُ مثل فرس غاضبة، وكدت أرفسه بين فخذيه.. كان وسيماً، بجسم رياضي جميل ورائحة جسم مثيرة. ما كنت لأرضى بهذه الطريقة البربرية.. لم يكن فرنسياً، ولا أوربياً.. كان يحمل بين أعطافه تاريخاً تعيساً من الحرمان».. أسألها فيما إذا لم يكن عربياً: «لا، كان من باكستان.. في اليوم التالي اتصل بي واعتذر.. لم أقف ثانية أمامه عارية أو غير عارية.. لا لأنني بت أخافه.. كان من المستحيل أن يعاود فعلته.. كنت أعرف هذا وأعرف أنه يريد أن يبرهن لي أنه سيكون مهذباً في المرة القادمة.. قلت له؛ لا عليك، هناك ألف واحدة أخرى يمكن أن تقبل الوقوف أمامك وحتى الذهاب معك إلى الفراش.. ابحث وستجد»..

تسرد لي قصصاً وتضحك.. تريد تسليتي.. ربما لتقول لي أنها ليست

رخيصة كما يمكن لخيالي الشرقي أن يوحي لي.. أو لكي تنبئني بأني أختلف عن ذاك الشاب الآسيوي.. وفي النهاية تنزع روب المنشفة التي ظلت تلبسه وهي تشرب القهوة وتحكي. تلتقط ثوب نوم شفاف، لونه مشمشي، قصير، من حقيبتها وترتديه.. لا تبقي تحته أي شيء، وتندس تحت اللحاف.. ألا تريد أن تنام؟. أدخل الفراش ببيجامتي، إلى جانبها.. أتعمد ألا ألمسها.. تدير ظهرها إلي.. تقول: احضني من الخلف هذا سيجعلني أنام مثل طفل.. أحضنها من غير أن أجعل جزئي الأوسط يلتصق بجزئها الأوسط.. هناك مسافة متأينة بيننا قد تصل إلى خمسة سنتمرات أو عشرة.. مكهربة وقاسية.. أجاهد ضد هذا الوحش المنتفض فيّ.. آه، يا للسرعة التي غفت بها.. ينتظم تنفسها.. ألبث كما أنا لا أتحرك مليمتراً واحداً.. هي لا تفعل.. لا تلبث كما هي.. تتحرك بعد أن تبدأ تحلم.. تحرّك وسطها نحو وسطي.. كيف لي أن أغفو ودمي يسخن، يزداد سخونة، يندفع بقوة في الأوردة، في الشعيرات الصغيرة من فروة رأسي وحتى باطن قدمي.. لعلها ليست نائمة. لعلها تفتعل هذا كله.. إما أن أشدها بقوة الآن لتستيقظ أو أنسحب برفق.. أنسحب برفق.. أتقلب.. أفكر بألف شيء.. ألف شيء كي لا أفكر بها وهي قريبة إلى هذه الدرجة.. مع الفجر أنام.

***

تصرفت جانيت أبداً بعفوية مدهشة، مربكة، بثقة لا تُضاهى بالنفس.. بطريقة تضعني، دوماً، أمام المرآة.. كنت صديقها.. قالت: الوحيد الآن.. لا تخذلني، فقط لا تخذلني، لا تكسر قلبي.. وبعد نيس لم يمر يوم واحد من غير أن تأتي لرؤيتي، أو تهاتفني، أو تطلب مني اللقاء في مكان ما.. أو

أن نكون معاً على موعد نقضي بعض الوقت الطيب في مدينة الملاهي، أو نشاهد فيلماً سينمائياً، أو نتناول العشاء في مطعم هادئ صغير على وقع الموسيقى.. لكنها لم تدعني إلى مسكنها قط.. كنا في الخارج غالباً، وفي منزلي لأرسمها أحياناً.. رسمتها في أكثر من عشرين لوحة.. وكان قد مرت سبعة أشهر حين حدث الأمر بتلقائية للمرة الأولى، كأننا كنا بانتظار هذا الظرف.. هذه الساعة الموعودة، المرسومة بماء الفضة على صفحة القدر.. كنا في مرسيليا، في غرفة فندق، وأقبلنا على بعضنا بعضاً كما لو أننا فعلنا هذا مئات المرات من قبل. قلت لها: كسرنا الحاجز.. قالت: لم نكسر أي حاجز لم يكن هناك من حاجز.. وافقتها ولم أقل لها أن الحاجز كان ذلك الوهم في داخلي.. كان الحاجز حائطاً افتراضياً في جهتي.. كنت أراه وأخشى ان أتخطاه.. قالت؛ «ليس هو الحاجز بل لأن الوقت لم يكن قد أزف بعد. كنا نبحث عن لحظة توافق مناسبة. عن الهارموني. عن نقطة التناسب، أوه أنت فنان وعليك أن تعرف هذه الأشياء أفضل مني».. كانت هي تعرف هذه الأشياء أفضل مني.. كانت تتمِّمني، ترمِّم نواقصي، تخلقني من جديد.. وأحسبني وقعت في الحب. للمرة الثانية بعد تركي للعراق أقع في الحب. للمرة الثالثة مذ ولدت أقع في حب حقيقي.

أهو الحب؟. بعد سفرة مرسيليا المشبعة بالنشوة صرتُ غيري وانقلب بي الحال.. موجة دافئة رخيّة تصعد في الأحشاء، تتكسر بلطف، كما الضوء، عند الضلوع، تعود مرة أخرى، فأغمض عينيّ وأتمنى أن تكون هنا، معي. أهذا هو الحب؟. تأتيني مساءً، من أجل مشاهدة عمل مسرحي لموليير.. ندخل مع حشد برجوازي أنيق، ونخرج

مثل أي زوجين لطيفين. نأكل السمك في مطعم صغير أضواؤه خافتة، والموسيقى تغمرنا فأمسك يدها، أضغط عليها.. ترنو إليّ بعينين تضجان ببريق النشوة، تبتسم.. هي عاشقة، ولم أقل لها بعد؛ أحبك. كأنني أخاف التورط بوعد ملزم، أنا الذي أفزع من الالتزامات. لكن الحال الآن غير الحال.. أكاد أهمس؛ أحبك، أقرأ في عينيها؛ أظنكَ لن تقولها أبداً. ولم أقلها لناتاشا، ولا أدري إن قلتها للمرأة الجرح في زمن مراهقتي الأحمق الذي امتد حتى سن الخامسة والعشرين. لعلي لم أقل هذه العبارة التي أُستهلكت من كثر الاستعمال عبر عشرة آلاف سنة هي عمرالحضارة.. أقول؛ لعلي لم أقلها لامرأة. وأخشى أنني، لحظة أنطق بها أكون تحت وطأة انفعال مؤقت، موهوم، ولا أعنيها.

* * *

أتأمل ياقوت الغروب على صدر البحر تقطعه امرأة مشيتها الملول تذكِّرني بطائر التدرج.. حمّالة صدرها بيضاء وتنورتها طويلة بطيات واسعة زمردية اللون، وقميصها مبروم وملفوف حول رقبتها، قميصها الذي ظننته بنفسجياً.. خلتها تائهة، أو تنتظر شخصاً ما يبدو أنه لن يأتي، أم تراها نصف مجنونة.. لو أدارت وجهها نحوي سأبتسم لها. وقد تسألني؛ ماذا هناك، لماذا تبتسم؟. سأقول لها؛ أنت جميلة، تذكِّرينني بطائر التدرج. ستقول؛ أمجنون أنت أم شاعر؟. سأقول؛ نصف من هذا مثلك، ونصف من ذاك مثل هنري ميشو.. هي لا تدير رأسها، تواصل السير. أمكث ساعة أخرى والشاليه يفرغ كأنني بانتظار عودتها.. إنْ عادت سأناديها وأكلِّمها، لكنها لا تعود..

لست واثقاً إن كان هذا المشهد واقعياً تماماً، حصل في الزمان والمكان الفيزياويين. أو متخيلاً كلياً مرّ في خاطر حالم يقظة مهووس، أو حلماً رأيته، مثلما يرى النائم، في زمن غابر منسي.

***

ناتاشا من أصل روسي.. من روسيا البيضاء تحديداً.. في رحلة لي بالقطار إلى مدينة تبليتسه الشهيرة بجمالها ومياهها المعدنية، وجدتني أجلس إلى جانبها.. ظلت، لفترة طويلة، تنظر عبر النافذة.. كنت أشاركها النظر أحياناً والحقول تسيل خضراء متموجة رائقة على مدّ البصر.. تتهادى غيوم بيض خفيضة، وتمرح الكراكي عند الخلجان.. أختلس النظر، كل خمس دقائق مرة، إلى صفحة وجهها الطفولي الهادئ وشعرها البني المسترسل بنعومة على كتفيها.. فكّرت أنها لا تستمتع بالمناظر.. تبدو حزينة كغزالة ضلت طريقها في مرج لا يؤتمن.. جميلة.. وكنت أحياناً أحرِّف نظري عن الكتاب مراقباً أصابعها الطويلة الرخصة تنقر بها على الجزء العاري الصقيل من فخذها.. تنورتها حمراء قصيرة، وقميصها أبيض.. أو بالعكس.. لا أستطيع الجزم.. كان هذان هما لوني ما ترتدي في ذلك النهار الصيفي المشمس.. وكنت أقرأ في كتاب.. حتى منتصف المسافة لم نتبادل كلمة واحدة.. التفتت إليّ، نظرتها حريرية، لطافتها آسرة. وسألتني بنبرة كالهمس، ناعسة، مفرطة الأنوثة، عن لغة الكتاب.. اعتقدتْ للوهلة الأولى أنني فارسي. كانت أخبار الثورة الإيرانية تترى تتناقلها وسائل الإعلام. قلت هي رواية لكاتب عربي اسمه جبرا إبراهيم جبرا.. عنوان الرواية (البحث عن وليد مسعود).. عمّ تتحدث؟. عن الحب والألم والضياع.. فاجأتني بالسؤال؛ أليس هناك

الموت أيضاً.. قلت؛ نعم، حين يكون هناك الحب والألم يكون هناك شبح الموت متربصاً.. قالت إنها فكرت حين كانت مراهقة أن تمتهن الكتابة: «كتبت أشياء مضحكة قبل أن اكتشف أنني لم أُخلق لهذا». لم تكن ذاهبة من أجل الاستجمام بل لأن عمتها مريضة هناك.. «هي قريبتي الوحيدة في تشيكوسلوفاكيا بعد وفاة أبي». نزلنا في محطة تبليتسه.. دعوتها لشرب فنجان من القهوة في الكوفي شوب القريب.. لم تمانع.. تهيأ لي أنها تحاول التأخر عن الوصول إلى حيث تسكن عمتها.. ليست سعيدة بهذه الزيارة.. قالت: «أنا في العادة لا أثق كثيراً بالأجانب»..«أنت نفسكِ أجنبية».. «إلى حد ما، فقد ولدت هنا».. «والآن ما الذي جعلك تثقين؟». «لا أدري».. ورغبت أن تغيّر مسار الكلام.. «ماذا تفعل في هذه البلاد؟».. «أنا منفي، هارب بجلدي منذ زمن بعيد.. شهادتي الجامعية في الفن، أرسم أحياناً وأدرِّس أحياناً.. وأنت؟».. «أنا، وضعي أقل وضوحاً من وضعك.. أبي كان من الطبقة الوسطى للسياسيين الروس، كان حزبياً وأرسلوه إلى هنا منتصف الخمسينيات لمهمات خاصة، ولدت أنا في 1955.. عشت طفولة مريحة.. بعد ربيع براغ مات في ظرف غامض.. قل لي لماذا أثق بك؟».. «تكلمي عن أمر آخر إن كنت لا تريدين الحديث عن نفسك».. ما كان بمقدورها الكلام في أمر آخر.. قالت؛ «لا يبدو أنك شخص سيء. ولأني أؤمن بالمثل؛ اتبع قلبك وقلبي مطمئن لك. ثم هناك الخبرة. أعرف الأشخاص المريبين والسيئين. أشعر وكأننا متشابهان».. كانت جريئة وذكية ودقيقة حين تحكم على الأشياء.. «أمي ماتت بعده بثلاث سنوات ورعتني عمتي.. هي عانس ونصف مختلة في الثالثة والسبعين».. «لماذا لا تفكرين بالعودة إلى وطنك الأم».. «فكرت، قد

يكون الأمر هناك أسوأ».. «ما عملك، أقصد كيف تعيشين؟». «أنا عاملة في مصنع للألبسة العسكرية الجاهزة».. «لم تكملي دراستك».. «بلى، أنا خريجة مدرسة مهنية»..

كانت تعرف المدينة جيداً.. أخذتني إلى فندق صغير اسمه الأكاسيا في شارع هادئ لا أذكر اسمه الآن.. أكان تاليا، تانيا، تينا. شيء من هذا القبيل. على بعد بضعة مئات من الأمتار من العمارة التي فيها شقة عمتها.. كتبت رقم هاتف شقتها في براغ على الصفحة الأخيرة من رواية جبرا.. «اتصل بي إن شئت».. أعلمتني أنها تسكن مع ثلاث أخريات من زميلاتها العاملات وكلهن من بلاد أخرى: «اثنتان من ليتوانيا وواحدة قوقازية، وكل منا لها وضعها الإشكالي.. نحن بطريقة أو بأخرى موضوعات تحت المراقبة.. ربما لا.. لا تخف».. «لست خائفاً»..

عدت في العاشرة إلى الفندق بعد ساعتي تجوال في شوارع المدينة وساحاتها.. فوجئت بها جالسة في الصالة تنتظرني. كانت ترتدي تنورة سوداء وتي شيرت بلون حبّات الرمان. تنبهت للمرة الأولى إلى جمال صدرها.. ربما لأن الـ (تي شيرت) ضيق كفاية لإبراز استدارة نهديها وامتلائهما.. قالت: «إن كنت لا تريدني معك، سأعود».. «على العكس، لقد أنقذتني.. كنت ضجرا ولا أعرف كيف يمكنني قضاء بقية الليل بعدما نمت طوال ساعات ما بعد الظهر».. خرجنا لنتسكع معاً.. سألتني فيما إذا كانت معي نقود كافية، إذن يمكن أن ندخل مرقصاً ونشرب شيئاً. في مقصف مزدحم شربنا البيرة ورقصنا قليلاً. ومن ثم أخذتني إلى بيت عمتها.. تبعتها من غير اعتراض.. كانت عمتها نائمة.. الشقة صغيرة بغرفتين وما يشبه الصالة ومطبخ وحمام.. قادتني إلى الغرفة الثانية.. كان

هناك سرير لشخص واحد.. «أظن، سيسعنا».. وافقتها.. منذ تلك الليلة صرنا صديقين..

***

جمال ناتاشا يوجع، يترك أثراً غائراً في الطبقات السفلى..

جمال ناتاشا لا ينبث من وجهها، من جسدها، من مشيتها أو ضحكتها أو صوتها أو غنجها، بل من هذا كله.. يشع من حضورها الأنيق الرائق المبهج، والمربك.

***

لوّنت ناتاشا حياتي.. انتشلتني من شبكة العبث، اللاجدوى، اليأس.. ها هي واحدة لا تشبه أية أخرى من تلك اللواتي عرفتهن في مناسبات عابرة في السنين التسع الماضيات.. امرأة يمكنها إحداث زلزال حولك تعيد معه ترتيب أشياء العالم. تمنح الغبطة والاكتفاء. نورانية رحبة سخية كأنها خرجت من بين دفتي رواية لتولستوي. أو من عمق لوحة لـ(غويا).. عدت معها ذلك الطفل الممسوس بالدهشة. ذلك المراهق الذي تجعله ابتسامة حبيبته يختنق فرحاً. ذلك الشاب الذي يؤمن بلامحدودية فرص الحياة. وأيقنت بأني واقع في الحب. هذه العبارة المبتذلة التي استهلكتها الألسن عبر آلاف الأعوام تعود لتغسل عنها الصدأ، وتغدو كما في فجر البشرية نضرة يانعة نظيفة مترعة بالعصير الحلو.. كأن عاشقاً ينطق بها للمرة الأولى: أنا واقع في الحب.

لكن؛ أتراني حقاً مهيئاً لمثل هذا الانقلاب.. هل أمتلك الطاقة

المناسبة لحب امرأة مثل ناتاشا؟ أهو موسم الهجرة المؤاتي إلى جنان الأنثى؟. أيدعنا الآخرون الذين من المحتمل أن يكونوا جحيماً في ظروف معينة ننعم ببعض الحرية التي لا تتجاوز على حقوق وحريات أي أحد؟. لم تخطر هذه الأسئلة على بالي في أيام المسرّات تلك.

لبثنا في ذلك الحضن الدافئ، هل أقول الرحم الدافئ؟! تسعة أشهر.. تسعة أشهر هي زمن استواء البويضة المخصبة جنيناً ومن ثم طفلاً مؤهلاً للخروج إلى زمهرير العالم. وإلى أنْ لاحت في أفقنا نذر الزمهرير. ففي ليلة مكفهرة عالية الريح ردت إحدى رفيقات سكنها على التلفون وأنا أطلبها: «غير موجودة، أرجوك» وأغلقت الخط.. كانت خائفة. ذهبت إلى شقتها والعاصفة تكاد تتخاطفني وتلقيني إلى البحر.. البحر البعيد حيث لا بحر في براغ. لا بحر في بلاد التشيك كلها. وطرقت الباب. فتحته التي خاطبتني في التلفون.. كانت تتلعثم وقالت اذهب أرجوك، رُح، لا تسأل عنها ثانية..

- أين هي؟.

- أخذوها..

أخذوها.. وشعرت أن الكرة الأرضية تندفع في الفراغ الكوني لتصطدم بكوكب عملاق وتتفتت إلى مليار مليار قطعة.. وبات الألم يتركز في معدتي، وتصعد سخونتها المريرة إلى صدري وبلعومي.. وأنا أتصور بأنها النهاية وأنني لن أرى ناتاشا مرة أخرى أبداً.. غير أنها اتصلت بي في اليوم التالي.. لم تتصل بالتلفون، جاءت إلى شقتي وقالت: «أطلقوا سراحي عند الفجر. وحين جئتك أحسست أن هناك من

يتبعني.. آمل أن أكون ضللته.. أظن أنه كان ورائي بمسافة عشرين متراً حتى دخلت متجراً وخرجت من باب خلفي ثم دخلت زقاقاً فمتنزهاً ودرت حول نصف المدينة قبل أن أصل إلى هنا.. احترس فطوال الليلة الفائتة كانوا يسألونني عنك. ليس عنك فقط، لكن نصف أسئلتهم كانت عنك».. قلت لها: «ربما لم يكن أحد وراءك.. وإنما كان بالقرب من هنا بانتظارك.. والآن هو يراقبنا بطريقة ما». ولاحت على محيّاها إمارات الرعب.. استدركتُ: «لا تخافي.. سيعطينا الخوف إشارات خاطئة، ويقودنا إلى حيث هم».. وجعلت تبكي.. احتضنتها ومسحت دموعها، قبّلت عينيها: «ربما ليس هناك من أحد.. لم نر أحداً مشكوكاً بأمره.. لسنا متأكدين.. اجلسي واحكي لي.. حين تكون المسألة واضحة أمامنا بإمكاننا عندئذٍ اتخاذ القرار الصحيح».

في وضع ملتبس عابث وجنوني مثل هذا من المستحيل اتخاذ القرار الصحيح. من المستحيل التنبؤ بما يفكر به الآخرون، وما الذي يريدونه على وجه التحديد. اتفقنا أن نقلل من لقاءاتنا. وأن نتجنب المكالمات الهاتفية التي هي مراقبة قطعاً.. وكنت خائفاً عليها وعليّ.. لم أكن أعرف فيما إذا كنت أنا هدفهم، أم هي، أم كلانا معاً.

سألوها عن طبيعة علاقتنا، ولماذا كنا في مدينة تبليتسه معاً قبل تسعة أشهر، وكيف تعارفنا. فيما إذا كنت أتكلم في السياسة، فيما إذا كنت أنتقد النظام الاشتراكي، فيما إذا كنت معجباً بالغرب. فيما إذا كنت أتصل بأناس مريبين.. فيما إذا.. فيما إذا.... وقبل أن يدعوها تخرج من تلك البناية الكالحة، من تلك الغرفة الخانقة، ذكّروها بـ «من تكون، ومن أبوها، ولماذا هي هنا». ثم هرّب لها الشاب ذو الصوت المائع،

كما وصفته، ملاحظة عابرة في اللحظة التي كانت فيها تريد إغلاق الباب وراءها: «طبعاً لا نريد أن تقطعي علاقتك به.. أنتما حرّان بالذي تفعلان مع بعضكما. ولكن عليك أن تأتي إلى هذه البناية حالما تلاحظين ما يقتضي أن نعرفه.. لا تلعبي بخبث.. نحن لا نحب الذين يلعبون بخبث».

قلت لها لأهدئ من روعها: «أعتقد أن هذه إجراءات وقائية.. ليس هناك من شيء معين.. هم فقط يستبقون الأحداث..».

- حين يتخيلون شيئاً أو يتوهمونه يتعاملون معه على أنه واقع. ويتخذون قراراتهم؛ وقد يكون السجن الطويل، أو التصفية الجسدية، استناداً لذلك.

- أنت تبالغين.. تتخيلين وتتوهمين.. لا أقول أنهم ملائكة... اسمعي، ننتظر شهراً أو اثنين وينسون.. لديهم ألف قضية أهم من هذا.

- أنت لا تعرف شيئاً.. اكتشفت الآن أنك لا تفهم حقيقة ما يجري.. ليس لديك حس الخطر.

* * *

بعد شهر استدعوني أنا الآخر.. الوقت ما بعد منتصف ليلة رائقة حادة البرودة، ولم أكن نائماً بعد.. ثملٌ قليلاً وبوعي صافٍ.. طرقوا الباب.. كانوا ثلاثة.. قالوا تعال معنا، نحن من الشرطة.. لم يُدهشني ارتداؤهم الملابس المدنية فهم ليسوا من الشرطة العاديين.. لم أعترض.. لو لم يسبق هذا قضية استجواب ناتاشا لكنت سألتهم عن هوياتهم أو ماذا يريدون مني؟ لم أسألهم.. كنت أعرف أن ثمة خيطاً يربط بين هذا

الاستدعاء - أليس هو اعتقال - وبين استدعاء ناتاشا قبل شهر.. رحت معهم.. الاثنان الأكثر ضخامة منهم، في سيارة الموسكوفج، وضعوني في الوسط بينهما. الثالث الضئيل الجسم راح يسوق في شوارع شبه خالية. لم نتحدث طوال الطريق.. كان الشاب ذو الصوت المائع بانتظاري مثلما أسمته ناتاشا.. كان أحمر الشعر كذلك. عيناه زائغتان، ربما بسبب النعاس. وفمه رخو بشفتين رقيقتين. هذا ما لم تخبرني به ناتاشا وهي تصفه لي.

فاجأني بالسؤال: «قل لي لماذا تعتقد أنك هنا؟». أعانتني درجة الثمل الخفيفة في أن أقول من غير خشية: «أعتقد أن في الأمر خطأ ما..». كان ماكراً، قال: «لا أعتقد أنك تعتقد أن في الأمر خطأ ما.. نحن لا نخطئ.. نحن محصّنون ضد الخطأ بأمر إلهي.. قل لي سيد محمود المرزوق هل تؤمن بالله؟». «لست متديناً.. لا أعرف شيئاً في أمور الماورائيات..». وهو يرفع حاجبيه: «جواب ناقص، لكنه ذكي.. سأكتفي به». هززت رأسي.. «سيد مرزوق هل ما زلت تؤمن بالماركسية؟». «ولماذا ترى أنني هنا، ولست في بلدي». «جواب آخر ذكي وناقص، وسأكتفي به أيضاً.. الحديث معك ممتع سيد مرزوق». بعد فاصلة صمت وهو يتأملني، يحدّق في عينيّ، لإرباكي وإخافتي: «سيد مرزوق، لماذا من بين مئات آلاف الفتيات التشيكوسلوفاكيات الرائعات اخترت واحدة من أصول روسية بيضاء، أبوها خائن للقضية الشيوعية، كي تكون عاهرتك؟». «تقصد من؟». «آه، أنت تستهين بذكائي سيد مرزوق. أرجوك دعنا نبقى ودودين مع بعضنا. وفي النهاية نحن نتسامر ليس إلاّ.. ها، ماذا قلت. أترغب بكأس من الفودكا أم أنك تفضل الويسكي الأسكتلندي

المعتق؟». أمال رأسه وكأنه ينظر إليّ من تحت، راسماً ابتسامة لئيمة على فمه الرخو: «ناتاشا ليست عاهرتي، إنها صديقتي.. هذا أولاً.. وثانياً أنا لا أعرف أي شيء عن خيانة والدها، هي لا تحكي عن هذه التفاصيل، وربما لا تعرف عنها شيئاً.. وثالثاً هي ليست من النوع المؤذي والخطر.. ورابعاً لم أذق في حياتي قط الويسكي الأسكتلندي المعتّق.. حقيقة لا أعرف طعمه لكنني أعرف طعم الفودكا.. وأحبه.. من فضلك». صمت قليلاً.. غارت الابتسامة من صفحة وجهه.. طقطق بأسنانه وقام إلى منضدة قريبة سحب من تحتها قنينة فودكا روسية مملوءة ربعها وأدار منها في كأسين.. قدّم لي واحدة وشرب دفعة واحدة ما في كأسه.. فعلت مثله.. كان الشراب لاذعاً.. قال: «ما لك؟».. «لست متعوداً أن أشرب بهذه الطريقة؟».. «ولماذا فعلت؟».. «رغبت أن أقلّدك، ليس من اللياقة أن أشرب كأسي ببطء فيما أنت شربتها دفعة واحدة».. «آه.. أفي كلامك تورية من أي نوع؟».. «لا، أنا أصف الحالة، حقاً لا قصد آخر لي».. «أظن أن كأساً ثانية يمكن أن يزيل سوء التفاهم بيننا».

***

وحين تبتعد جانيت يختنق زمني في ساعة الحائط. في اللوحات الباردة. في المساء الماطر، في الأضواء التائهة على الطرقات..

أفتح نافذة السيارة، لا أبالي برشقات الماء.. أصيح؛ جانيت، لأملأ بها رئة عتمتي.. عند موتيل غريب اسمه «ليلة بيضاء» أتوقف.. أترجل.. أمشي الهوينا إلى مربع النور.. يستقبلني رجل وزوجه؛ أنا المنقّع بالكآبة.. الهاتف أحمر اللون (كان.. أذكره).. أدير الرقم الوحيد

الذي أحفظه عن ظهر غفلة، أنتظرُ برماً، وأشهق.. تقول المرأة الأربعينية بأريحية بياضها؛ «سيكون كل شيء على ما يرام».. يبتسم زوجها، وهو يملأ الكأس بالسائل العقيقي.. أنقر على الطاولة (وها أنا بعد خمسيني) يأخذني الثمل إلى أغنياتي القديمة.. تجلس المرأة قبالتي وهي تستدعي بقايا أنوثتها، وما زال الرجل يبتسم في زجاجة النبيذ.. تسألني عن اللغة العجيبة، عن عصارة الكروم التي تعتقت في اللحن.. ندخن معاً؛ أنا وهي وزوجها، في عزلتنا المبللة هذه.. يشربان في صحتي، ثم نشرب جميعاً في صحة جانيت.

«لا أحد يجيء بعد منتصف الوقت» أقول لهما.

«لا أحد يرغب بمحطة الضائعين هذه» يقول الرجل.

تقول زوجه: «لا أحد يصل في اللحظة المناسبة أبداً».

ثم نحكي..

تحكي هي قصصاً يقول زوجها إنه لم يسمعها منها من قبل.

يحكي هو عن سرّه البعيد مع امرأة ربما تكون الآن في الجهة الأخرى من الكون.

أما أنا فلا أحكي عن جانيت.. لا أحكي عن ناتاشا.. ولا عن غادتي الهاربة بين النجوم العتيقة.. أحكي عن مراهقتي التي لست أزعم أن قصصي عنها هي قصصي.. عن الساعة العاشرة من مارس.. عن وقت غائب.. عن نهار أبيض كالموت، ورائحة احتراق.. ما لا يجب أن يحدث قد حدث.. بنت في السادسة عشرة، تحت نجمة خرساء مشؤومة التقيتها.. أفكر بكتابة كتاب عنها.. كتاب مستحيل.. بلغة في درجة

الصفر.. ربيعة ماتت اليوم.. لعلها لم تمت.. من يستطيع أن يجزم.. السؤال مطر الساعة.. ذلك النهار من مارس لم تكن السماء تمطر.. لا شيء، لا أحد، لا معنى.. هراء كريح صرصر.

أخبرت المرأة التي في الأربعين وزوجها عن ربيعة والكتاب.. لم يقولا شيئاً.. لم يهزا رأسيهما.. ركزا على كل حرف وصمتا.. نظرا إلى بعضهما بعدم ارتياح.. قلت لهما أنا شخصية في كتاب مستحيل، وغادرت.

***

بعد معرض مشترك عرض فيه أربعون فناناً من العالم الثالث لوحاتهم ومنحوتاتهم ولم يزرها سوى بضع مئات، ولم يُقتنى منها سوى أقل من عشرين عملاً أركبونا سفينةً ليلاً لنرى باريس من السين ونحن نتناول عشاءً بوجبات محلية خاصة بمطابخ بلدان المشتركين. بحثت عن أكلة عراقية. لم أجد.. أكلت وجبة هندية حارة وشربت النبيذ.. سكرت.. صحت: هيا، لنقم بسباق سباحة، نرمي أنفسنا في النهر ونسبح حتى مرسى القوارب ذاك.. وكدت أقفز.. أمسكوني.. قال المنياوي «إيه الجنان ده يا راجل.. ما أنت أحسن من كتيرين، بعت لوحة بخمسطشر ألف فرنك، فرنك ينطح فرنك». «ماذا تظن يا منياوي، لست أقدم على الانتحار». «أمال عاوز إيه؟». كانت الموسيقى شجية هادئة.. قهقهت وقلت له: «عاوز أمي». قال «نوستاليجي». قلت «بتشتم أمي ليه؟». كنت سكراناً منتشياً فرحاً، وجعل المنياوي يضحك حتى كاد ينقلب من كرسيه.

خمسة عشر ألف فرنك أعلى ثمن للوحة أحصل عليه في حياتي.. اشتريت لجانيت قنينة عطر من شانيل، ومعطفاً فرائياً وحقيبة يد جلدية من محلات أعلنت تنزيلات كبيرة لأسعارها. وأخذتها إلى مطعم في برج إيفل.. حكيت لها ما جرى في سفرتنا النهرية ونحن نأكل..

ـ أكنت حقاً ستقفز؟.

ـ لو لم يمسكوني.

ـ مجنون. لكنت الآن ميتاً.

* * *

لماذا تراني أخاف الكتابة؟ أعني المباشرة الجادّة بكتابة كتابي (كشف حساب) الذي طالما تبجحت به أمام معارفي وكأنه إلياذة هوميروس المرتقبة؟. ألأنني أخشى الماضي؟ ألأنني أفتقر إلى الجرأة اللازمة لإجراء كشف حساب حقيقي لحياتي؟ ألأنني أرتعب من الوقوف إزاء المرآة والنظر عميقاً إلى داخلي وما ينطوي عليه من منعرجات وزوايا معتمة وخراب؟. ألأنني لست على يقين من أهمية تجربتي، بحيث أصدّع بها رؤوس الآخرين؟. ألأنني لا أمتلك موهبة الكتابة أساساً وتفزعني فكرة أن أكون موضوع هزأة بعضهم، مثلما أجعل أنا بعض الكتب التي يكتبها بعضهم موضوع تندر وضحك واستهزاء؟. أم ببساطة لأنني لست على ثقة أكيدة بذاكرتي التي ربما تكون مملوءة بالثقوب والأخيلة وصور الأحلام والكوابيس، ولا أدري؟..... لست أدري.

هذه أوراق أكتبها وهي لا تنطوي على الحقيقة كلها. من بمقدوره الجزم أنه يعرف الحقيقة النهائية الناصعة والكاملة؟. حتى تلك التي

يسمّونها الحقيقة النسبية قد لا أكون أهلاً للوصول إليها، للتعبير عنها بشكل يجذب الاهتمام؟.. قال لي كاميران عادل: «الناس يريدون المغزى، يبحثون عن ظلال الحقيقة، وجوهها الأخرى التي لم يألفوها. وعليك أن تبدأ المغامرة.. الخطوة الأولى في غاية الأهمية».. أتكون هذه الأوراق التي أبعثر فيها نتفاً صغيرة من صحيفة حياتي التي أنظر إليها من هنا/ الآن، وأرى كم هي شاسعة ممتدة لا يحدّها حد، أتكون هذه النتف بمثابة المادة الخام للكتاب؟. أفي العمر بقية طاقة وفسحة زمن آخر تعينانني فيما بعد على كتابة الكتاب في ضوء هذه الأوراق؟. أم سيأتي شخص ما، يوماً ما، يملؤه الفضول والرغبة، ويجد في هذه الأوراق ما يمكن أن يصير خميرة كتاب؛ رواية مثلاً....... أليس من الغرور والمغالاة أن أعتقد بأنني أصلح أن أكون شخصية روائية. قال لي كاميران عادل؛ هذا هو امتياز الرواية، إن كل شخص في هذا العالم يمكن أن يكون ملهماً لروائي ما، في إحالته إلى شخصية تتحرك في رواية.. أجد هذا الكلام مثل أحجية على الرغم من أنني أدرك فحواه..

***

المشهد سوريالي.. البرتقالي يشاكس الرمّاني، ويخلق مع الشذري تنافراً ساخراً. لا أسود ولا أبيض. هناك قليل من الفستقي، وشلال من الأحمر القاني. حتى أنا كنت أرتدي قمصلة صوفية قهوائية منقطة بالأصفر وبنطال جينز أزرق.. وبقية الألبسة لابد من أنّ مَن خاطها مهابيل. سحنات من أربع قارات.. وما عليك سوى أن تنتشي وتُغيّب، وهناك المسحوق الأبيض الذي يشمونه والرقص.. وجعلوني أشم وأتسلطن.. رحت في سابع دوخة حلوة، عالم غير العالم. وبنات

قاصرات الطرف لا يقربهن أحد.. كل واحد مع نفسه.. ترقص وسط الحشد وحدك، وتأكل وتشرب وحدك. وتتبول وحدك. وتنام وحدك.. وتخرج وحدك. وحدك لا رفيق لك.. لا أحد يهتم لأمرك وأنت لن تهتم لأمر شخص آخر.. ما هذا المكان الذي جئنا إليه؟ سألت المنياوي.. قال: «أنت في وسط حلم يا محمود، أنت تحلم، في الحلم أنت حر، إذن افعل ما يحلو لك».. قلت له؛ «كأنني مقيد، مربوط إلى شجرة ولا أستطيع أن أتحرّك».. قال؛ «هذه قيود الوهم.. ما ورثتَ من ألف سنة». أفريقي سمين يضرب على طبل صغير ببراعة. أستطيع أن أسأل أية واحدة لترقص معي. لا أفعل؛ بنات من شمال أفريقيا وجنوبها، بنت تنتمي للجنس الأصفر، فلبينية على الأرجح، وبنات أوربيات وعرب وعجم. وكلهن يهززن أشياءهن الحميمات. وهناك اثنتان مليحتان؛ عراقية وشامية تحتسيان البيرة وتراقباننا ضاحكتين كأننا حيوانات سيرك.. لا قواعد هنا، قال لي المنياوي، لا محرّمات.. وكرر: «أنت حر». تلك السمراء لم تتجاوز العشرين.. كلهن تحت الثانية والعشرين.. «إذن ما الذي جاء بنا يا منياوي إلى هنا؟». قال: «لم يجئ بنا أحد، وجدنا أنفسنا هنا، أنت لا تدخل حلماً، بل تجدك فيه».

لا أعلم متى أفقت في شقتي.. ومن أوصلني إليها.. وتساءلت فيما إذا لم أكن حلمت. رأيت ما يرى النائم. رأسي يوجعني.. ولساني ثقيل.. فكرت أن أهاتف المنياوي وأسأله.. لم أفعل.. هو لن يتحدث عن تلك الليلة أبداً.. كنت هناك، أقسم.. كان المشهد حقيقياً، والصبايا الملاح حقيقيات، والمسحوق المخدِّر شممته حقيقة..

***

لم تطابق باريس صورتها في أحلامي.. وصلتها بعدما امّحت عن وجهها هالة الرومانسية الثورية.. نفض شباب ثورة الطلاب في العام 1968 أيديهم من الشعارات النارية الطنانة. متنكرين لأفكار التمرد والتغيير وكأنها من بقايا مرحلة المراهقة العابثة. ماضين في دروب الحياة الروتينية بحثاً عن فرص في العالم البرجوازي الواعد الذي عادوه بالأمس القريب. لقد رجعوا إلى بيت العائلة نادمين وعليهم أن يكفِّروا عن خطيئة فعلتهم المجنونة.. فقدتْ صرعة الوجودية بريقها، ومعها فكرة الطليعية. سارتر مات لتوِّه، وذهب مريدوه كل في حال سبيله.. أما سيمون دي بوفوار العجوز فتجتر ذكرياتها بانتظار اللحاق برفيقها عند الرفيق الأعلى. فيما لم تعد ثمة حلقات ماركسية تثير زوابع مخيفة بوجه سلطة رأس المال.. أُصبت بخيبة أمل..

في سنتي الأولى بباريس دخلت اللوفر أكثر من عشر مرات.. زرت معارض الفنون الحديثة مراراً.. اقتفيت خطى بيكاسو في حدائق اللوتري وهو يتشبع بالأخضر، وتجوّلت مأخوذاً بين لوحاته في معرضه.. سحرني رودان بأعماله النحتية.. وقفت متأملاً أمام تماثيل الملوك الفوارس القدماء.. وكم ترددت على مكتبة فرنسا الوطنية.. كنت أهرب من ذكريات بعقوبة وبراغ إلى سماوات الفن.. كنت أريد أن أنسى.. كان النسيان يعادل الوهم كوني في الفردوس.. غير أنني أخفقت في محاولة النسيان، وخفَّ شغفي بولوج قصور الثقافة حتى كاد يضمحل في سنتي الأخيرة بعاصمة الأنوار هذه.. وسنة بعد سنة نما فيّ حسُّ المنفي؛ الشعور بأنك فقدت مكانك، وإلى الأبد..

وأنا أتنقل بين المقاهي بحثاً عن تجمعات شبابية أدبية وفنية كي

أنضم إليها فطنت إلى حقيقة أنني تجاوزت عمر الشباب.. ماضياً في نهايات عقدي الخامس نحو كهولة عجفاء موحشة.. «أنت لا تتوب» قلت لنفسي، «ترغب أن تهدِّم العالم القائم لتعيد بناءه من جديد.. تلك أساطير لم يعد يؤمن بها أحد.. فات الأوان»..

حكيت لأندريه عن خواطري هذه في بدء تعرفي عليه.. ضحك.. قال؛ «لقد جئت متأخراً جداً.. شخصياً كنتُ جزءاً من تلك الزوبعة، ولو كانوا ألقوا القبض عليّ يومها لأودعوني السجن.. شاركت المتتفضين ولم أكن طالباً.. دسست أنفي فيما لا يعنيني، كنت نموذج المثقف السارتري بامتياز، نموذج تلاشت شروط وجوده وضرورته».. كزّ على أسنانه وكأنه تذكّر حدثاً مؤذياً، قال؛ «اكتشفت يومها أن عالمنا مركّب بطريقة خاطئة يستحيل معها تفكيكه وإعادة بنائه.. أتعرف لماذا؟ لأن معظم الناس كيفوا حياتهم مع هذا الوضع ولا يريدون تخريبه لأنهم ليسوا واثقين من البديل.. لا يريدون أن يجازفوا.. شروط الثورة لم تعد متوافرة».

لست متيقناً فيما إذا كانت هذه الأفكار الأخيرة، هذا التفسير الخائب، للمنياوي أو لأندريه أو لي أو لأي شخص آخر.. الآن أفطن إلى حقيقة أننا نصل إما متأخرين، أو مبكرين أكثر مما يلزم. وفي هذا يكمن مأساة وجودنا.. لم نكتسب بعد حس التوقيت المناسب. وليس هناك من وصفة لاكتسابه.

ما العمل؟.. لا أدري إن كنت أنا الذي سألت هذا السؤال أم أندريه أم المنياوي.. غير أني أذكر إجابة المنياوي؛ «يا سيدي من الآن فصاعداً

لم يعد هذا السؤال عاماً يخص التجمعات أو المجتمعات، طرحُ هذا السؤال في المستوى العام مضيعة للوقت.. السؤال الكبير هذا صار نطاقه فردياً خاصاً.. على كل فرد أن يسأل نفسه هذا السؤال وأن يجيب عنه في ضوء وضعه الخاص. الخلاصة؛ ابحث عن خلاصك الشخصي، فعصر البطولات انقضى».

رفضتْ جانيت دوماً الخوض في هذا اللغو الفارغ؛ «الفكر المجرد يتعبني، ولا معنى له، لماذا لا نتكلم عن الواقع، عن أنفسنا وأجسادنا ورغباتنا وعواطفنا، ونجعل الأدب والفن يهتمان بهذا». رفضتِ الانخراط في نشاطات الحركة النسوية.. تقول: «لم أستطع إكمال قراءة (الجنس الآخر) لبوفوار. أعجبتني مذكراتها عن طفولتها وعلاقتها بسارتر، وإلى حد ما كتابها (المثقفون). ولكن لو افترضنا أنهما بدأا ـ سارتر ودي بوفوار ـ الآن وشرعا يقولان ما قالاه قبل ثلاثين سنة فثق لن يكترث بهما أحد». كان لها حس الواقع، وحدسٌ نادراً ما يخطئ..

عرضنا في نهار شتوي مشمس، أنا وأندريه والمنياوي وثلاثة رسامين آخرين، أحدهم مغربي، واثنان فرنسيان من مرسيليا، لوحاتنا في الهواء الطلق بحدائق اللوكسمبورغ.. نوع من المعرض المشترك ليوم واحد، لبضع ساعات إلى أن تنقلب حالة الطقس.. وقفتْ جانيت أمام لوحتين لأندريه، واحدة لها، تظهر فيها وهي عارية، وثانية تظهر فيها امرأة أخرى عارية أيضاً.. قالت له؛ «أستطيع أن أخبرك عن اختلاف حالتك الداخلية وأنت ترسم كلا من اللوحتين» قال أندريه متهكماً: «أخبريني أيتها المحللة النفسية» قال: «وأنت ترسمني كنت كالآلة الغبية تؤدي عملك بلا مشاعر.. بلا شغف.. في حين رسمت

هذه المرأة وكأنك تستمني». غضب أندريه وقال: «تقولين هذا لأنها تبدو أجمل منك وأكثر أنوثة وإثارة». في البدء تصوّرت أنها تفتعل مشادة مع أندريه لتقطع صلتها به نهائياً.. كنّا أنا وهي قد ذهبنا في علاقتنا شوطاً بعيداً. لم تعلّق على ما قال أندريه.. قالت لي أنها ذاهبة وستنتظرني في شقتي.. فيما بعد حين تأملت اللوحتين جيداً عرفت أنها كانت على حق.

***

وأنا اشتهيها وجمرتي تتقد قالت: «الآن ارسمني، في هذه اللحظة حيث طاقتك فائرة». ونضت قميصها الداخلي العقيقي. ورحت أغالب رجفة يدي الماسكة بالفرشاة، أمزج الأصباغ على الباليته فتتفجر ألوان لا عهد لي بها، وابدأ كأن كائناً مختلفاً يتلبسني ويرسمها.. تتكشف له الخطوط التي لم ألحظها أنا من قبل؛ المنحنيات الدقيقة الرخوة، الزوايا الظليلة، الزغب الذهبي المبالغ بنعومته يتلامع على خط رقبتها الظاهر. والأدهى تلك النظرة المربكة، المفعمة بالحنان.

يفتح الكائن حواسه/ حواسي لنورها الأثيري الدافئ الطهور؛ نور الأنثى، ويتشربه، يحيله خمراً وبها يرسم.. أرسم....

جانيت ملهِمة.

لست آسفاً على شيء قدر أسفي على أنني لم أقل قط لجانيت؛ أنت ملهِمة.

كانت جانيت تحاول أن تعيد خلقي، لكنها لم تفلح بما فيه الكفاية،

لا لأنها لم تكن واسعة الحيلة بل لأنني أنا من كنت عصياً على إعادة الخلق.. كنت أنا الصوان الذي يتكسر عليه كل أزميل.

***

أقبلت جانيت في مساء لازوردي.. الثلج يندف منذ الصباح.. أنجزتُ تخطيط لوحة وقرأت أربعين صفحة من رواية (نجمة) لكاتب ياسين. وغفوت نصف ساعة. وكنت أشرب القهوة حين فتحت الباب ودخلت.. قالت؛ «هيا بنا..»، لم أسألها إلى أين.. كنت بحاجة فيزيولوجية ونفسية للخروج.. أعطت سائق التاكسي عنواناً ما.. عبرنا شوارع وأحياء كثيرة.. كنت مشتت الذهن لا أركز على معالم الأماكن.. لوهلة حسبتني في حلم.. وصلنا منطقة غريبة لم أدخلها من قبل.. شارع نصف معتم والمارة قليلون.. أوعزت الحال للثلج المتساقط.. نزلنا من التاكسي أمام بناية من ثلاثة طوابق.. قادتني نحو المدخل المضاء.. أخرجتْ تذكرتين وأعطتهما لرجل في الخمسين يرتدي معطفاً صوفياً يقف عند الباب العريض. في صالة انتظار تتناثر فيها بضع أرائك جلدية، كان هناك رجلان وثلاث نساء شابات يدخِّنّ. ولجنا صالة مسرح صغيرة يجلس على مقاعدها التي لا تتعدى المائة مقعد أقل من ثلاثين شخصاً.. يتضح من النظرة الأولى إليهم أنهم بملابسهم الملوّنة وطريقة جلوسهم من الشباب المهتم بالفن الحديث.. بعد دقائق أُطفئت الأنوار وفُتحت الستارة..

على الجدار الأبيض في عمق المسرح بدأ عرض فيلم مع موسيقى صاخبة سريعة.. رصيف عريض يعج بالمارة.. شارع مخنوق بالسيارات

في ذروة ساعة الزحام.. تعتم الشاشة التي لا تتجاوز مساحتها الستة أمتار مربعة قبل أن تتكشف عن غابة تقاتل فيها لبوة قطيعاً من الضباع يرمي إلى افتراسها.. الصراع غير متكافئ وغير عادل.. تختفي الصور ويحل الظلام.. ومع صوت موسيقى هادئة تتفتح دائرة مضيئة من الجانب الأيمن للمسرح يتوسطها شاب بشرته بيضاء شبه عارٍ جسمه عضل جميل يسير كالمسرنم.. من الجهة الثانية وسط دائرة مضاءة أخرى تدخل امرأة سمراء تسير بالطريقة ذاتها لباسها خيطي وحمالة صدرها لا يغطي سوى دائرة صغيرة حول حلمتيها. قوامها مرصوص ووجهها مغطى ببودرة بيضاء.. لا يهتم أي منهما بالآخر حين يمران بقرب بعضهما وكأن أياً منهما غير موجود في عين صاحبه.. وفجأة يستديران.. ويواجه أحدهما الآخر من غير أن ينظر إليه. ثم يشرعان بحركات مداعبة بطيئة افتراضية في الفراغ. بينهما مسافة ثلاثة أمتار.. يبدوان وكأن كلاً منهما يتعامل مع جسد الآخر بإيقاع متسق رتيب.. على الرغم من جمال جسديهما يظهران مثل دميتين متقنتي الصنع.. الحركات جنسية، لا إثارة فيها، ولا حتى ابتذال أو بذاءة. لا أنّات ولا لهاث ولا فحيح ولا لذّة ولا حتى ألم. إنها حيادية بشكل مغيظ، باردة غير إنسانية، مقوننة لا أخطاء فيها.. وحين ينتهيان يقعيان على أربع ويكشّران كل في وجه الآخر مثل ذئبين شرسين.. يدوران حول بعضهما.. يتناهشان.. قبل أن يذهب كل منهما، في الطريق الذي جاء منها، بوجه مدمّى. يطغي الظلام مرة أخرى وتتكشف في الخلفية صورة مقبرة..

تُضاء الصالة.

وكانت هناك مشاهد أخرى، تلاشت، بعد خروجي من الصالة، من

ذاكرتي.. لا أقدر على استعادة شيء آخر.. عمل تجريبي مثل هذا من الصعب أن يُدهش كهلاً متعباً مثلي.

في أثناء العرض خرج بعضهم.. وبعد انتهائه خرج آخرون فيما صفّق رجل بقوة بمؤازرة ثلاث نساء رحن يصفرن واقفات.. جاء الممثلان راكضين إلى مقدمة المسرح الصغير وتشابكت أيديهما فصفّقنا لهما. ثم جاء المؤلف والمخرج وبقية الفنيين. وصفّقنا أيضاً.

قالت جانيت؛ لو نبقى نستمع للمناقشة.. أجبت بصوت نعسان؛ لم لا؟. وأدخلوا كراسي بلاستيكية ومنضدة صغيرة إلى المسرح الفقير.. كنت بين اليقظة والمنام حين تطايرت كلمات من قبيل قسوة العالم والوحدة، وفقدان الأمل والظلم والسيطرة وما بعد الحداثة والمسرح الإيمائي والمستقبل المبهم.. وكانت لجانيت مداخلة طويلة لم أفهم منها شيئاً.. كنت في درجة عالية من الإعياء واحتباس الذهن..

في الشقة حين عدنا؛ سألتني؛ ما رأيك، لم تقل أي شيء منذ خرجنا.

ـ أنا تعبان جانيت.. تعبان من العيش والحياة والعالم والفن والحب. تعبان من الوحدة والقسوة والظلم. دعيني أنام.

***

يعتقد أندريه أن عالمنا البرجوازي فاسد لكن لا بديل أفضل منه.. وقد طلّق اليسار والقضية الاجتماعية منذ زمن بعيد، منذ إخماد ثورة الطلاب 1968.. أقول: «إن الرأسمالية خرّبت العالم إلى الحد الذي ما عاد البديل الأفضل قادراً على الإصلاح».. يقول منتشياً؛ «ها أنت تصل إلى النتيجة نفسها».. أعترض؛ «ليست النتيجة نفسها».. يصرخ

«تباً للعالم، دعنا نتحدث عن النساء».. هو سكران.. أندريه لا يسكر.. يشرب قليلاً.. أقل من القليل لكنه اليوم فقد صديقة أخرى. وشرب أكثر مما تتحمل معدته الهشة. يقول: «خانتني السافلة، يجب تشريع قانون يقضي بسجن الخائنات السافلات مدى الحياة».. يتقيأ على الرصيف خارج المقصف.. يسنده مارسيل صديقه الصحافي وأنا أوقف سيارة أجرة.. نأخذه إلى المستشفى.. يحكي الطبيب عن تسمم كحولي ويجري له غسل معدة ويوصيه بالراحة والابتعاد عن الشرب: «أنت لم تخلق للشرب».. يقول: «أنا لم أخلق للحب، لم أخلق للفن، لم أخلق للشرب. لم أخلق لأي شيء نافع، أنا نكرة. إذن رجلي بـ... الدنيا».. أندريه واهن البدن، متضعضع.. نأخذه إلى حي مونبارناس حيث يسكن.. نصعد معه إلى شقته.. شقته هي ما بقيت له من إرث عائلته الثرية.. يرمي جسمه على الفراش من غير أن يخلع حذاءه وملابسه.. مارسيل يخلع حذاء اندريه وجواربه ويغطيه. نخرج إلى الشارع. يسأل مارسيل؛ «لماذا يهتم بشأن امرأة تركته، هناك ألف أخرى يستطيع أن يقيم معهن علاقات ملتهبة».. أقول؛ «ربما أحبها».. يقول: «هو يشعر بالإحباط، أعتقد أن محنته ليست في فشل علاقة مع امرأة، بل في الفشل الإبداعي، هذه حدوده وقد أدرك أنه غير قادر على تخطيها». أقول: «أحياناً مجموعة من الإحباطات الصغيرة تجعل الحياة أمامك قاتمة». نسير باتجاه السين.. نجلس على مقعد خشبي. الهواء ينفض أوراق الأشجار ويدحرجها على الأسفلت، تحت أضواء نعسانة. يسألني مارسيل؛ ترى لماذا تركته؟.

ـ لأنه صفعها..

ـ ماذا؟

ـ تعرض صباحاً للسرقة، شاب على دراجة بخارية انتزع حقيبته من يده وهرب. وطوال النهار لم يعثر على زبون كي يرسمه. التقى صديقته جان.. كان يغلي ويبدو أنها نهرته لسبب ما، وكان في فورة إحباطه.. صفعها.. خرجت من عنده وهي تصرخ؛ إن اتصلت بي مرة أخرى قتلتك. جاءني وقال؛ لولا أنك ستتهمني بالفاشية لشتمت العالم الثالث.. قلت له مازحاً؛ وماذا فعل بك العالم الثالث؟. قال؛ سرقني اليوم شخص من العالم الثالث، أسمر البشرة، كث الشارب. قلت له وكنت أمزح أيضاً؛ لعله فكّر باسترداد جزء من خيرات بلده المنهوبة.. صرخ في وجهي: أيها الشيوعي الناكر للجميل.. صدمتني عبارته.. قلت له: «اخرج من شقتي، ولا أريد أن أرى وجهك مرة أخرى، ها أنك تكشف عن معدنك».. خرج مسرعاً، وبعد عشر دقائق عاد.. ولأنه ترك الباب مفتوحاً عند خروجه، دخل عليّ الصالة ولم يطرق الباب.. رآني غاضباً أفكّر بسلوكه الغريب.. جلس قبالتي وقال: «أنا آسف، أنت لا تدري ماذا حصل لي منذ استيقظت هذا الصباح». وراح يحدّثني عن المتراكم من خيباته في يومه التعيس. قال: «أنت صديقي ولن أتحمل خسارة أخرى». «حسناً» قلت له، «عليك ان تهدأ قليلاً.. استحم ونم لساعات».. بعد غفوة قصيرة طلب مني أن نذهب إلى المقصف، وجدناك هناك.. يوم غير عادي، أليس كذلك.

قال مارسيل: «لو كان شخصاً آخر لقلت لك هيا نذهب إليه ثانية كي لا يقدم على الانتحار.. أندريه ليس من ذلك النوع، روحه قوية، ويؤمن أن الحظ سوف يضحك له ويمنحه الفرصة وعند ذاك سيقتنصها ويتغير مصيره دفعة واحدة وإلى الأبد».

الفصل الثامن

وصلتني رسالته عبر صندوق بريد الجريدة.. نادرا ما نتلقى رسائل ورقية بعد شيوع البريد الإلكتروني.. حين سلّمني موظف الاستعلامات المظروف الأخضر السميك، قلبته لأعرف مصدره.. الاسم المدون؛ أثير العراقي، اسم لا يبدو حقيقياً تماماً.. والدولة التي أرسلت منها هي اليمن، وعليها ختم مكتب البريد في مدينة عدن.. قدّرت أن الرسالة تحوي مادة مكتوبة مرسلة للنشر في الجريدة.. ولكن لماذا اختار أثير العراقي أن يرسلها باسمي الشخصي وليس باسم رئيس التحرير أو مديره، كما تقتضي تقاليد التعامل مع الصحف.. في مكتبي وضعت المظروف على المنضدة، وخلعت سترتي، وجلست.. كان ينتظرني عمل مرهق لم أنته منه حتى ساعة الغداء.. ولحظة هممت بمغادرة مكتبي عصراً تنبهت للمظروف الأخضر ملقى بين الأوراق.. فضضته وأنا أحاول طقطقة فقراتي المتعبة، وما زلت واقفاً.. اثنتان وعشرون صفحة منتزعة من دفتر مدرسي، ونص مدوّن، بخط دقيق ناعم، بالحبر الأسود على الأسطر الزرقاء الباهتة المخططة..

الصفحة الأولى جمل مقتضبة، حيادية باردة، موجَّهة لي:

(الأستاذ ماجد بغدادي المحترم

تحياتي

أنا الآخر عرفت محمود المرزوق.. قد يفيدك ما سأحكيه عنه.. ليس مهماً أن تعرف من أنا.. وحتى لو ذكرت لك اسمي الصريح فلن ينفعك.. لن ألومك إذا ما مزّقت هذه الأوراق بعد قراءتها، فقط بعد قراءتها.

أثير العراقي

صنعاء 24/ 2/ 2010

ملاحظة: هذه الأوراق كتبت قبل حادثة مقتله المؤسفة ولم أر ضرورة لتغيير أي شيء.. تستطيع أنت أن تفعل. كما أني أعتذر لأن ما أقصّه لا يخضع لتسلسل زمني مرتّب، ولست متأكداً جداً من التواريخ، وبعض التفاصيل قد تكون متخيّلة، لكن في النهاية أنا متأكد، بشكل عام، مما أقول).

لم يعنون نصه الطويل نسبياً.. كتبه قطعة واحدة من السطر الأول إلى السطر الأخير ولم يستعمل من الفواصل سوى الفارزة.. جُمله الأولى جعلتني أجلس، لأقرأ:

[كلّما دخل في حياة امرئ، رجلاً كان أو امرأة، خرّبها، ذلك المدعو محمود المرزوق، إنه علامة قدر مشؤوم، لا عن سابق ترصّد، لكنه ليس بريئاً تماماً، إنه قاتل على طريقته، بتواطؤٍ من لا أباليته، وقطعاً لا على الرغم منه، بارد القلب، بضمير رجراج كماء بحيرة في يوم ريح، بألوان تنحلُّ وتتغير، ظننتني أعرفه كما تعرف القطة ابنتها، غير أني لا أكاد أعرفه، لن يعرفه أحد، لا أحد، وأشك إن قدر هو نفسه في أي يوم على مواجهة نفسه ليعرفها، شيء يشبه الكائنات الخرافية، أو قل الطحالب

على أسفل أشجار ضفاف الأنهر، لا معنى لوجوده هناك، لا جدوى كما زخرفة على خشب سرير أرملة، لكن تهيأ لأولئك الذين نظروا إليه من بعيد أو سمعوا عنه أنه قدوة لا تُجارى، رأوا البريق والبهرج والهالة، وصدّقوا صورته المبرقشة بحكايات منفوخة بالأساطير، كان جيلنا الشاب في بعقوبة بحاجة إلى مثال، مثال قريب، ومن يمكن أن يكون غير محمود المرزوق ببنطاله الضيّق الأزرق وقميصه الساطع البياض وشعره الطويل المزيّت والممشّط إلى الخلف والمشدود في مؤخرة رأسه في شكل ذيل حصان قصير، حيث تبرز جبهته العالية وحاجباه الكثّان ويطل المكر والتهكم من عينيه الواسعتين اللتين يخفيهما حين يمشي في الشارع خلف نظارة تشبه تلك التي يرتديها المحققون الحاذقون في الأفلام البوليسية، فيما يضفي عليه الغليون المدلى من طرف فمه وهو يقرأ في كتاب مجلد بورق أحمر، أحمر دائماً، في ركن المقهى مسحة مبهرة من الغموض، وما كان يقوله من آراء غريبة، أو ساخرة يتناقله الآخرون كما لو أنها آراء قدّيس، وهكذا وجد من جاراه في ألوان لباسه وفي شكل تسريحته، وكيفية وضعه الغليون في طرف فمه ساعةَ يقرأ، وفي طريقة مشيه التي يقلد بها ستالين، على الرغم من أنه لا يفوِّت أدنى فرصة لنقد الديكتاتور ستالين الذي جمّد الماركسية، كما يقول، في قوالب أسمنتية لا حياة فيها، وكان المرزوق يعلن أنه لا يكره إلا أولئك الذين يستنسخون شخصيته ويتماهون معها في ظاهرهم، لكنه في هذا كان يكذب، فحين كنا نمر بواحد من نُسَخِهِ في الشارع أو السوق كان يغمز بعينه لنا باسماً مبتهجاً، وشخصياً أنا موقن من أن الأمر كان يستهويه، وفي قرارته كان يخفي ديكتاتوراً ينتظر فرصته للخروج، وكنا نحن

المقربين منه نعرف أشياء أُخر، نعرف ما تحت التبن، نعرف الحقيقة، محمود المرزوق وهو يطلق النار في تلك الليلة ويخطئ الهدف، ويهرب من الباب الخلفي للبار، ويعتذر بذريعة السكر بعد يومين، وكان نزقاً عصبياً لا سكران، في حجرة مسدسه نوع مكاروف عيار 9ملم طلقتان، أطلقهما، وفي اليوم الثاني أو الذي تلاه قال إنه قصد أن يخطئ، لأنه كان مريضاً وأراد أن يُشفى، هكذا، في ذلك البار الذي غادره مسرعاً من بابه الخلفي، ولم يأت ليعتذر إلا حين تأكد بأن رجلنا ستار نونة لن يقدّم شكوى في مركز الشرطة، وهو لن يُحبس بتهمة الشروع بالقتل العمد، وأن الآلهة التي لا يؤمن بها تمنحه الحظ مرة أخرى لسبب لا يدركه إلا الآلهة، وزعم أنه ألقى مسدسه من أعلى الجسر في نهر ديالى الفائر بشبه فيضان، ولن يحمل أبداً مسدساً ولا أي سلاح ناري حتى وإن دُفع إلى خوض حرب، وربما برّ بوعده، وكان غريباً يومها أن يشهر القدّيس محمود المرزوق مسدساً لأن أحدهم لمّح إلى امرأة، وإلى خيانة، وإلى تجربة فاشلة، مضحكة، وبنت اسمها ربيعة انتحرت بسبب حقارته، وخرج مسرعاً، ولم يتبعه أحد، تاركاً صمتاً وصدمة، وصورة براقة تتفتت على إثر طلقتين في شبه عتمة البار بعد الساعة الثانية عشرة ليلاً، وخرجنا وكانت الريح، والريح عصفت بقداسته حتى باتت أدمغتنا فارغة، نحن صحبه ومريدوه وعشاق ظلّه، والقصة لم تنته، وأقسم شفيق نونة ابن عم رجلنا الناجي من طلقتي المرزوق أنه سيؤكل المرزوق براز الكلاب، وسيشق طيزه، وغادر المرزوق المدينة لأسبوعين ونحن نتوسل بابن العم أن يكفّ لأن المسألة تعدّت على خير، وقهقهنا لما اقتنع أخيراً وألقى من يده كيس الورق الخشن المحكم الإغلاق بدبوسين بعدما

عرفنا أنه مملوء ببراز كلاب يابس، ومحمود المرزوق مرتكب الجريمة المرجأة حتى إشعار لاحق يشرب بواقع ثلاثة أرباع زجاجة من عرق المستكي، مع اللبن الرائب والخوف، في بار شريف وحداد بشارع الرشيد ويعبر الجسر مرتين ذهابا وإياباً يعب من هواء النهر ليصحو قليلاً من خبله، فيستقبله صبي فندق المرافئ برجاء شبق، ويقول المرزوق إن هذا ليس شغله، ويعطي الصبي نصف دينار ليأتيه بواحدة من بنات الليل تحضنه حتى الصباح في سريره، على أمل أن يضاجعها بعدما يستيقظ، وتقول له المرأة أنت مجنون لتعطي امرأة دينارين فقط لتستنشق قذارتك، ويستيقظ قبل الظهر فلا يجد المرأة ويخبره الصبي أن المرأة أمه بائعة خضار في سوق بشارع الكفاح، ليس سيئاً محمود المرزوق، وغدٌ برداء مثقف بعدما يعبر مطهِّر البارات، يقرأ بضعة كتب، يرسم لوحات تنم عن ربع موهبة، ويكتب بعض الهراء، ويدلي بآراء عن البروليتاريا الأممية لا تعني البروليتاريا في بلده التي لا تعيره أدنى اهتمام، ويقول عنها لم توجد بعد، وينعته ستار نونة بالبرجوازي التافه ويحكي عن خيانة وامرأة مخذولة وبنت احترقت في بيت عمه، فيخرج المرزوق سلاحه ويطلق النار من مسافة ثلاثة أمتار فتمرق الطلقتان قريبتين من الرأس وتستقران في الجدار السميك للبار، ونحضر جلسة مصالحة باذخة ببستان في بهرز بأربعة زجاجات من عرق المستكي، وما لا يعد من زجاجات البيرة علامتي لاكر وفريدة ويبكي محمود المرزوق بحرقة لأنه كان أحمق، ويغني شفيق نونة ابن العم الذي سبق وأن أقسم أنه سيؤكل المرزوق ذلك الشيء ويشقه إلى شقين، وكان سكراناً يهتز مسدسه في يده فيما أصابنا الخرس لمّا راح يطلق في الهواء فيتصادى صوت الرصاص بين

أشجار النخيل على ضفة نهر ديالى وهو الذي لن ينسى فيجرجر، مع رفاق له من الحرس القومي، المرزوق بعد أشهر في نهار شباطي مشمس بارد برشاشات بور سعيد إلى خيمة نصبت على عجل على ضفة نهر خريسان ومن هناك إلى القصر الأبيض ببغداد قبل أن يجد المرزوق نفسه في قطار الموت الراحل إلى التعاسة التي ستستغرق بضع سنين، ولكن ابن العم شفيق نونة سيورِّط أيضاً ابن عمه ستار نونة الذي أطلق عليه المرزوق رصاصتين في بار ببعقوبة ولم يصبه ويأخذه بهدوء إلى خيمة الحرس القومي بتهمة الشيوعية والتآمر على الثورة، لكن هذا سيكون محظوظاً ولن يحشر في قطار الموت لأسباب لا تتعلق بالمصادفات وحدها، وإنما لأن الدم ليس ماءً، وفي ظلمة سجن بعقوبة المركزي سيقول السجين لابن عمه الذي يستجوبه، وكلاهما من بيت نونة ملاّك عربات الربل، أنك حقير مثل براز الكلب اليابس الذي حملته بكيس ورقي ثخين لتدّسه في فم محمود المرزوق الذي هو أشرف منك، فيضربه ابن العم بأخمص رشاشته البور سعيد على فمه ويشق شفته السفلى ويكسر له سناً أمامياً صارخاً بوجهه تروح فدوة لقندرة جمال عبد الناصر يا بلتشفي فيتلقى بصقة من لعاب جاف مخلوط بالدم على وجهه، هو الذي ستكون له مكانة بعد انقلاب تموز 1968 وحتى سقوط تمثال صدام حسين في ساحة الفردوس نيسان 2003، فيما محمود المرزوق وهو في قطار الموت يستعيد ذكرى فتاته التي أغواها في ساعة شبق، وغاص معها في الرذيلة من غير أن يجرح عذريتها، وانحدرت دمعة من عينه لأنه اضطر أن يخدعها بوعد الزواج، هكذا اضطر، وقد قال لي يوماً الحاجة إلى الجنس غير الحب، وإن لم أُسكت هذا العفريت بين

فخذيّ سأرتكب جرائم لا تخطر ببال شيطان، وكانت فتاة السادسة عشر ابنة الفلاح في بستان عمه البرجوازي، والبرجوازية مثل تيار يصعد وينزل من رأسه إلى أسفل بطنه وبالعكس، نظرة خدّاعة إلى العالم، وفكر معجون بترف الدنانير التي لم تشح لديه قط، وكان سخياً، يدفع مقابل أن تكون الكلمة الأخيرة له حتى وإن بمزحة ثقيلة تطول أحدنا فيضحك بصخب مريع، ونضحك لأنه يجب أن نجاريه في ضحكه، فهو من دفع ثمن طعامنا وشرابنا، أم كنا ندرك في قرارتنا المطعونة بأنه حلٌ لا غنى عنه ما دمنا فقراء بالفطرة والوراثة وحكم الطبيعة والوباء المجتمعي، ويُرهقنا شعور بالنقص، نحن البروليتاريا الرثّة الذين بقينا نمضي نهاراتنا الساخنة والمثلجة بحمل صحون الجص والإسمنت لبنائين يجيدون الشتائم والضرب غير المميت بكِسَر الطابوق، وندرس في الثانوية المسائية لأجل شهادة جامعية نحلم بها وسوف أنالها وأنا في الثالثة والثلاثين، وسوف لن يكون المرزوق هنا، فيما نقاد إلى زنازين دائمة الإضاءة، ويطلق سراحنا وقد هزمنا قبل أن نستفيق بعد شهور على دوي حرب تهمّ بالتهامنا، ويكون الأوان قد فات للفرار من أنفسنا وأوهامنا، والقصة لن تنتهي هنا، فرجلنا اخترق ليل العراق إلى براغ قبل هذا بعقد ولم تنقطع أخباره، إذ يلوذ بأحضان سخيّة يؤجرها مقابل شيء بخس في فردوس الاشتراكية، فهذا النمط منها يرضيه في النهاية طالما أن باستطاعته إسكات نهم عفريته والحديث من ثم همساً عن تروتسكي والثورة الدائمة، وعن كافكا الذي لم تعرفه المدينة كما عرفها، سراً مع مريدين من أمثالنا هم بحاجة إلى فتات ما يتركه المرزوق بطيب خاطر في تلك الزوايا من براغ حيث تعيط رائحة الجنس والخمر والبذاءات

كلها، وتُلاك فكرة الثورة الاشتراكية التي ستعرف عاجلاً هزيمة مدوّية بسبب هذا العدد الوفير من أمثال محمود المرزوق في أنحاء العالم الثاني والثالث، ولا أظنه سيذكر لرفاقه هناك حكاية طلقتيه في بار ببعقوبة ذات أواخر شتاء بعيد، وحتماً لن يومئ إلى بنت الفلاح ذات السبعة عشر ربيعاً وهو يبرز لها عفريته فيكاد يغمى عليها فيهدئ وجلها بكلام رقيق يجيده، ووعد بزواج باذخ، ثم يسوح به على جسدها الفتي ويلوث ما بين فخذيها وبطنها ونهديها الصغيرين ويتركها لخوفها ولن يقربها ثانية، لن يكلِّمها وهي ترجوه، ويردد كلما ألحّت، لم يحصل شيء، كنت حريصاً على أن لا يحصل شيء، أنت نظيفة وجاهزة لزواج اعتيادي، فتبكي وتلطم خدها، وبعد أسبوعين تلتهمها نار التنور وهي تخبز في بيت عمه جميل المرزوق وثوبها مبلل بالنفط الأبيض لأنها أمّية حمقاء كما أشاعوا لا تدرك خطورة أن يكون ثوبها منقّطاً قرب النار، وأنا أرجِّح احتمال الانتحار، أو قل لا أستبعده كما هو في دخيلته يرجِّحه مثلي ويوجعه الشعور بالذنب غير أنه لا يمتلك أي حل الآن، وهذا أكثر حدث يتمنى لو يلقيه عن كاهله البرجوازي وينساه، فيما تنتظره حكاية خيانة أخرى في لحظة انكسار تكشف ما في زمنه من ارتدادات مع أوكرانية بيضاء سيحبّها ربما كما أحب بنتاً أخرى ببعقوبة، من سلالة كولاك برجوازيين، يوماً، فيشاكس القدر نقطة أخرى من ضعفه المستحكم، ولعه البرجوازي بالحياة السهلة، وبعد أن يعاشرها طويلاً تحت رقابة المخابرات التشيكية ويُستدعى سيشي بها مضطراً وتحت التهديد، أو سيوقِّع على ورقة مملوءة بافتراءات لأنها ابنة منشقٍّ قديم، دافعاً إياها إلى التهلكة، ويهرب ثانية وهذه المرة إلى باريس ملوّثاً بعارٍ سيمسي كابوسه ما بقي يتنفس،

وسيتنبذ ركناً في حي مونبارناس، أو الحي اللاتيني، ليرسم لوحات لا تلفت الانتباه، ويعاشر موديلاً من عواهر باريس سيخذلها هي الأخرى حتماً ويهرب وهذه المرة إلى بعقوبة بعد أن يدرك أنها مريضة بالسرطان، وهو الذي لا يتحمل أية مسؤولية اجتماعية اخلاقية أو ما شابه سيركب الطائرة من باريس إلى بيروت، ومنها إلى عمان وبحافلة عن طريق طريبيل سيدخل العراق ذات فجر كامد بكامل خوائه، مدركاً ويا للهول حجم الخسارات التي مني بها لأن الرياح لم تسر كما حلم، خسارات لا سبيل إلى تعويضها بأي ثمن، والعالم يوغل في بلواه كما لو بلعنة، وهو لا يفهم، لا يفهم، لأن إيقاعه أبطأ من أن يفهم عالماً يتغير ويستوحش ويتكأب وتشح فرص مسرّاته مثلما خبرها بحسه البرجوازي الرهيف، ووقاحته ولا احتشامه، هو صاحب نظرية الكذب المباح في الإغواء الصُراح، فكان يروِّج لها كلما حملته الثمالة إلى نقطة السخافة فيفصلها كأنها تضاهي نظرية الكم مثلما صاغها أخيراً ريتشارد فاينمان، وقبل سفره إلى بلاد التشيك بشهر حدّثني أنه خرج من غرفته في فندق بشارع الرشيد قبل الفجر عارياً تماماً يقصد التواليت المشترك في الطابق الثاني لأن الجو حار، وفوجئ في الممر بامرأة في الأربعين تشهق من المفاجأة وتشتمه، قال لها، لم أجئ بشيء من عندي، كله من عند الله، فلم تتمالك نفسها وضحكت، لم أقابل ألعن منك، قالت له فردّ عليها محدِّقاً في عينيها كلنا ملعونون بسببه، وحَسِبَ أنها ستنتظره في الممر بعد إفراغ مثانته فيقودها إلى سريره، لكنها لم تكن هناك، ولم يرها ثانية، وسيعود ليحكي الحكاية ذاتها بعد عشر سنين أو أكثر وأنا معه بمقهى في براغ، مدّعياً أنه بوغت بها واقفة ما تزال في الممر فلم يقل لها شيئاً هي التي

تكبره بسبع أو تسع سنين، وإنما أمسكها من يدها وأدخلها غرفته وواقعها وهي ممتنة ثلاث مرات قبل شروق الشمس، ولم أعلمه أن ذاكرته خربانة أو أنه ببساطة تامة يكذب، بل ضحكت، قهقهتُ حتى دمعت عيوني وحتى قال ماذا دهاك، قلت تذكرت نظريتك القديمة التي تدرّس اليوم في جامعات العالم المتحضر، سأل أية نظرية، قلت، الكذب المباح في الإغواء الصُراح، فقال أنا أكذب في الإغواء لا عند الحكي عنه، وكنت غارقاً ما أزال في الضحك فقلت وأنا أمسح دموعي بمنديلي، ما لكَ أمزح معك، أمزح، أمزح، وكان ذكياً إلى الحد الذي يعرف كيف يفرِّق بين الجد والمزاح، وهو طالب بكلية الآداب استأجر غرفة في نزل بمنطقة الحيدر خانه، لم يكن يقضي فيها سوى ليلة أو ليلتين في الأسبوع، وكنت أعتقد أن الأمر يتعلق بدراسته، أن يذاكر في الأيام التي تسبق الامتحانات، ونحن نتسكع، ذات مساء شتوي معتدل البرودة في شارع الرشيد اقترح عليّ أن يستضيفني لتلك الليلة في غرفته، لم أمانع، اقتنى زجاجة ويسكي علامة بلاك أند وايت من معرض الأوروزدي باك، وشرائح لحم مشوي من مطعم بعربة على الرصيف، ومكسّرات وفاكهة من دكاكين بمنطقة جديد حسن باشا، وفي منطقة الميدان انتحى بامرأة قصيرة وبدينة في الخمسين ترتدي العباءة وترمقني وأنا على مبعدة مترين منهما بفضول ماجن، فيما المرزوق يتحدث معها بصوت خافت، تهامسا لدقيقتين ومن ثمّ أعطاها نقوداً وتركها، وكنا في الغرفة نملأ الكأس الثانية لمّا طُرق الباب، ودخلت فتاتان بعمر لم يبلغ العشرين، خلعتا عباءتيهما وجلستا على السرير الخاص بالمرزوق قبالتنا، لا يكاد ثوبا الميني جوب المزهر بألف لون على جسميهما يستر شيئاً بدءاً من

أسفل وركيهما، أشار المرزوق إلى تحت السرير فانحنت واحدة منهما وأخرجت زجاجتي بيرة علامة فريدة، وكانت تعرف موضع فتاحة الزجاجات في زاوية الغرفة، قال المرزوق أقدّم لكما صديقي، ضحكتا، أشار إليهما من غير أن يلتفت نحوي، هذه أميرة، وهذه سميرة، أميرة عبلة سمراء بشعر نكرو فاحم مكوّر يغطي النصف من مؤخرة عنقها، وسميرة أطول قامة من صاحبتها، رشيقة حنطية بشعر بني سبط طويل، وأخذتا تشربان البيرة من فم الزجاجة وعيونهما مصوّبة إليّ، أنا القروي الرثّ الغريب، ولم أنطق بحرف، أعلمهما المرزوق أنه لا يريد اعتراضات هذه المرة فقد اعطى لأم ماجد ثلاثة دنانير زيادة وعليهما أن تكونا عاقلتين حبابتين تدعانا نفعل معهما وبهما ما نشاء، كنت بتولاً حتى تلك اللحظة، وأمام أنظار المرزوق وأنا نصف ثمل ونصف خجلان خبرت للمرة الأولى طرقات متعة الجسد، غير أن المرزوق كان لعيناً وفاسداً بإفراط، ثور سفاد بقوة ثورين، معتوه وقاسٍ، ضرب الفتاتين وغضعضهما تاركاً آثار أسنان وكدمات صغيرة على أذرعهما وسيقانهما ونهودهما وظهريهما وأردافهما، وكان يشخر ويتأوه ويختض جسمه ويتشنج مع بلوغ الذروة، غير مبالٍ بسيل الشتائم القذرة التي طالته ودارت بسخاء مضحك على قريباته المصونات منهما، ومع الفجر كانتا مثل قطعتي قماش بالٍ تستدران الشفقة، وراحت سميرة تبكي وهما ترتديان ثوبيهما وعباءتيهما، ومحمود المرزوق غافٍ ممدداً على سريره، قلت لهما وهما تخرجان وأنا في درجة قصوى من التعب والقرف، أنا آسف، لم تقل سميرة شيئاً، قالت أميرة، مناويك أولاد قحاب، وكان المرزوق جاداً إلى حد الهوس في سنوات مراهقته في أن يكون رياضياً

شهيراً في ألعاب الساحة والميدان، لا في الجري أو الطفرين العالي والعريض بل في قذف الثقل والرمح وما شابه، وأعانه جسمه المفتول العضل في أن يحصل على المرتبة الثالثة في قذف الثقل في مسابقات المهرجان المدرسي للثانويات في بعقوبة مستهل ثورة عبد الكريم قاسم، وأظن أن ميداليته تلك المصنوعة من المعدن الرخيص هي أفضل تكريم ناله في حياته وبقي يتحدث عنها طويلاً حتى ملّه صحبه الميامين وأنا واحد منهم، ولا أعلم إن كان مايزال يحتفظ بقطعة التنك تلك حتى هذا الوقت، وفطن إلى أنه لن يصل في الرياضة أبعد مما حقق فاتجه للشطرنج، وأخذه الشطرنج إلى خيالات جديدة، فظن أنه سيكون مثل خوزيه كابابلانكا اللاعب الكوبي المتوفي في أربعينيات القرن العشرين، وخاض غمار مباريات عديدة ولم تتطور مهاراته أكثر من لاعب محلي متوسط الموهبة، حتى إذا نظم على حسابه الخاص بطولة بعقوبة الأولى في الشطرنج وفشل في الوصول إلى المربع الذهبي طلق الشطرنج ولم يعد يتحدث عن كابابلانكا ويضيق ذرعاً بالمزحة السمجة التي يطلقها مهدي مدينة أقرب أصدقائه إليه، وهو يترحم على روح كابابلانكا، كلما جلسنا نأكل الكباب عند عربة علّوش الكبابجي على رصيف الشارع المحاذي لنهر خريسان، وقال أنه عاد للعب الشطرنج في سجن نقرة السلمان، وغلب مدير السجن، لكنه خسر بطولة نظمها هناك، وظل يقرأ الأدب وكتب الماركسية ويكتب ما يعرف أنه ليس سوى تفاهات، وكان عليه في هذه المرة أن يتعقل قليلاً ويعود إلى الرسم، أفضل ما يقدر عليه، وأظنه كان يدرك في قرارته أنه لن يبلغ في الرسم شأواً عظيماً، ولن يكون سيزان أو ماتيس أو فائق حسن، وفي هذه النقطة الفارقة، حصل الانزياح

في كونه النفسي، وأراد التعويض، أن يبقى يثير الانتباه، وأن يجعل الناس تتحدث عنه بإعجاب أو حتى بغضب تحت تأثير الصدمة، وما بقي أمامه إلا أن يكون عدمياً ساخطاً يروج لماركسية مبهرجة فوضوية طوباوية بنسختها الوجودية السارترية مثلما فهمها ولم يفهمها أعمق مما فهمها تلامذة سارتر المهووسين بالموضة في مقاهي باريس بعد الحرب العالمية الثانية، إلى هنا أبدو متحاملاً عليه، وقد حاولت التخفيف من غلواء ذكرياتي عنه وتجنب الكلام عن ألف سخافة ارتكبها، وهذه واحدة فقط، مثالاً لا حصراً، فذات ظهيرة قائظة ماشياً بقميص أبيض ناصع مكوٍ بعناية وبنطال فضفاض من قماش إنكليزي أسود اللون، برفقة مهدي مدينة قرب إعدادية بعقوبة المركزية للبنات خرجت ابنة رجل ثري متنفذ، لن أذكر أسماءً، من مدرستها قبل خروج الطالبات بدقيقة، وكانت تهم بصعود عربة الربل حين علّق بشيء بذيء عن مؤخرتها التي بدت له لحظة صعودها العربة وثوبها المدرسي يلتصق بها، في كامل تكويرتها البهية كما وصفها هو بعد ذلك، فانزلت قدمها من دواسة العربة والتفتت إليه وبصقت في وجهه، قبل أن تتناول من ساقية مجرى المياه الآسنة على حافة الشارع قطعة نايلون منقّعة لتقذفه بها وتبهذل أناقته، وقال أنه ساعتها لم يغضب بقدر ما استثير وأحس بعضوه وقد أخذ بالانتصاب، غير أن الحوذي كان قد نزل من مكانه، في هذه اللحظة، تاركاً لجام حصانيه واندفع ليلطم المرزوق على صدره بقوة لا تتناسب وسنّه الذي تعدى الخمسين، ويوقعه في المجرى الخائس، ولم يستفق المرزوق من وقع ما حصل إلا بعد ابتعاد العربة ومهدي مدينة ينهضه وقد عقل لسانه ولم يدر ما عليه أن يقول، ولم تنته الحكاية عند هذا الحد، وتقدّمت

العائلة المحترمة بشكوى في مركز الشرطة، وتدخل الوجهاء لحل المشكل، ولم يمضِ محمود المرزوق في غرفة التوقيف أكثر من ساعتين وما لمسه أحد، غير أن مهدي مدينة ظل في الحبس ثلاثة أيام بلياليها وتلقى من الضرب والإهانة ما لا يليق بكرامة إنسان، هل أتحامل عليه، ويستطيع أي امرئ التأكد مما أقول فكثر من شهود تلك الوقائع ما زالوا أحياء، ولا أظنهم جميعاً يعانون من الزهايمر، لست أكرهه، ولن أدّعي بأني أحبه، أحببته يوماً، أعجبت به، وجدت التسويغات لسلوكه وحماقاته وأخطائه وخطيئاته إلى الحد الذي ألفيت نفسي، في لحظة عودة وعي، في موقف مهلهل ومنافق، استغللت كرمه كما أصدقائي، واستغل حاجتنا، ربما من غير سابق تصميم، ليمارس حضوره، له بعد كارزمي في شخصيته، لكنه بعد مشوش وعقيم، استعلائي وكاذب، لكن لابد من أن يقال الحق أيضاً، كنا معه دائماً بعد خروجه من السجن، ورجعنا نغتابه كلما غاب عنا قليلاً، وفسرنا كل كلام يقوله ويخالف المتعارف عليه، أو الرأي العام، قلنا مريض بحب الاختلاف، أن يختلف مع الجميع، وأن يسخر مما يعجبنا أو يذهلنا، وأذكر كيف مع أول لقاء مع عدنان القيسي المصارع في برنامج الرياضة في الأسبوع لمؤيد البدري قال كلاوات، ضحك آخر على الذقون، وحين توالت انتصارات البطل القيسي على الحلبة، والملايين تجلس بأعصاب مشدودة أمام شاشات التلفزيون، وعشرات الآلاف يهتفون باسمه في ملعب الشعب، ينفث المرزوق الدخان إلى الأعلى ومع الدخان تخرج كلماته باستعلاء لئيم، هذا لا يمت لليسار بصلة، عجيب وأنتم مثلهم تصدقون، ووقعت مشادة كلامية بينه وبين مهدي مدينة المهووس بالقيسي، والذي كاد يكسر ذراعي في

ساعة لهو تماهينا مع القيسي وجون ليز الذي كان يشبه أميراً من العائلة الملكية البريطانية، ثم سيهمس ستار نونة في أذني بعد أن يكون المرزوق قد غادر البلاد، وانتزع القيسي الحزام الذهبي من نصف دزينة من مصارعي العالم بينهم الكيني المخيف أرنست كومالي ليتوج بطلاً للعالم في المصارعة الحرة غير المقيدة للمحترفين، أتدري كان صاحبنا على حق، كلاوات، وهذا ليس كل ما يحسب للمرزوق فمعه عرفت ما لم أكن لأعرفه في ذلك الوقت، قبل حبسه في نقرة السلمان وبعد إطلاق سراحه، لولاه، أمضينا ساعات نستمع للموسيقى الكلاسيكية وأغاني المقام العراقي وأم كلثوم وعبد الوهاب وفريد الأطرش وأسمهان في غرفته، من جهاز الفونوغراف الكبير الخاص به، وكان يقتني الأسطوانات من محل القيماقجي في ساحة التحرير، ويشمل بالمعنيين الحرفي والمجازي مع الموسيقى، وفي مرة همس مهدي مدينة في أذني، دعيُّ ثقافة لا تصدق أنه يفهم أيضا في الموسيقى الكلاسيكية، قلت له، لعله يتذوقه بإحساس عالٍ وهذا يكفي، وكان مهدي مدينة حانقا عليه لأنه لا يطيق عبد الحليم حافظ الذي يعشقه مهدي بجنون، وبقينا نرتاد سينما ديالى مع المرزوق مرة في الأسبوع، وهناك تعرفنا معاً على ألان ديلون وبريجيت باردو وبرت لانكستر ومارلين مونرو وأودري هيبورن وغريس كيلي وبوب هوب وشاهدنا فيلم كازابلانكا لهمفري بوغارت وأنغريد بيرغمان، وفيلم ذهب مع الريح لكلارك غيبل وفيفيان لي قبل أن نقرأ رواية مارغريت ميتشل، وفيلم يوم خاص لصوفيا لورين ومارسيلو ماسترورياني، وللمرة الأولى أدخل سينما ببغداد بصحبته، ومع صحبه، أذكر ذلك المساء الصاخب، سينما غرناطة في الباب الشرقي، أكان

اسمها سينما ريو حينئذٍ، ذهلتُ بطراز معماره الإيطالي، وجرسه العذب، وبالفتيات المبهرجات، والعائلات البرجوازية المتأنقة، الفيلم مدافع نافارون، تمثيل غريغوري بيك وأنطوني كوين وإيرين باباس، شاهدت معه، وكنا وحدنا أنا وهو، وهذا ما يحصل نادراً، فيلم أم الهند، فيلم ميلو درامي طويل جداً، كانت لدينا حساسية من الأفلام الهندية لكن قلنا لنشاهده بعد أن شاهده عبد الكريم قاسم في سينما الخيام، وضبطته في لحظة ضعف وغفلة يبكي بصمت، التفت إليه، وفي مسقط ضوء الشاشة لمحت الدموع وهي تبلل وجهه، ولم أخبره بهذا، لم أخبر أي أحد آخر كذلك، والكتب، قرأت من مكتبته عشرات الكتب التي ما كان بمقدوري شراءها، وتعرفت معه خلسة على سارتر وألبير كامو وسيمون دي بوفوار وأندريه مالرو، وغيرهم عشرات مما لم يكن جهازنا الحزبي يسمح لنا بقراءته، كان حراً بفوضوية ملونة بحمرة ماركسية، وضع جدير بروح برجوازي صغير، وأعترف أنني لم أتخلص من تأثيره الضار إلا في مرحلة متأخرة، وربما اللوثة الوحيدة في تاريخي كانت نتيجة علاقتي به، أتراني أبالغ؟ لا، فكل شيء بات واضحاً في ذهني، ولعله لا يكون بالوضوح نفسه في نظر الآخرين لأني مررت بالتجربة، وقد كانت تجربة لها جانبها الغني فضلاً عن جانبها الملتبس، ولو عاد بي الزمن الآن وخُيّرت وأنا بوعيي هذا أن أكون معه أو أبتعد لابتعدت ألف ميل فهو لطخة ملعونة في الذاكرة يستحيل محوها، والأدهى أنه يناكدني في أحلامي، أنا في بيتنا القديم يدخل هو حاملاً جهاز فونوغراف ضخم أضخم من ذاك الذي في منزله وأختي نرجس أمام طشت الغسيل بمقطع فاضح من فخذيها العاريتين، أصيح بها أن تحتشم، وتغطي عريها، فلا تأبه فيما هو يجعل

الجهاز يشتغل ويرتفع صوت ناظم الغزالي بأغنية لم أعد أذكرها، أكانت يا أم العيون السود، وتضحك هي واندفع نحو الجهاز لأحطمه، واستيقظ منقوعاً بعرق بارد، وأقول كان يجب أن يقتل محمود المرزوق رجلنا ستار نونة في بار بعقوبة في تلك الساعة علّه ينال عقوبة الشنق، وأقول أن المرزوق لم يدخل بيتنا قط، دخله مرة واحدة يوم مات أبي، وحملنا النعش وكان ضلع التابوت الأمامي البارز في جهة اليمين على كتفه الرياضي العضل، وأختي نرجس تعيط مع أمي، وما كانت أختي نرجس تخرج من البيت في أي وقت بعدما أقعدها أبي مع حصولها على شهادة السادس الإبتدائي، ومرة أولى لمّح ستار نونة لنيات مرزوق السيئة وأنه لن يمانع في التعرض لشرف أخوات أصدقائه، وحذرني من مغبة إدخاله بيتي، وسألته إن كان يعرف شيئاً، قال لا، لكني أستبق الأشياء، وفكرت أنه كان يكذب، ولم ألمس من محمود المرزوق، والحق يقال أي سلوك ينم عن نية دنيئة، غير أن ستار نونة قال هناك لغط بشأن أخواتنا يتعلق بالمرزوق فنهرته، وبقيت تلك الليلة أفكر بأسوأ السيناريوهات من غير أن أصل لفكرة مقنعة، ومن يدري، قد تكون هواجس ستار نونة صادقة، أو قد أكون نفرت من المرزوق في قرارة نفسي لهذا السبب بالذات على الرغم من أننا لم نقع على دليل واحد يؤيد شكوكنا، وحين خُطبت أختي نرجس باغتّه بالخبر ونحن وحدنا، نجلس في مقهى الجمهورية ونتصفح جريدة ما، سأل ومن هو المحظوظ، قلت ولماذا يكون محظوظاً من يخطب ابنة عائلة فقيرة، قال وكيف لا يكون محظوظاً من يرتبط بعائلة طيبة وبنت جميلة، قلت الظاهر عينك مالحة حتى مع أختي، قال ما لك إنها أختي أيضاً، ثم وهو يقهقه، أنت لم تستوعب روح الشيوعية بعد يا

رفيق، وجعلتني عبارته الأخيرة أمتلئ حنقاً عليه وأصمت بالرغم من أني اليوم أشعر وكأنه كان ساعتها على حق، ولا يأخذنكم الظن بأني متحامل عليه لهذا السبب، هو سبب تافه لم أعد أعيره أدنى اهتمام، فما أنا بصدده هو الجانب المطمور من شخصيته، ما وراء الهالة التي تلبسته، ما وراء الأسطورة التي أغدقوها عليه، ألم يتحدثوا عنه وكأنه إيمي سيزار العراق في باريس، أو ريجيس دوبريه بعقوبة في أحراش أمريكا اللاتينية، أو بيكاسونا المنفي بين حواضر القارة العجوز، وهو الذي لم يشارك في تظاهرة واحدة، ولم ينشر حتى مقالة من صفحتين، ولم تكتب عن لوحاته حتى جرائد الدرجة العاشرة، وماذا يعني أن يرجع الآن إلى بعقوبة، غير إشهار إفلاس في نهايات العمر، كما جيل المهزومين، يعرض كتباً في بلاد لم تعد تقرأ، ويرسم لوحات لن تعلق على جدار كالاريه ذي اعتبار، وسيبقى يقضي سحابة أيامه بلا طائل]

لم أحذف أو أغير أو أصحح مما كتب المدعو أثير العراقي أية كلمة أو عبارة.

الفصل التاسع

.1.

النهايات مفتوحة دائماً. ليست ثمة نهاية أكيدة يُعتدُّ بها. وكل شيء يجنح لمناكدة أفق توقعاتنا.. تنقطع فاتن عن الاتصال بي ليومين. هاتفها مغلق، ولا أعرف كيف يمكنني أن أصل إليها. لا أعرف عنوان بيت أهلها. وهي لا تداوم في كليتها لأنها متفرغة لكتابة بحثها الجامعي. تجتاحني الشكوك، الهواجس المضنية الكالحة. تخطر على بالي التوقعات السيئة.. ثم إذا بها تهاتفني والعبرات تخنقها؛ «قُتل ابن خالتي عمّار في انفجار ساحة الطيران قبل يومين».

كان ابن خالتها المهندس عمّار ماراً بالمصادفة من هناك حين انفجرت سيارة حيث يقف عمال المسطر بانتظار من يعرض عليهم عملاً ليوم أو اثنين أو لمدة أسبوع في أبعد تقدير؛ عمال بناء ورفع أنقاض وصبغ وسباكة وتأسيسات كهرباء وإسالة ماء وغيرها.. وقفتْ سيارة فاندفع نحوها العمال على أمل أن يجري اختيارهم من قبل الشاب الوسيم، بلحيته الخفيفة المشذّبة، الجالس وراء المقود.. حين اطمأن الشاب أن العدد المتحلق حول سيارته لا بأس به فجّرها.. كان ابن خالة

فاتن على بعد عشرين أو ثلاثين متراً غير أن شظيّة كبيرة طائرة حطمت قفصه الصدري، فنزف على الرصيف حتى الموت.

كيف يمكن التعليق على حدث مثل هذا؟. أية عبارات عليّ أن أتوسل بها لأواسي فاتن التي كان يجب أن أخطبها من أهلها بعد أسبوعين؟. لا شيء يمكن أن يُقال؟ لا فائدة من القول الآن؟.

أمضي الأيام التالية بهمّة فاترة، مشوش الذهن..

يعيد لي البريد الرسالة التي بعثتها على عنوان جانيت في باريس، والتي ضمنّتها رسالتي المرزوق إليها مع شرح لمصيره الفاجع، والمهمة التي كُلفت بها بكتابة سيرته.. لقد افترضت أنها ما تزال عائشة.. تعود الرسالة مع ملاحظة أن المرسل إليها غير موجودة في العنوان المذكور... ينتابني حزن شديد، كما لو أنني أتلقى خبر موت شخص قريب جداً مني.. خبران فاجعان في أسبوع واحد.

يتصل بي مصطفى كريم والأستاذ حيدر من بعقوبة، وسامي الرفاعي من هولندا، وفراس سليمان من جامعته ببغداد.. يسألون عن الصحة والعمل وأين وصلت بمشروع الكتاب؟.

أفضل ما في هذه الرحلة؛ رحلة الكتابة عن محمود المرزوق، هو اكتسابي لصداقات جديدة رائعة. ورؤيتي للمرة الأولى، على الرغم من أنها لا تبعد عن بغداد بأكثر من خمسين كيو متراً، مدينة لها جمالها المدهش الخاص، اسمها بعقوبة. مكثت فيها شهرين حافلين بالإثارة.

. 2 .

يطيح جرس الهاتف عند ارتقاء الليل برتابة الذهن.. يكسر السكينة الواهية المعزِّزة بتعب البدن وهمود العالم.. فما بين هزّة الرنين الأولى وتردد اليد وقراءة الرقم المجهول وحركة ظفر الإبهام على زر الموبايل الأخضر يتقد هاجس غامض سريع، ومع؛ «ألو، تفضل». يأتيني صوت جاد ومألوف ليعيد ترتيب الأشياء في مستوى توازن أعلى.

- معك الرائد حسن المقدادي، وآسف للإزعاج أستاذ ماجد.

أقفز من فراشي، ومن تخوم النوم في آن واحد.. صوت الرائد حسن المقدادي ينسل عبر رقم مختلف عن رقمه السابق المحفوظ في ذاكرة موبايلي دافعاً بي إلى أعلى درجات الصحو. فلابد من أن أمراً على قدر مؤثر من الأهمية يكون قد حصل ليجعل رجلاً مسؤولاً في التحقيقات الجنائية يقرر التخابر مع كاتب صحافي في الساعة الواحدة والربع بعد منتصف الليل.

- أهلاً رائد حسن.. بالعكس، لا إزعاج أبداً.. لم أكن قد غفوت بعد.

- لن أطيل بالمقدمات.. وجدنا القاتل.. اعترف هذا اليوم عصراً وأردت إخبارك.. كنا نحقق معه في قضية أخرى حتى زلّ لسانه واعترف بهذه الجريمة.. أخبرنا إنه هو من قتل محمود المرزوق.

ـ أليس هو الشخص نفسه الذي اشتبهتم به؟.

ـ لا.. وإن كان ذاك مطلوباً أيضاً في قضايا كثيرة.

ـ وهذا يعني أن لا يد لشقيق رباب بهذه الجريمة.

ـ لا نعرف.. لم تنته التحقيقات بعد.. ربما لا. ذلك الشخص الكريه ليس من ضمن أعضاء الخلية الإرهابية التي ألقينا القبض على أعضائها جميعاً. ربما هو في خلية أخرى.

ـ ولكن لماذا أقدم هذا الشخص على قتل المرزوق، ألم يفصح عن الدافع، ألم تسألوه؟

ـ سألته، قال؛ هو لا يعرف الأسباب هو ينفّذ فقط مقابل مبلغ من المال.. حياة محمود المرزوق عند هذا الشخص لم تكن تساوي أكثر من ثلاثمائة دولار، فتصوّر..

ران بيننا صمت قصير.. خانني حسّي الصحافي في طرح سؤال جديد.. وخشيت أن ينهي الرائد المكالمة قبل أن يخبرني ببقية التفاصيل.. وجدتني تحت وطأة شعور بالأسى والخواء.. هنا فاجأني المقدادي؛

ـ هناك جزء آخر أشد صدمة في الموضوع؟

ـ ما هو؟

ـ إن صدّقنا ما يقولون، أقصد بقية الجماعة من المخططين والمحرّضين فالقاتل قتل الشخص الخطأ.. لم يكن المرزوق على لائحتهم.

- ماذا؟. كيف؟.

- اسمع.. القصة غريبة بعض الشيء..

القصة كما أعدتُ صياغتها باختصار محاولاً عدم الإخلال بالمضمون، وإنْ كنت أدرك أن المضمون لن يكون هو ذاته مع تغيير الشكل؛

الخلية تسعى لقتل رجل شيخ، غامض، صفته البدنية اللافتة؛ الطول الفارع وعرض الصدر.. أعضاؤها يعتقدون أن الشيخ الضخم الغامض ذاك يعمل بصفة مستشار مع الجهات الاستخبارية العليا وهو خبير في شؤون الجماعات المتطرفة والأعمال الإرهابية، وبارع في التحقيقات المتعلِّقة بها.. يتلقون معلومات أولية سريعة من مصادرهم عن الرجل؛ هو الآن في وسط المدينة.. يجول في الشوارع وبيده عصا. وهو على أية حال غير معروف في بعقوبة لذا يمشي من غير تحسّب. (هذه الفقرة لم أقتنع بها، إذ كيف لرجل له هذه المسؤولية الخطيرة أن يمشي في السوق بلا حماية كافية.. لعله لم يدخل المدينة أصلاً(.

يأتي على وجه السرعة إلى المكان اثنان من أعضاء الخلية.. الأول هو القاتل المحترف، الذي ينجز مهماته بخفّة وبراعة في وسط أي زحام من غير أن يلفت انتباه أحد، وهو لا يعرف الضحية/ الهدف، ولم يره من قبل.. الثاني هو الدليل الذي يعرف الرجل الغامض/ الضحية بشكل جيد. هو الوحيد الذي يعرفه. الاثنان يجولان في سوق المدينة شارعاً بعد شارع حتى يصلا إلى شارع الأطباء المزدحم.

الاتفاق التكتيكي بين عضوي الخلية ال إرهابية هو أن يسلِّم الشخص

الثاني/ الدليل على الضحية، يصافحه ويتكلم معه، قبل أن يتركه. وبذا يتعرف الشخص الأول/ القاتل على طريدته.. يلتف حوله ويضع مسدسه الكاتم للصوت في خاصرته ويضغط على الزناد، فيما الزحام على أشدِّه وكلٌّ مشغول بهمِّه ونفسه، ولن يُلاحظ أيُّ أحد أيَّ شيء غير اعتيادي..

الشخص الثاني/ الدليل سبق له وأن زار مكتبة المرزوق قبل عشرة أيام وطلب كتاباً ما.. المرزوق اشترى الكتاب في هذه الآونة من أحد أولئك الذين يبيعون كتبهم تحت ضغط الحاجة، أو أنهم لم يعودوا بحاجة إلى الكتب.. المرزوق يلمح الشخص الدليل فيناديه ويسلِّم عليه.. يتصافحان.. الدليل لا يتنبه إلى سوء الفهم الذي يحصل عند الشخص الأول/ القاتل المحترف.. المرزوق والشخص الثاني/ الدليل يفترقان.. الشخص الأول/ القاتل يستدير فيمسي وراء المرزوق يقترب منه حد الالتصاق به، ومن تحت معطفه يطلق النار..

....

بعد المكالمة، وحتى انبلاج الصبح بقيت أفكر: كيف يمكن تصديق هذه القصة؟. وأية سريالية غريبة عجيبة هذه التي تنطوي عليها؟.

فكرت أن أهاتف فاتن، وهي في فترة مصابها، لأقول لها أن العناصر الأولية للكتاب ربما تكون قد انتهت وعليّ المباشرة بالكتابة الآن.. ترى هل سيمنحها هذا بعض الطمأنينة والسلوان؟.

فكرت بالرجل الهرم الغامض هذا الذي نجا من عملية الاغتيال ليكون البديل في هذه الحكاية الدامية المشؤومة هو محمود المرزوق..

فكرت بكتاب (دور الصدفة والغباء في تغيير مجرى التاريخ) لأريك دورتشميد والذي سبق لي قراءته.. أجل؛ الحدث التاريخي، في أحايين كثيرة، تصنعه عوامل المصادفة وسوء الحظ والغباء!.

فكرت بالرجل الهرم الغامض ذاك الذي ورّطني بهذه المهمة عبر تلك المكالمة الغريبة قبل أربعة أشهر ثم أقفل خط هاتفه تماماً ولم يعاود الاتصال بي مرة أخرى ليسألني ماذا فعلت؟ لكنه وفى بوعده وترك لي في حسابي المصرفي بقية أجرتي.

أفكر بالرجل الهرم الغامض هذا....

أفكر بالرجل الهرم الغامض ذاك... اختلفَ مع المرزوق - كما أخبرني في أول مكالمة له معي - قبل أكثر من عشرين سنة..

في ذلك الوقت، أين كان المرزوق؟

في باريس..

ليس ثمة ذكر لصديق عراقي للمرزوق في فرنسا كلها في كتاباته التي اطّلعت عليها.. لكنه ذهب في أواخر مدّة وجوده بباريس - وهذه المرة الوحيدة التي غادر فيها فرنسا قبل العودة إلى بلاده - إلى براغ.. وفي براغ التقى......

بمن؟.

أيمكن......؟!

لا...لا.. غير معقول.

ولكن، أية شعرة واهية تلك التي تفصل المعقول عن غير المعقول في حياة هذه البلاد؟.

....

....

- 3 -

أغادر شقتي في الفجر الرقيق البارد.. بغداد استيقظت لتوِّها.. الأشجار تطلق الفاختات وعصافير الدوري، ومعها ألوانها وروائحها.. سيارة الشرطة تلتفّ حول الساحة، وعاملان بالبدلة الزرقاء يسرعان الخطى، وامرأة تحمل صحناً خزفياً فيه قطعة كبيرة من القيمر، تتلّفت قبل عبور الشارع.. أنا أول زبون يدخل كافتريا اليمامة.. يبتسم لي النادل الشاب الذي يعرف ماذا سأطلب.. أجلس في الركن الدافئ حيث أنزوي كل يوم.. أحتسي فنجان قهوتي بالحليب وأدخن.. أخرج كرّاستي الصغيرة من حقيبتي وأدوِّن برنامجي اليومي، وأخطُّ بضع جمل ربما ستتسلل، فيما بعد، إلى نسيج كتابي عن محمود المرزوق.. بعد نصف ساعة يكون الرصيف العريض ما وراء زجاج الواجهة مكتظّاً بالعربات والمارّة.. ألتقط هاتفي الخلوي الذي أضعه أمامي، على الطاولة، وأشرع بكتابة رسالة لفاتن؛

«صباح الخير حبيبتي.. أظنني بدأتُ أعرف، الآن، إلى أين أمضي، وما يجب عليّ أن أفعل.........».

انتهت

يشتغل سعد محمد رحيم في عملية تنقيب متواصلة عميقة الغور داخل بنية المجتمع والفرد المأزوم، ويبرع في إدارته لعمله الروائي هذا في ابتكار حبكة روائية ممتعة مستعينا بلغة سلسة موحية وديناميكية بعيدة عن التجريد، مما يعزز المستويات السردية المتداخلة ويثريها ويكشف عن سعة أفق الكاتب الفكري والثقافي والانثروبولوجي الذي تتطلبه الرواية الحديثة في مسعاها لتصبح كتاب العصر وموسوعته الشاملة.

(مقتل بائع الكتب) عمل روائي ممتع، جديد، بارع ومتألق يجمع بين التشويق السينمائي والقدرة السردية اللامعة والتضمينات الفكرية والفلسفية المتواشجة مع بحث الشخصيات عن ذواتها في متاهة متشابكة من مؤثرات التاريخ والسياسة والادب والفن، وأحسب شخصيا أن هذا الكتاب صنعه سعد محمد رحيم ليقتحم الذاكرة ويبقى فيها؛ فبائع الكتب يُفنى والقراء يرحلون.. وحده الكتاب مؤهل للخلود.

الروائية لطفية الدليمي

سعد محمد رحيم روائي قابل للتجدد لأنه كاتب بارع وروايته الأخيرة (مقتل بائع الكتب) شهادة كبيرة على تجدّده وبراعته وتمكّنه من صنعته، وامتلاكه لأدواته الفنية ومقدرته الابداعية الممتازة التي تتجلى في حيازته لاستراتيجيات خاصة صارت اليوم وبعد نضوج تجاربه الكتابية تمنحه القدرة على مناورة قوانين ومقتضيات بنى القص المستقرة التي رضخت لها، باستسلام كبير، معظمُ نماذج روايتنا العراقية الراهنة.

الناقد د. حسن سرحان

مقتل بائع الكتب



سيرة المؤلف

سعد محمد رحيم

حصل على جائزة الإبداع الروائي في العراق لسنة 2000 عن روايته (غسق الكراكي). وجائزة الإبداع في مجال القصة القصيرة/ العراق 2010 عن مجموعته (زهر اللوز). وجائزة كتارا للرواية العربية - فئة الروايات غير المنشورة 2016 عن روايته (ظلال جسد.. ضفاف الرغبة).

ISBN 978-1-9882955-0-3

9 781988 295503

دار سطور للنشر والتوزيع
بغداد - شارع المتنبي - مدخل جديد حسن باشا
هاتف: 07700492576 - 07711002790
e.mail: bal_alame@yahoo.com